وقفات

على موقف السلف من تفويض الصفات ومنهجهم في الإثبات

إعداد
أ.د/ محمد محمد عبد العليم دسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

تقديم
أ. د/ عبد الله شاكر الجنيدي
أستاذ العقيدة الإسلامية
ونائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة بمصر

مراجعة
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف
الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة السعودية

الطبعة الثالثة - مزيدة ومنقحة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م

يطلب من دار العفاني ٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
٥١٠٨٢٥٧ /٠٢ - ٥٧٧٥٧١١ /٠١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ... الأعراف/ ١٨٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ... فصلت/ ٤٠﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتــاليف والترجمــة

نموذج رقم ١٧
AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation



الســيد / د/ محمد محمد عبد العليم دسوقي

الســلام عليــكم ورحمــة اللـــه وبركاته ــ وبعــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : وموضحات على طريقة منهج السلف في تفويض الصفات .. تاليفكم / عدد الصفحات / مائة وستة وثلاثين صفحة)

نفيد بأن الــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مــانع من طبعـــه على نفقتــكم الخــاصة .

مع التــاكيد على ضرورة العنــاية التامة بكتــابة الآيات القــرآنية والأحاديث النبــوية الشريفـــة . وفي حالة الزيادة في الصفحات يكون التصريح لاغيا

واللـــــه المـــــوفق ،،،

والســلام عليــكم ورحمــة اللـــه وبركاته ،،،

مدير عـــام
ادارة البحوث والتــاليف والترجمــة

تحريرا فى ٢٥/ جمادى الأولى/ ١٤٢٧ هـ
الموافق ٢١ / ٦ / ٢٠٠٦ م

الأمين المساعد للثقافة

يعتمد
الأمين العام لمجمع البحوث الأسلامية
إبراهيم عطا الفيومي

مقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور (عبد الله شاكر الجنيدي)
حفظه الله ونفع بعلمه

الحمد لله العليّ الأعلى، والصلاة والسلام على أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية، إمام المرسلين وخاتم النبيين ﷺ.. وبعد:

فإن مباحث الأسماء والصفات ومعرفة ما جاء في ذلك عن الله ورسوله- ﷺ - من مهمات مباحث الاعتقاد، وقد اعتنى سلف هذه الأمة- رضوان الله عليهم- ببيان الحق في هذا الباب، ولم لا!! وهم الذين تمسكوا بالقرآن الكريم وصحيح سنة سيد المرسلين- ﷺ- وعلى الأمة كلها أن تسلك مسلكهم وأن تقف على عقيدتهم، لأنهم المقتصدون في جميع المسائل، أهل التوسط والاعتدال في جميع الأبواب ومن ذلك باب الأسماء والصفات، وقد أحكموا القول فيه ووقفوا عند حدود النصوص الواردة إليهم في شأنه، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه دون تشبيه أو تأويل، ونفوا عنه ما نفاه عن نفسه متابعين في ذلك ما جاء في التنزيل؟؟!! .. وقد صوَّر المحققون من أهل العلم مذهبهم في كلمات أعلنوا فيها بإجماع، أن الأصل في باب الصفات أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً، فيَثبتُ لله ما أثبته لنفسه ويُنفَى عنه ما نفاه عن نفسه، لأنه قد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

ومعرفة الله بأسمائه وصفاته كما جاءت من عند الله أمر ضروري لكل عابد لربه ومولاه، وقد عرَّف الكبير المتعال عباده بنفسه في كتابه العزيز في آيات كثيرة ليُقبلوا عليه ويتزلفوا بين يديه لما هو عليه من صفات الجلال والكمال.

والمتدبر لآيات الكتاب العزيز يجد الرب تبارك وتعالى أخبر عن نفسه بأنه الحي القيوم الذي يدبر أمر عباده، وقد استوى فوق عرشه كما يليق بجلاله، يرضى ويغضب، ويعطي ويمنع، ويرى من فوق سبع ويسمع، متصف بكل كمال، منزه عن كل عيب، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

هذا وقد افترق الناس في أسماء الله وصفاته إلى فرق متعددة ومذاهب متناحرة متنافرة، خالفوا جميعهم مذهب السلف القويم الذين سلكوا أقوم

سبيل، ومال هؤلاء المخالفون إلى التأويل والتعطيل، فانحرفت بهم السبل وتشعبت بهم الطرق .. وكان من فضل الله على هذه الأمة أن قيض من أبنائها من يذب عن الدين، وينفي عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وهؤلاء هم أئمة الهدى وحماة العقيدة وحراس الشريعة، وقد جاء ذكر أسماء كثير منهم في هذا الكتاب المبارك- بإذن الله تعالى- الذي كتبه من سار على درب السابقين، وانتهل من المعين الصافي كتاب الله الحق المبين وسنة سيد المرسلين ﷺ.

إن كتاب (ومضات على موقف السلف من تفويض الصفات ومنهجهم في الإثبات) لمؤلفه الشيخ الدكتور/ محمد محمد عبد العليم دسوقي الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف، من الكتب التي تسهم بقدر كبير في بيان الحق في قضية الصفات، ولم يخرج مؤلفه فيه عن أقوال أهل العلم الذين اتبعوا سبيل الله وسبيل المؤمنين .. وقد ذكر في مقدمته وفي أثنائه- بارك الله فيه- أسماء كثير من أئمة الإسلام الذين يقتدى بهم في هذا الشأن لاقتفائهم السنة والكتاب وما أجمع عليه الأصحاب .. ولذا فإني أنصح كل مسلم أن يقرأ هذا الكتاب، وما ذكره المؤلف من كتب أخرى في هذا الباب، ليهتدي بذلك إلى الصواب .. والله الهادي إلى سواء السبيل.

كتبه
أ. د/ عبد الله شاكر الجنيدي
أستاذ العقيدة الإسلامية
ونائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر



تمهيد

تدور مادة هذا البحث حول معتقد سلفنا الصالح في توحيد الصفات، ذلك المعتقد الذي يتلخص في تنزيه الله، وإثبات ما أثبته تعالى لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ على النحو اللائق به سبحانه دون تكييف أو تفويض ولا تجسيم أو تشبيه ولا إخراج للصفات عن ظاهر معناها إلى المجاز، وسيلاحظ القارئ لهذا الكتاب كثرة التعويل على ما جاء على ألسنة الأئمة الأعلام من أهل الفقه والحديث والأصول من أهل القرن الثاني الهجري وما تلاه، كما سيلاحظ التركيز والاتكاء على إبراز ما أجمعوا عليه في هذا الصدد وما أفادوه في كلامهم من إجماع من سبقهم باعتبار أن الإجماع في حد ذاته حجة كما سيأتي تفصيله.

وإنما جاء اختيارنا لهذا المنهج على النحو الذي ذكرنا من جعل أقوال أصحاب القرون الأولى لاسيما القرن الثاني منها، محور حديثنا ومرتكزه لكونهم من ناحية يمثلون واسطة العقد، فهم وأسلافهم وأتباعهم أهل القرون الفاضلة المزكون والمشهود لهم بالخيرية، وأيضاً لأنهم الذين عاصروا فتنة جهم[1] والجعد بن درهم[2] وعايشوا ما أعقب هذه الفتنة من تحريف لتوحيد الصفات ومن

---

(1) هو الجهم بن صفوان أبو محرز مولى بني راسب صاحب البدع ظهرت بدعته بترمذ وقتله سالم بن أحوز المازني سنة ١٢٨ في آخر ملك بني أمية، وهو أول من قال الاسم غير المسمى وأخذ القول بخلق القرآن عن الجعد بن درهم، وافق المعتزلة والكرامية في مسائل منها رؤية الله ونفي الأسماء والصفات وإثبات خلق الكلام وعذاب القبر والصراط والميزان وخلق الإنسان أفعال نفسه، وكان ذا أدب ونظر وجدال ومراء وكان السلف رضوان الله عليهم من أشد الناس رداً عليه هو ومقاتل بن سليمان بخراسان لأنهما كانا طرفي نقيض أحدهما يبالغ في النفي والتعطيل والآخر يسرف في الإثبات والتجسيم، فيقول: الله جسم ولحم ودم على صورة الإنسان - تعالى الله عما قالاه علواً كبيراً - ترك الصلاة أربعين يوماً فأنكر عليه الوالي، فقال: إذا ثبت عندي من أعبده صليت له فضرب عنقه [ينظر مقالات الإسلاميين ص٦٢٧ والفرق بين الفرق للبغدادي ص١٢٨، ١٢٩ والخطط للمقريزي٢/ ٣٥٧ والإبانة الكبرى٢/ ١٩٣].

(2) هو شيخ جهم في الضلالة لكنه لم يشتهر كما اشتهر جهم، فإن الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ثم يسر الله قتله على يد خالد بن عبد الله القسري الأمير، قتله يوم عيد الأضحى في سنة ١٢٤ بعد أن خطب الناس قائلاً: "أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد

ظهور لفرق الضلال، فكان لهم الأثر البارز في رد عادية أهل الابتداع، ولكونهم- من جهة ثالثة- الأفقه بما جاء في نصوص الكتاب والسنة فيما يخص ذلك الجانب الخطير من عقيدة أهل السنة، والأشبه في نقل ما جاء عمن سبقهم من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، والأعلم بما دار من جدل عقيم استمر ولا يزال إلى يومنا هذا بعد أن راج مذهب الخلف، بل وذاع أمره وشاع صيته وانتشر على أنه المنهج الذي اختطه السلف لأنفسهم، على الرغم من وهنه وضعف حجته وأفول نجمه وتراجع الكثيرين ممن دانوا به وقضوا فيه جل أعمارهم.

وإنه لمن الغريب والغريب حقاً أن تمر الأمة المسلمة في سالف زمانها بتجربة مريرة وفي جدل عقيم يروم ويبغي تشويه توحيد صفات الخالق جل وعلا، ثم لا تفيد من هذه الفتنة وتظل سادرة في غيّ ما كان عليه السابقون ممن أضروا بمعتقد أهل القرون الماضية المشهود لها بالخير، وذلك بعد أن كدروا صفوه وطمسوا معالمه .. والأعجب من كل هذا ألا تأخذ الأمة- متمثلة في رجالاتها المنوط بهم تعليمها- بعين الاعتبار تراجع من تراجع من أولئك إلى الحق في هذا الجانب المهم والضروري في معتقد أمة الإسلام.

لذا كان من المهم أن يعمد هذا الكتاب ليختط لنفسه منهجاً يعتمد بعد الله أولاً على الإكثار من نصوص التابعين وتابعيهم لعدة أسباب.

أولها: أن كلامهم جاء كالشرح لما تضمنه كثير من نصوص الكتاب والسنة، وقد ظهر ذلك بوضوح في ثنايا كلامهم وإبان احتجاجاتهم على صحة ما ذهبوا إليه بنصوص الوحيين.

ثانيها: أن ننهل من أصحاب القرون الفاضلة أولئك - مع الهمة في الصدع بالحق وإبلاغ الناس وجه الصواب فيه- ما فقهوه في هذا الجانب الخطير، إذ فهمهم لجوانب مثل هذه الأمور المهمة هو المعول عليه وهو الذي لا يسوغ أن يتطرق إليه الشك ولا ينبغي مخالفته ولا المماراة فيه.

علواً كبيراً"، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر، روى ذلك البخاري في (خلق أفعال العباد)، وابن حاتم في كتابه (السنة) وغيرهما، وقد أخذ الجعد بدعته هذه عن بيان بن سمعان وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله في ذلك المعوذتين.

ثالثها: أن ما ابتلي به أهل الحق قديماً حيال نصوص الوحيين من ليٍّ للنصوص ومن تحريف للكلم عن مواضعه ومن اتهام للمثبتين للصفات بالتجسيم وبأنهم مشبهة، لا تزال الأمة إلى يوم الناس هذا تعاني من نظائره الأمرّين، ولئن أساغ أولئك الذين في قلوبهم مرض لأنفسهم أن يطلقوا على أئمة السلف من أصحاب القرون الفاضلة وتابعيهم أنهم مشبهة ومجسمة بسبب حملهم الصفات على ظاهرها دون ما تأويل ولا تفويض، فنحن- تجاه ذلك وحيال ما يزال أشياعهم يطلقونه على أهل الحق- على درب سلفنا الصالح سائرون، وحسب أولئك المرضى أن يبوءوا بإثم ارتداد الكلمة إليهم، وحسبهم كذلك أن يكون اتهامهم هذا لأهل الأثر علامة على انخراطهم- على حد قول إسحاق وأبي حاتم الرازي- في عداد الجهمية والزنادقة وأهل البدع، يقول إسحاق بن راهويه شيخ البخاري: "علامة جهم وأصحابه: دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة، وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبهاً"[1]، وسيأتي في ذلك كلام الإمام أبي حاتم الرازي أحد كبار أئمة أهل الأثر على ما شهد له بذلك الإمام الذهبي رحمة الله عليهما.

رابعها: أن يأتي على طريقة شيوخ الجهمية في زماننا الذين يحلو لهم- وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً- أن يكثروا من أقوال أئمة الخلف حتى من تراجع منهم - فيما يشكّل ظاهرة غريبة من نوعها- عما كان يعتقده مما خالف فيه الإجماع.

خامسها: أنه وعلى الرغم من صريح النصوص وصحيحها، فقد واجهت الثلة المؤمنة جيوش المعطلة والنفاة والجهمية وأذنابهم، فغزوهم أهل الحق بتيك النصوص، وقد كان من المفترض بعد أن ظهر الحق واتضحت أوجه الدلالة من نصوص القرآن والسنة، أن يتفشى أمره وتكون له الغلبة ويُغبط أهله، وأن يزهق الباطل ويدحض مشايعوه، لاسيما بعد أن تراجع أئمة عظام زلت بهم القدم واستضاءوا بعدئذ بنور الوحيين، تراجعاً ذيع صيته وعرفه القاصي

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٦١.

والداني، لكن- وذلك من شديد ما يؤسف له- هُجرت النصوص وشاع ما دُحض وساد ما تروجع عنه واندثر ما أجمع من قبل الأئمة عليه، فكانت الطامة وأضحى ما دُوِّن في أعقابها وما رُوِّج له، هو ما خالف الإجماع وما ناهض سبيل المؤمنين، وهو بعينه- إلا من رحم الله- ما يروج الآن ويدرس في جل معاهد العلم على أنه مذهب السلف ومعتقد أهل الحق والسنة والجماعة.

ومما تجدر الإشارة إليه-لاسيما مع تركيزنا على ما تضافر عليه سلفنا الصالح- أن نذكِّرَ بأن الإجماع مصدر من مصادر التشريع الإسلامي وحجة قطعية يجب العمل به بعد الوحيين وتحرم مخالفته، وعلى هذا اتفقت كلمة الجمهور مستدلين من الأحاديث بقول النبي ﷺ: (لا تجتمع أمتي على الضلالة)[1]، وقوله: (إنه لم يكن أن تجتمع أمتي على الخطأ)[2]، وقوله: (سألت الله عز وجل ألا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها)[3]، وقوله: (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن)[4]، وقوله: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله)[5]، ومن الكتاب بقول الله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(1) جزء من حديث رواه أنس ابن مالك مرفوعاً.

(2) وهذا من مراسيل الحسن البصري، ومراسيله أقوى من مسانيده لأنه ما كان يرسل إلا إذا حدثه أربعة من أصحابه.

(3) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي بصرة الغفاري٦/ ٣٩٦وينظر الفتح الرباني٢٣/ ٢١٦.

(4) ذكره الحافظ ابن عبد الهادي مرفوعاً عن أنس بإسناد ساقط والأصح وقفه على ابن مسعود وذلك قوله: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ"، نقله في كشف الخفاء ٢/ ٢٦٣ وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه١/ ١٦٧بإسناده عن عاصم موقوفاً، والطيالسي في مسنده في كتاب العلم١/ ٢٣من طريق عاصم عن زر بن حبيش عنه، والبيهقي في المدخل ص١١٤ من طريق عاصم عن أبي وائل عنه، وينظر في ذلك المقاصد الحسنة ص٣٦٧والسلسلة الضعيفة٢/ ١٧.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن٢/ ٤١٤من حديث ثوبان ولفظه: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق- قال ابن عيسى: ظاهرين- لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى)، وأخرجه أحمد في مسنده٤/ ٤٢٩عن عمران بن حصين بلفظ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تعالى وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام)، ومن طريق آخر بنحوه وزاد: (حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال) [ينظر الفتح الرباني٢٣/ ٢١٠]، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الفتن٤/ ٤٤٩ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، كما أخرجه ابن ماجة في المقدمة١/ ٦من حديث

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا .. النساء/ ٥٩)، والأمر معناه الشأن وهو عام يشمل الشأن الديني والشأن الدنيوي.

فأولوا الأمر في الدين وهم العلماء المجتهدون إذا أجمعوا على أمر في عصر من العصور وعلم ذلك الإجماع، فإن الحكم الذي أجمعوا عليه يصير ثابتاً قطعاً ولا يجوز مخالفته بحال، بل يجب طاعتهم فيه ولا يسع أحداً بنص القرآن أن يجتهد على خلافه، لاستحالة أن يغفل جميعهم- مع اقتران طاعتهم في الآية الكريمة بطاعة الله ورسوله ومع تزكية الله لهم في نحو قوله:

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ .. البقرة/ ١٤٣)، وقوله: (كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ .. آل عمران / ١١٠)، وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ .. التوبة/ ١١٩) - عن معنى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1]، وإذا صدق هذا في أي زمان مع أي إجماع لثقات أولي العلم ممن يؤمن تواطؤهم على الكذب من أهل الإيمان[2]، فما يكون الحال لو كان هؤلاء المجمعون هم من جعلهم الله سفراء

ثوبان، وأحمد من حديث معاوية بن أبي سفيان ورجاله ثقات لكن بلفظ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم) [ينظر الفتح الرباني ٢٣/ ٢٠٩] .. فهذه الأحاديث برواياتها وإن أفادت الظن بآحادها فإنها تفيد- بمجموعها على حجية الإجماع- القطع من باب التواتر المعنوي، لأنها اجتمعت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع، وهذا المعنى هو عصمة الأمة من الخطأ والزلل والضلالة، وبذلك يكون قولها حجة يجب العمل به.

(١) وكان الشافعي أول من استدل بهذه الآية من سورة النساء على حجية الإجماع، وقد نقل الآلوسي عن الشافعي في ذلك قصة ذكرها الآلوسي في تفسيره [ينظر تفسير الآلوسي كما ينظر تفسير الرازي١١/ ٤٣ والمستصفى للغزالي١/ ١٧٥ والمحصول للرازي والإحكام للآمدي١/ ٢٠٠ ونهاية السول٣/ ٢٤٨ والإبهاج ٢/ ٣٩٤ونهاية الوصول للهندي ٦/ ٢٤٣٦ وما بعدها].

(٢) لجواز أن يصدق لفظ (الأمة) و(المؤمنين)- الآتي ذكرها في آية النساء- على المجمعين في كل عصر، بالقياس على إجماع الصحابة، ولكون إجماعهم- وإن كانوا من غير الصحابة- يفيد الحكم قطعاً بعد أن

بيننا وبين نبيه ﷺ من أهل القرون الفاضلة، الصحابة ومن وليهم من التابعين وتابعيهم من أئمة الفقه والأصول والحديث؟، وما بالك لو كان ما أجمعوا عليه قطعي الحجة أي مما اكتملت فيه شروط الاجتهاد المعتبرة[1] ونقل نقلاً متواتراً ووافق صريح المعقول وأفصح عنه صحيح المنقول؟، وما بالك لو كان ما أجمعوا عليه هو ما أنزل الله به كتبه وارتضاه رب العزة لرسله واجتمعت عليه قلوب أنبيائه واحداً تلو الآخر؟.

ومن أدلة الجمهور على حجية الإجماع- من غير ما ذكرنا- ما ورد في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ .. النساء/ ١١٥)، كذا بوعيد الله الشديد بدخول جهنم وسوء المصير وباقتران مخالفة ما ارتآه المؤمنون وأجمعوا عليه بمشاقة الرسول ﷺ، الأمر الذي يعني تحريم خرق ما أجمعوا عليه وتجريم اتباع غير سبيلهم، ويعني كذلك وجوب اتباع ما ارتضوه واتفقوا عليه، وبطلان ما خالف طريقهم[2].

كان هذا الحكم ظنياً فيكون حجة على ما ذهب إليه الجمهور [ينظر المعتمد٢/ ٤٨٣ والتبصرة ص٣٥٩ والمستصفى١/ ١٨٩ والمحصول٢/ ٢٨٣ والإحكام للآمدي ١/ ٢٣٠ وفواتح الرحموت٢/ ٢٢٠ونهاية الوصول في دراية الوصول لصفي الدين الهندي٦/ ٢٦٥٧ وما بعدها].

[1] بأن يتم الاتفاق من مجتهدي عصر من العصور من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته على حكم شرعي وأن ينقل إجماعهم الذي استندوا فيه على دليل قطعي بطريق التواتر، وقال بعض الأصوليين باشتراط موت المجمعين على هذا الحكم وانقراضهم دون أن تحدث من أحدهم مخالفة أو رجوع عن رأيه[ينظر أصول الفقه الإسلامي لعبد المجيد مطلوب ص١٥٥وما بعدها]، والإجماع بهذا دليل مستقل بذاته ويأتي ترتيبه باعتباره مصدراً للتشريع بعد الكتاب والسنة الصحيحة، إذ لا يمكن الاتفاق على ما يخالفهما، كما لا يكون الإجماع إلا في الأمور القطعية المعلومة من الدين بالضرورة وإلا كان ذلك الإجماع من قبيل الادعاء والكذب على ما قرره الشافعي وأحمد[ينظر السابق ص١٧٤]، وفي هذا تأكيد على أن ما قاله أئمة الخلف مما تراجعوا عنه فيما بعد إلى الإجماع في مسائل الصفات، لم يكن لهم فيه مستند لمخالفتهم المعقول والمنقول، وفي تراجعهم أكبر دليل على خطئهم وتركهم في بداية الأمر وفي بعض فترات حياتهم ما أجمع عليه السلف.

[2] ولئن دلت النصوص على حجية الإجماع فلقد دل عليه أيضاً المعقول الذي يقضي بأن هذه الأمة آخر الأمم لأنه قد ثبت أنه لا نبي بعد نبيهم ومن ثم فلا أمة بعدهم، فلو جاز اجتماعهم على الخطأ لاحتاجوا إلى نبي يدعوهم على الحق كما احتاجت إليه سائر الأمم التي كانت على الباطل، ولازم ذلك باطل بنصوص الكتاب والسنة فبطل ما أدى إليه وثبتت بذلك حجية الإجماع.

نقول هذا لنقف على خطورة الأمر ولنعلم إلى أي مدى يمكن أن يصل إليه حالنا إن نحن خالفنا ما أجمع السابقون عليه أو تركنا ما اتفق عليه الصحب الكرام، بل وما تستطيع أن تقول ما أجمع عليه وبعث به وله أنبياء الله جميعاً من آدمهم إلى محمدهم، وإذا كان عاقبة مخالفة إجماع أهل العلم هو ما ذكرنا فما يكون عاقبة من خالف إجماع الصحابة، وما يكون حال من خالف ما أجمع عليه أنبياء الله ورسله عليهم من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات؟.

على أن الأشخاص الذين سعدت بهم الدنيا عبر القرون الفاضلة وانعقد بهم – وعلى أساس معتقدهم المتصل السند – الإجماع لم يُتركوا من قِبل أهل العلم دون ما ذكر لأعيانهم، وإنما تعمدوا ذكرهم حتى لا يُلتفت لغيرهم ممن لا تؤمن عليه الفتنة .. وحتى يكونوا شامة في الأمة فيعرف الحق بهم على مدار القرون المتطاولة وعلى امتداد العصور المتتالية لكونهم- من دون سواهم- أهل الحق الذين عرفوا به .. وحتى لا يُحاد عن منهجهم وهم المرضي عنهم من قِبل الله ورسوله.

وفي شأن ذلك وأولئك يقول صاحب (الحجة في بيان المحجة)[1]: "أخذ رسول الله ﷺ السنة عن الله عز وجل، وأخذ الصحابة عن رسول الله وأخذ التابعون عن الصحابة، وهؤلاء الصحابة هم الذين أشار إليهم رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم، ثم أشار الصحابة إلى التابعين بعدهم مثل سعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص[2] والأسود[3] والقاسم[4] وسالم[5] ومجاهد

---

(1) هو الإمام حافظ وقته أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن محمد بن الفضل التيمي الطلحي الأصبهاني صاحب مصنف (الترغيب والترهيب) ت ٥٣٥.

(2) الليثي المدني ثقة حدث عن عمر وعائشة وابن عباس .. التذكرة١/ ٥٣ والتقريب٢/ ٣١.

(3) ابن يزيد بن قيس أبو عمرو النخعي الإمام الفقيه الزاهد العابد عالم الكوفة وابن أخي عالمها علقمة، أخذ عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وحذيفة وبلال، وكان من العبادة والحج على أمر كبير مات سنة٧٥ أو قريباً منها .. التذكرة١/ ٥٠والتقريب١/ ٧٧.

(4) ابن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي، سمع عمته عائشة وابن عباس وابن عمر، قال ابن سعد: كان إماماً فقيهاً ثقة رفيقاً ورعاً كثير الحديث مات سنة١٠٦ .. التذكرة١/ ٩٦ والتقريب٢/ ١٢٠.

(5) ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمرو، المدني الفقيه الثقة الحجة سمع أباه وعائشة وأبا هريرة وغيرهم، قال مالك: "لم يكن أحد في زمانه أشبه من مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه"، ت٩٤ وقيل١٠٣ .. التهذيب٢/ ٢٥٦

وطاووس[1] وقتادة[2] والشعبي[3] وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري ومحمد بن سيرين[4]، ثم من بعدهم مثل أيوب السجستاني[5] ويونس بن عبيد[6] وسليمان التيمي[7] وابن عون[8] .. ثم مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس والزهري والأوزاعي وشعبة[9].. ثم مثل يحيى بن سعيد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة .. ثم مثل أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح وابن نمير[10] وأبي نعيم[11] والحسن بن ربيع[12] .. ثم من بعدهم مثل أبي عبد الله أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي زرعة الرازي وأبي مسعود الرازي[1] وأبي حاتم الرازي .. ونظرائهم مثل من كان من أهل

---

(1) ابن كيسان أبو عبد الرحمن الحميري الفارسي، يقال اسمه ذكوان وطاووس لقبه، وهو فقيه ثقة عفيف فاضل من عباد أهل اليمن وسادات التابعين، أدرك خمسين من الصحابة وروى عن كثير منهم ت١٠٦ وقيل قبل ذلك .. التقريب١/ ٣٧٧، التهذيب٣/ ٩.

(2) ابن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري الأكمه، تابعي ثقة ثبت، ت١١٧ واسط .. التقريب٢/ ١٢٣ وفيات الأعيان٤/ ٨٥، ٨٦.

(3) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد الهمداني الكوفي، كان إماماً ثقة حافظاً متقناً ذا علم وأدب وفقه من الإسلام بمكان، أدرك خمسمائة من الصحابة وسمع من ثمانية وأربعين منهم، قال عنه أبو الحصين: "ما رأيت أعلم من الشعبي" ت١٠٤ .. التذكرة١/ ٧٩ والتقريب١/ ٣٨١.

(4) الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري ثقة ثبت عابد كبير القدر كان لا يرى الرؤية بالمعنى وكان مشهوراً بتفسير الرؤيا ت١١٠ ..التقريب٢/ ١٦٩ وفيات الأعيان٤/ ١٨١.

(5) ابن أبي تميمة، قال عنه ابن سعد: كان ثقة ثبتاً في الحديث، جامعاً عدلاً ورعاً كبير العلم حجة ت ١٣١.. الطبقات ٧/ ٢٤٦ اللباب٢/ ١٠٨.

(6) ابن دينار البصري، قال عنه الذهبي: "كان أحد الأئمة الأعلام الورعين"، وقال ابن حبان: "كان من سادات أهل زمانه علماً وفضلاً وحفظاً وإتقاناً وسنة وبغضاً لأهل البدع مع التقشف الشديد والفقه في الدين والحفظ الكثير" ت١٣٩ .. التذكرة ١/ ١٤٥ والتهذيب٦/ ٢٧٩.

(7) هو ابن طرخان البصري قال يحيى القطان في شأنه: كان لا يقدم عليه أحد من البصريين ت ١٤٢أو ١٤٣ ..الطبقات٧/ ٢٥٢ والتذكرة١/ ١٥٠.

(8) هو عبد الله ابن عون بن أرطبان ما كان بالعراق أعلم بالسنة منه ت١٥١.. التذكرة١/ ١٥٦.

(9) ابن الحجاج أبو بسطام، أمير المؤمنين في الرواية والتحديث ت١٦٠ ..حلية الأولياء ٧/ ١٤٤.

(10) محمد بن عبد الله بن نمير الهمذاني، قال فيه ابن حنبل: ابن نمير درة العراق ت١٩٩ .التذكرة١/ ٣٢٨.

(11) الفضل بن دكن الكوفي، كان ثقة ثبتاً في الرواية مهاباً بين الناس امتحن بخلق القرآن فلم يجب إلى ذلك ت٣١٩.. الطبقات٦/ ٤٠٠ تاريخ بغداد١٢/ ٣٤٦.

(12) يكنى أبا علي، من أصحاب عبد الله بن المبارك وكان ثقة متواضعاً ت٢٢١..الطبقات٦/ ٤٠٩.

مسعود الرازي[1] وأبي حاتم الرازي .. ونظرائهم مثل من كان من أهل الشام والحجاز ومصر وخراسان وأصبهان والمدينة مثل محمد بن عاصم[2] وأسيد بن عاصم[3] وعبد الله بن محمد بن النعمان[4] ومحمد بن النعمان[5] والنعمان بن عبد السلام[6] رحمة الله عليهم أجمعين .. ثم من لقيناهم وكتبنا عنهم العلم والحديث والسنة مثل أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمزة[7] وأبي القاسم الطبراني[8] وأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان[9] ومن كان في عصرهم من أهل الحديث، ثم بقية الوقت أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة الحافظ رحمه الله.

فكل هؤلاء سرج الدين وأئمة السنة وأولو الأمر من العلماء، وقد اجتمعوا على جملة هذا الفصل من السنة وجعلوها في كتب السنة"[10].

---

(1) هو أحمد بن الفرات بن خالد الضبي نزيل أصبهان، قال عنه الإمام أحمد: "ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود" ت٢٥٨ .. تهذيب١/ ٩٦ التقريب١/ ٢٣.

(2) أبو جعفر الأصبهاني العابد، سمع سفيان بن عيينة وغيره، قال إبراهيم بن أرومة: "ما رأيت مثل محمد بن عاصم" .. العبر٢/ ٢٥.

(3) ابن محمد الملقب بأبي الحسين كان ممن سلك مسلك أصحاب الثوري في العبادة ومكارم الأخلاق ت٢٧٠ .. حلية الأولياء (٦٧٥) والعبر للذهبي٢/ ٤٤.

(4) ابن عبد السلام أبو بكر، ثقة مأمون، روى عن أبي نعيم وعمرو بن طلحة ومحمد بن الصلت وغيرهم ت٢٨١ .. تاريخ أصبهان٢/ ٥٦.

(5) ابن عبد السلام بن حبيب أبو عبد الله التميمي من الطبقة السادسة من محدثي أهل أصبهان محدث من أولاد محدثين ت٢٤٤ .. تاريخ أصبهان٢/ ١٨٣.

(6) ابن حبيب بن حطيط الملقب بأبي المنذر، ينتهي نسبه إلى أبي بكر بن وائل، أحد العباد والزهاد والفقهاء، كان يتفقه على مذهب الثوري وجالس أبا حنيفة وروى عن ثلاثة من التابعين ت١٣٣وقيل ١٧٠ ..تاريخ أصبهان٢/ ٣٢٨.

(7) ابن عمار الأصبهاني الملقب بأبي إسحاق، حافظ ثبت كبير، قال عنه ابن مندة: "لم أر أحفظ منه" ت٢٥٣.. التذكرة٣/ ٩١٠.. طبقات الحفاظ للسيوطي٣٧١.

(8) سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي نزيل أصبهان، مسند الدنيا المحدث المشهور، صاحب المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير في الحديث، وله كتاب في السنة وكتاب دلائل النبوة وأخرى تدل على حفظه وبراعته وسعة روايته ت٣٦٠.. التذكرة ٣/ ٩١١ وطبقات الحفاظ ٢/ ٣٧٢ والعلو ص١٦٦.

(9) الأنصاري المعروف بأبي الشيخ صاحب المصنفات السائرة، كان حافظاً ثبتاً متيناً ت ٣٦٩ .. التذكرة ٣/ ٩٤٥.

(10) الحجة للأصبهاني١/ ٢٣٧: ٢٤٢.

وإنما جاء التواصل في السند لدى هؤلاء جميعاً على الرغم من بعد المسافة الزمنية أحياناً، عن طريق توصية كل فريق بضرورة أخذ العلم وأمور الاعتقاد ممن بعده، "فيشير النبي ﷺ إلى أصحابه رضي الله عنهم، وأصحابه إلى التابعين رحمهم الله، والتابعون إلى تابعي التابعين، كذلك يشير الأول إلى الآخر وينتحل[1] الآخر الأول، ولا يزال الأمر كذلك حتى تقوم الساعة، وفي الحديث: (لا يزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم) "[2]، الأمر الذي يعني أن أولئك الذين ذكرهم أهل العلم لا يسوغ الخروج على إجماعهم ولا ينخرم الإجماع أصلاً بمخالفتهم، وأن أيَّ إنسان يخالف ما كانوا عليه فيما دقّ أمره أو جلّ، هو عالم ضلالة مهما عظم أمره أو ادعى لنفسه- وما أكثرهم في زماننا- علم الأولين والآخرين.

وفي كلام متصل بما نحن بصدده ينقل صاحب الحجة عن بعض علماء السلف قوله:

"لا يكون الرجل إماماً في الدين حتى يكون جامعاً لهذه الخصال، يكون حافظاً للغات العرب واختلافها ومعاني أشعارها، حافظاً لاختلاف الفقهاء والعلماء، ويكون عالماً فقيهاً حافظاً للإعراب والاختلاف فيه عالماً بكتاب الله تعالى وقراءاته واختلاف القراء فيها، عالماً بتفسيره ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وقصصه، عالماً بأحاديث رسول الله ﷺ مميزاً بين صحيحها وسقيمها ومتصلها ومنقطعها ومراسيلها ومسانيدها ومشاهيرها وغرائبها، وبأحاديث الصحابة رضي الله عنهم، ثم يكون ورعاً صايناً صدوقاً ثقة يبني مذهبه ودينه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وإذا لم يكن جامعاً لهذه الخلال لم يجز أن يكون إماماً في المذهب وأن يقلده الناس في فتاويه، قال بعض العلماء عقيب مثل هذا الكلام: وإذا ثبت هذا، نظرنا في أمر جماعة ادعوا أنهم أصحاب مذاهب واخترعوا مذاهبهم على عقولهم .. وسألنا الخاص والعام عن هؤلاء فقلنا: أهؤلاء أهل العلم كالصحابة والتابعين؟ قالوا: لا، وليسوا بمعروفين من أهل العلم، قلنا: هؤلاء من أهل

---

(1) أي يوافق ويوالي.

(2) الحجة للأصبهاني ١/ ٢٧٦ مجلد ١.

الفقه كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وأمثالهم؟ قالوا: لا، ولا معروفين فيهم، قلنا: هؤلاء من أهل الأدب والمعرفة بلغات العرب كأبي عمرو بن العلاء[1] والأصمعي[2] والكسائي[3] وأمثالهم؟ قالوا: لا، ولا معروفين فيهم، قلنا هؤلاء من أهل الإعراب والنحو كالخليل[4] وسيبويه[5] والفراء[6] وأمثالهم؟ قالوا: لا، وغير معروفين فيهم، قلنا: هؤلاء من أهل العلم بالقرآن والقراءات كنافع[7] وابن كثير[8] وأبي عمرو[9] وحمزة[10] وأمثالهم؟ قالوا: لا، وغير معروفين فيهم، قلنا: هؤلاء من أهل المعرفة بناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه كمجاهد وقتادة وأبي العالية[11]؟ قالوا: لا، وغير معروفين فيهم، قلنا: هؤلاء من أهل العلم والمعرفة بأحاديث النبي ﷺ وأحاديث الصحابة كالزهري ومالك بن

---

(1) النحوي البصري المقرئ، أحد الأئمة القراء السبعة، كان صدوقاً مأموناً متمسكاً بالآثار، قال عنه إبراهيم الحربي: "كان أهل العلم بالعربية من أهل البصرة أصحاب أهواء إلا أربعة: أبو عمرو بن العلاء والخليل بن احمد ويونس بن حبيب والأصمعي" ت١٥٤وقيل١٥٧. التهذيب ٦/ ٤١٦ وينظر ترجمته في الميزان.

(2) الإمام المشهور اللغوي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أجمع الباهلي من أهل البصرة ت٢١٥.. اللباب٢/ ٧٠.

(3) إمام القراء أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، أحد القراء السبعة مات بالري ١٨٩وقيل غير ذلك .. اللباب٢/ ٩٧.

(4) بن أحمد الفراهيدي الإمام اللغوي المشهور بالنحو والعروض .. اللباب٢/ ٤١٧.

(5) هو إمام النحاة عمرو بن عثمان قنبر الحارثي أبو بشر، كان أعلم الناس بالنحو حتى أنه صنع كتاباً فيه لم يودع مثله قبله ولا بعده ت١٨٠ .. وفيات الأعيان٣/ ٤٦٣.

(6) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله اللغوي، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو وفنون الآداب، وقيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام، كان ثقة إماماً ت٢٠٩وقيل غير ذلك ..اللباب٢/ ٤١٤وتاريخ بغداد١٤/ ١٤٩: ١٥٥ووفيات الأعيان٦/ ١٧٦: ١٨٢.

(7) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، أحد القراء السبعة ثقة صالح، انتهت إليه رئاسة القراءة بالمدينة، ت١٧٠ وقيل غير ذلك.. غاية النهاية في طبقات القراء للجزري٢/ ٣٣٠.

(8) هو عبد الله بن كثير بن المطلب المكي الدارمي، قال عنه مجاهد: لم يزل عبد الله هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى مات، ت١٢٠ ..غاية النهاية١/ ٤٤٣.

(9) هو الإمام العلامة عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو الداني القرطبي الأندلسي، شيخ مشايخ المقرئين ت٤٤٤ .. غاية النهاية١/ ٥٠٣والعلو ص١٨١.

(10) ابن حبيب بن عمارة الإمام الحبر أبو عمارة الكوفي التميمي الزيات، أحد القراء السبعة ت١٥٦.. غاية النهاية للجزري١/ ٢٦١.

(11) هو رفيع- بالتصغير- ابن مهران الرياحي، قال أبو بكر بن أبي داود: ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبي العالية ت٩٣.. التذكرة ١/ ٦١والتقريب١/ ٢٥٢.

أنس ويحيى بن سعيد[1] وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين؟ قالوا: لا، وهم لا يقولون بالحديث، قلنا: هؤلاء من أهل الزهد والعبادة كالحسن البصري وفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم[2] ويحيى بن معاذ وأمثالهم؟ قالوا: لا، وغير معروفين فيهم، قلنا: هل بنوا مذهبهم على ما بناه عليه هؤلاء من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ؟ قالوا: لا، قلنا: فمن أي الناس هم؟ قالوا: من أهل القول بالعقل، فمن نظر بعين الإنصاف علم أنه لا يكون أحد أسوأ مذهباً ممن يدع قول الله وقول رسول الله وقول الصحابة وقول العلماء والفقهاء بعدهم ممن يبني مذهبه ودينه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كيف لا يأمن أن يكون متبعاً للشيطان؟ أعاذنا الله من متابعة الشيطان"[3].

وإنه لما يلفت النظر ويسترعي الانتباه، أن يستعمل أئمة الهدى ومصابيح الدجى من أئمة العلم آحاداً وحكاماً رعاة ورعية ممن ذكرنا بعضهم وتوفرت فيهم شروط الإمامة وعُلم- من دون غيرهم- فضلهم، وشهد لرسوخ أقدامهم في العلم- دون سواهم من أهل البدع والأهواء- القاصي والداني .. يستعملوا كل أساليب الإنكار ضد أولئك الذين أخذوا عن المعتزلة والجهمية ومتأخري الأشاعرة القول بالتفويض في معاني الصفات واللجوء إلى إخراجها إلى غريب المجازات وتأويلها على نحو غير صحيح، وعلى نحو ما هو شائع الآن من تأويل اليد بالقدرة والاستواء بالاستيلاء والوجه بالذات إلخ.. وذلك بدءً من الزجر والتقريع والتحذير ممن يصدر عنه شيء من هذا القبيل، ونهاية بالحكم عليه بالكفر والارتداد واستحلال دمه بالقتل بعد إقامة الحجة وبعد استتابته، ومروراً بتعنيفه وزجره، وبتأديبه بالضرب بالنعال على أم رأسه، وبتبكيته والتطواف به على سبيل التشنيع والإهانة .. ومن النصوص الدالة على ذلك والمبينة إلى أي مدى كانت خطورة الخروج في أمر الصفات عما كان عليه سلفنا الصالح عند أهل العلم والفضل:

---

(1) القطان البصري، قال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت بعيني مثل يحيى بن سعيد القطان ت١٩٨ .. الطبقات٧/ ٢٩٣والتذكرة١/ ٢٩٨.

(2) ابن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق، زاهد مشهور من أهل بلخ، رحل إلى بغداد وجال في العراق والشام والحجاز ت١٦١ .. الأعلام١/ ٣١.

(3) الحجة بتصرف واختصار١/ ٣٠٦: ٣١١ مجلد١.

ما أورده الذهبي عن العلامة أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي ت ٢١٩هـ مفتي أهل مكة وعالمهم بعد شيخه سفيان بن عيينة، في قوله: "ما نطق به القرآن والحديث مثل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .. المائدة/ ٦٤)، ومثل قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ .. الزمر/ ٦٧)، وما أشبه ذلك من القرآن والحديث، لا نزيد فيه ولا نفسره[1]، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ونقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ .. طه/ ٥)، ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمي"[2] .. وما ذكره- وبنحوه ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري)- عن إمام المذهب الإمام أبي الحسن الأشعري فيما رواه عنه زاهر بن أحمد الفقيه قال:

"مات الأشعري رحمه الله في حجري، فكان يقول شيئاً في حال نزعه من داخل حلقه، فأدنيت إليه رأسي وأصغيت إلى ما كان يقرع سمعي فكان يقول: (لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا)"[3]، وما ذكره عنه نقلاً عن ابن الباقلاني في كتاب (الذب عن أبي الحسن الأشعري)، فقد قال الأشعري بعد أن أوضح أن مذهبه هو إثبات اليدين والوجه والعينين وأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا وأنه يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام وأنه مستو على عرشه كما ذكر مالك:

"فمن تجاوز هذا فقد تعدى وابتدع وضل"[4]، وبنحوه أورد الذهبي عن الإمام العارف بالله معمر بن زياد الأصبهاني[5] بعد سرده لبعض ما أجمع عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من أن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل وأنه يتكلم ويرضى ويسخط ويعجب ويضحك ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، ولفظه: "فمن أنكر النزول أو تأول فهـو مبتدع

---

(١) يعني تفسيراً يخرجه عن ظاهر معناه من نحو ما ابتكره المعطلة وفعله المؤولة من تفسير للصفات على خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون كما سيتضح لنا في ثنايا هذا البحث.

(٢) العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار للحافظ شمس الدين الذهبي ص ١٢٢، ١٢٣ ومختصره للألباني ص ١٨٠ وينظر مفصل الاعتقاد لابن تيمية ص٦ والمعارج ١/ ١٣٩.

(٣) العلو ص ١٦٢ ومختصره ص٢٤٠ وينظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص١٤٨.

(٤) العلو ١٧٤ ومختصره ص٢٥٩ وينظر الذب عن الأشعري للباقلاني.

(٥) هو أبو منصور معمر بن أحمد بن محمد شيخ الصوفية في زمانه، روى عن الطبراني وذويه ت٤١٨ .. العلو للذهبي ص ١٧٧ وشذرات٣/ ٢١١.

ضال"[1].. وما ذكره عن سهل التستري فيمن تأول وكيّف الاستواء وأدخل في البحث عن كنهه، العقل: "إنما سمي الزنديق زنديقاً لأنه وزن دق الكلام بمخبول عقله، وترك الأثر وتأول القرآن بالهوى، فعند ذلك لم يؤمن بأن الله على عرشه"[2].. وما أورده عن شيخ الإسلام يزيد بن هارون إمام أهل واسط ت٢٠٦- وبنحوه عن الإمام القعنبي[3] لما سمع رجلاً من الجهمية يقول: (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ)- قال:

"من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي"[4].

وقريب من ذلك ما ذكره عن يحيى بن معاذ الرازي[5] قال: "إن الله على العرش بائن من خلقه أحاط بكل شيء علماً، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمي يمزج الله بخلقه"[6].. وما زاد في شهرته من قول مالك لمن سأل عن الاستواء ابتغاء نفيه وابتغاء تأويله: "وأنت صاحب بدعة"، "(وأني أخاف أن تكون ضالاً) فأمر به فأخرج"[7].. وما نقله عن عالم البصرة سعيد بن عامر الضبعي ت ٢٠٨ لما ذكر الجهمية، من قوله: "هم شر من اليهود والنصارى، قد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين، على أن الله عز وجل على العرش، وقالوا هم: ليس على شيء"[8].. وعن

---

(1) العلو ١٧٧ ومختصره ص٢٦٢ واجتماع الجيوش ص١٠٨.

(2) العلو ص ١٤٨ ومختصره ص٢٢٠ والمعارج١/ ١٤٥.

(3) هو من أئمة الهدى حتى لقد تغالى فيه بعض الحفاظ وفضله - والكلام هنا للإمام الذهبي في العلو ص ١٢١ - على مالك، ت٢٢١ عن بضع وثمانين سنة، وهو أكبر شيخ لمسلم مطلقاً.

(4) والعامة مراد بهم جمهور الأمة وعامة أهل العلم، والذي وقر في قلوبهم من الآية هو ما دل عليه الخطاب مع يقينهم بأن المستوي ليس كمثله شيء .. ولو كان له معنى وراء ذلك لتفوهوا به ولما أهملوه، ولو تأول أحد منهم الاستواء لتوفرت الهمم على نقله ولو نقل لاشتهر، كذا ذكره الذهبي ونص عليه .. ينظر العلو ١١٧ والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص١٧ واجتماع الجيوش ص٨٥ والمسائل لأبي داود ص٢٦٨ والمعارج ١/ ١٣٧، ١٣٩ وذكر البخاري في أفعال العباد عن يزيد بن هارون مثله.

(5) هو واعظ زمانه أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر، زاهد من أهل الري أقام ببلخ ومات بنيسابور ٢٥٨ .. الأعلام٨/ ١٧٢.

(6) العلو للحافظ الذهبي ص١٤٠ ومختصره ص٢٠٨ وينظر الفاروق للهروي والمعارج١/ ١٤٣.

(7) العلو ص١٠٣، ١٠٤ ومختصره ١٤١.

(8) العلو ص ١١٧ ومختصره ص١٦٨ واجتماع الجيوش ص٨٤ والمعارج١/ ١٣٧.

ابن الماجشون[1] لما سئل عما جحدت به الجهمية قال: "أما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً فقد استهوته الشياطين في الأرض حيران، فعمي عن البيِّن بالخفيّ ولم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .. القيامة/ ٢٢، ٢٣) فقال: لا يرى يوم القيامة، وقد قال المسلمون لنبيهم: هل نرى ربنا يا رسول الله؟ فقال: (هل تضارون في رؤية الشمس .. الحديث) .. إلى أن قال: وقال رسول الله ﷺ: (لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط قط ويزوى بعضها على بعض)[2]، وقال لثابت بن قيس: (لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة)[3]، وذكر فصلاً طويلاً في هذا المعنى"[4].. وفي قول لابن جرير الطبري في ذم النفاة وما يسع المسلم اعتقاده يقول رحمه الله: "وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر"[5]، ويقول عالم الديار المصرية في وقته الإمام أبو جعفر الطحاوي ت٣٢١: "من رام ما حُظِرَ عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصحيح الإيمان، ومن لم يتوَقّ النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه"[6].

---

(١) مفتي المدينة وعالمها مع مالك ت١٦٤ وكان بحراً زاخراً من بحور العلم بالحجاز، نودي مرة بالمدينة بأمر المنصور: (لا يفتي الناس إلا مالك وعبد العزيز بن الماجشون) كذا ذكره الذهبي في العلو ص١٠٦.

(٢) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري في الصحيح٣٧٨٤، ٤٥٦٧، ٤٥٦٩، ٤٨٤٨، ٤٨٥٠، ٦٢٨٤، ٦٦٦١، ٧٤٤٩ ومسلم ٢٨٤٦، ٢٨٤٨والنسائي في الكبرى٧٧١٩، ٧٧٢٥ ٧٧٤٠، ١١٥٢٢والترمذي ٣٢٧٢وابن حبان٤٧٧، ٧٤٤٧وأحمد٢/ ٢٧٦، ٣/ ٢٣٤، ٢٧٩.

(٣) وتمامه أن رجلاً أتى النبي فبعث إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء، فقال صلى الله عليه وسلم من يضف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان، فقال: هيئي طعامك وأصلحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا العشاء، ففعلت ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته وجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد ضحك الله الليلة – أو عجب – من فعالكما، وأنزل: (ويؤثرون على أنسهم ولو كان بهم خصاصة .. الحشر/ ٩)، أخرجه وبنحوه البخاري٣٥٨٧، ٣٧٩٨، ٤٦٠٧، ٤٨٨٩ وفي الأدب ٧٤٠ ومسلم ٢٠٥٤والنسائي في الكبرى ١١٥٨٢وابن حبان ٧٢٦٤ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٦٢٦.

(٤) العلو ١٠٦ومختصره ص١٤٥.

(٥) شرح أصول السنة١/ ١٨٦والعلو ص١٥٠ومختصره ص٢٢٣ واجتماع الجيوش ص٧٥.

(٦) العلو ص ١٥٨ومختصره ص ٢٣٥.

ومما ورد من أساليب التهديد والوعيد في تأديب من خالف طريق السلف في باب الصفات، ما أورده الذهبي كذلك عن إبراهيم بن موسى قال: "كنت عند بكير بن جعفر فجاء رجل فقال: الله على عرشه كيف؟ فقال بكير: جروا برجله، فجروه" .. وما أورده عن عبد الله بن أبي جعفر الرازي فيما حكاه عنه صالح بن الضريس قال:

"جعل عبد الله يضرب رأس قرابة له يرى برأي جهم، فرأيته يضرب بالنعل على رأسه ويقول: لا، حتى تقول (الرحمن على العرش استوى، بائن من خلقه)"[1].. وعن عالم الري هشام بن عبيد الله الرازي[2] وكان قد قضي بحبس رجل يخوض في الصفات، فلما قيل: إنه تاب، جئ به إليه ليمتحنه فقال له: (أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه؟) قال: لا أدري ما بائن من خلقه، فقال: (ردوه فإنه لم يتب بعد)[3].. وعن قاضي القضاة الإمام أبي يوسف[4] تلميذ أبي حنيفة من قوله لرجل به شيخوخة ومعه علي الأحول- وقد أنكرا فوقيته تعالى وقالا بما قال به بشر المريسي من أن الله في كل مكان: "لولا أن فيك موضع أدب لأوجعتك"، فأمر به إلى الحبس، وضرب الأحول وطوف به[5].. وعن أعلم أهل زمانه الإمام عبد الرحمن بن مهدي[6] قال:

"إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله كلم موسى وأن يكون على العرش، أرى أن يستتابوا، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم"[7]، وما نقله عن الإمام أبي حنيفة في حق من قال: (لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض)، أو أنكر أنه

---

(1) العلو ص١١٣، ١١٩ ومختصره ص ١٥٩، ١٧٣ واجتماع الجيوش ص٨٦ والمعارج ١/ ١٣٨.

(2) هو من أئمة الفقه على مذهب أبي حنيفة، تفقه على محمد بن الحسن ت٢٢١، وكان- على ما جاء في العلو ص١٢٣ - ذا جلالة عجيبة وحرمة عظيمة".

(3) العلو ص ١٢٣ ومختصره ص١٨١ والحموية ص٢٩ والمعارج ١/ ١٣٩.

(4) هو يعقوب بن إبراهيم الكوفي، أكثر العلماء على تفضيله وتعظيمه ت١٨٢.. شذرات١/ ٢٩٨.

(5) ينظر العلو ص ١١٢ ومختصر ص ١٥٥.

(6) ابن حسان العنبري، ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، قال فيه علي بن المديني: "حافظ الأمة، لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت أعلم من ابن مهدي"، من الطبقة التاسعة ت ١٩٨ .. التقريب٢/ ٤٩٩ والعلو ص١١٨.

(7) العلو ص ١١٨ ومختصره ص١٦٩ كما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص١٦، ١٧ وابن القيم في جيوشه ص٨٤، ٨٥ وحكمي في المعارج١/ ١٣٨.

تعالى في السماء، فقال: "قد كفر"[1].. وما أورده عن شيخ بغداد أبي جعفر محمد بن مصعب العابد[2] الذي سُمع يقول في مناجاته ربه:
"من زعم أنك لا تتكلم ولا تُرى في الآخرة، فهو كافر بوجهك، أشهد أنك فوق العرش، فوق سبع سماوات ليس كما يقول أعداء الله الزنادقة"[3].. وعن إمام أهل البصرة حماد بن سلمة- وكان رأساً في العلم ت١٦٧- في حديث النزول:

"من رأيتموه ينكر هذا فاتهموه"[4].. وعن وهب بن جرير- من أئمة البصرة ت٢٠٦- قال: "إياكم ورأي جهم، فإنهم يحاولون أنه ليس شيء في السماء وما هو- يريد نفيهم علوه تعالى على عرشه- إلا من وحي إبليس، ما هو إلا الكفر"[5].. وكذا ما ورد عن الحافظ نعيم بن حماد الخزاعي[6] في قوله: "من أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر"[7].. وما ذكره الذهبي عن حرب الكرماني[8] الذي كتب يقول: "إن الجهمية أعداء الله وهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق وأن الله لم يكلم موسى ولا يرى في الآخرة .. وليس على عرش ولا كرسي، وهم كفار فاحذرهم"[9].. وما ذكره عن "عبد الرحمن بن محمد بن حبيب عن أبيه عن جده قال: شهدت خالد بن عبد الرحمن القسري- وخطبهم بواسط- فقال: (يا أيها الناس، ضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، سبحانه وتعالى عما يقول

---

(1) العلو ص ١٠١ ومختصره ص١٣٦، ١٣٧ والفاروق لأبي إسماعيل الهروي والحموية ص٢٨ واجتماع الجيوش ص٤٦ والمعارج ١/ ١٣٣.

(2) كان ثقة قارئاً لكتاب الله، وقد سمع الحديث وجالس الناس، كذا في العلو ص١٢٥ ت٢٢٨ ببغداد.

(3) العلو ص١٢٥ ومختصره ص١٨٣ والسنة لعبد الله بن أحمد ص٤٠ والخطيب في التاريخ ٣/ ٢٨٠ والمعارج ١/ ١٣٩.

(4) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٤٤٠ والعلو ص ١٠٥ ومختصره ص ١٤٤.

(5) العلو ص ١١٨ ومختصره ص ١٧٠ والمعارج ١/ ١٣٨.

(6) وهو من الأئمة الأعلام، أخذ في محنة خلق القرآن فسجن حتى مات في القيد سنة٢٢٨ وله ثمانون سنة، حدّث عنه البخاري، كذا في العلو ص١٢٧.

(7) العلو ص ١٢٦ ومختصره ص١٨٤.

(8) كان حرب من أوعية العلم، حمل عن أحمد وإسحاق، كان عالم كرمان في عصره، يذكر مع الأثرم والمروزي، ارتحل إليه الخلال وأكثر منه، مات سنة بضع وسبعين ومائتين .. العلو ص١٤٣.

(9) العلو ص ١٤٣ ومختصره ص٢١٣ والمعارج ١/ ١٤٤.

الجعد علواً كبيراً)، ثم نزل فذبحه"[1].. وما ذكره عن إمام الأئمة ابن خزيمة[2] من قوله: "من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سماواته بائن من خلقه، فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه وألقي في بعض المزابل لئلا يتأذى بريحه أهل القبلة وأهل الذمة"[3].. وما أورده عن أبي العباس السراج[4] من القول: بأن "من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب ويضحك، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: (من يسألني فأعطيه)، فهو زنديق كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين"[5]، وفي الحجة للأصبهاني عن أبي معمر الهزلي: "من زعم أن الله تعالى لا يتكلم ولا يبصر ولا يسمع ولا يعجب ولا يضحك ولا يغضب .. وذكر أحاديث الصفات، فهو كافر بالله، ومن رأيتموه على بئر واقفاً فألقوه فيها"[6].

إن هذه العبارات وتلك التصرفات من الأئمة الأعلام[7] تكشف لنا– من دون شك– عن معركة كانت حامية الوطيس بين أهل السنة وبين الخارجين

(1) العلو ص ١٠٠ ومختصره ص ١٣٣، ١٣٤ كما أخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) ص ٦٩ والدارمي في (الرد على الجهمية) ص٧، ١١٣، ١١٤ وعبد الرحمن بن أبي حاتم في (الرد على الجهمية) والشيخ حكمي في المعارج ١/ ١٣٣، يقول الإمام الذهبي تعقيباً على هذا الأثر وتوضيحاً لمن يغتر بها عليه أهل الاعتزال أعاذنا الله من شرور ما قالوا: "والجهمية والمعتزلة تقول بهذا، وتحرف نص التنزيل في ذلك، وزعموا أن الرب منزه عن ذلك.أ.هـ".

(2) كان رأساً في الحديث والفقه أخذ الفقه عن المزني الذي قال عنه: "ابن خزيمة هو أعلم بالحديث مني ولم يكن في وقته مثله في العلم بالحديث والفقه جميعاً"، كذا في اجتماع الجيوش ص٧٤ .. سمع من على بن حجر وطبقته، وكان من دعاة السنة– وتلك شهادة الذهبي له ولو كره الحاقدون– ت٣١١ وله بضع وثمانون سنة.

(3) العلو ص ١٥٢ ومختصره ص٢٢٦ واجتماع الجيوش ص٧٤، ٩٧ والمعارج١/ ١٤٦.

(4) هو محمد بن إسحاق الثقفي النيسابوري من حفاظ الحديث أكثر عن قتيبة وطبقته وصنف المسند على الأبواب وعمر طويلاً، ت٣١٣.

(5) العلو ص ١٥٦ ومختصره ص٢٣٢.

(6) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٤٤.

(7) بل ومن زوجاتهم من نحو ما جاء عن مكي بن إبراهيم أحد شيوخ البخاري قال: "دخلت امرأة جهم على زوجتي فقالت: يا أم إبراهيم، هذا زوجك الذي يحدث عن العرش، من نجره؟ قالت: نجره الذي نجر أسنانك، قال: وكانت بادية الأسنان"، ولنا أن ندرك من خلال هذه القصة الطريفة إلى أي مدى وإلى أي حد وصل الأمر وكيف أضحى الشغل الشاغل لجميع أفراد المجتمع المسلم في القرون الخيرة وكيف تعدى مجالس الرجال ومجادلاتهم إلى بيوتهم وأفراد أسرهم وذراريهم، وينظر في شأن القصة المذكورة مختصر العلو ص١٨٧ والمعارج١/ ١٤٠.

على أقوالهم من المفوضة والجهمية والمعتزلة والمتأثرين بهم من متأخري الأشاعرة، ومعلوم أن أولئك الخارجين لم ينكروا ولم يجحدوا صدور نصوص الصفات عن الله ولا عن رسوله ﷺ وإنما أنكروا ما تضمنته من إثبات، وتعمقوا فيما لا يسوغ التعمق فيه من السلوب، فرد عليهم علماء السنة ما بين مكفر ومبدع ومفسق، ولقد بلغت العصبية بهؤلاء الخارجين على الرغم من كل هذا حداً جعلهم يتهمون أهل السنة بأنهم مشبهة وحشوية ومجسمة، ويذكر الإمام أبو حاتم الرازي في هذا الصدد ما به ينكشف أمر هؤلاء المبتدعة – الذين لا يزال أذنابهم من أتباع من يزعمون أنه محدث العصر ومن يُدعى عبد الله الهرري[1] يكررون مقولتهم – فيقول: "علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة، وعلامة القدرية (المعتزلة) أن يسموا أهل السنة مجبرة، وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية"[2]، "بل الذي كان بين أهل الحديث والجهمية من الحرب- على حد قول ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية وكما يظهر حتى من عنوان كتابه- أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام"[3].

وإنما تعكس هذه الحدة وتلك الأحكام التي ذكرنا طرفاً منها والتي اضطر أئمة السلف إلى إطلاقها- لوثوق ما هم عليه ولاتكائهم فيما استندوا إليه واعتقدوه وقالوا به واعتمدوا فيه على صريح نصوص الكتاب والسنة وما أجمع عليه الصحابة وتابعيهم بإحسان- تعكس شدة الخطب وعظم الخلاف القائم بين أهل السنة من جهة، والجهمية والمعتزلة وغيرهم من النفاة وممن سلك

---

(1) وممن طالهم التكفير من قِبَل هذا الرجل وأتباعه بزعم التشبيه والتجسيم- على حد علمي إلى الآن، والبقية تأتي- الإمام ابن خزيمة والإمام الدارمي عثمان بن سعيد وابن القيم وشيخه ابن تيمية وجمهرة علماء السعودية إن لم يكن جميعهم، وقد سمعت بأذني رأسي أحد أتباعه من طلبة كلية تعادل شهادتها شهادة إحدى كليات الأزهر يحلف بالأيمان المغلظة على أن ابن تيمية كافر كفراً مخرجاً من الملة لا لشيء إلا لإثباته ما أثبته الصحابة والتابعون وتابعوهم، وكان ذلك إبان رحلة إعارتي لدولة إندونيسيا، والحق أنه لا يمنع هؤلاء من تكفير وتبديع سائر أئمة السلف المثبتين للصفات- وعلى رأسهم إمام المذهب أبو الحسن الأشعري الذي يلوون كلامه ويحرفونه ولا يكفون عن التشكيك فيما نسب إليه من مؤلفات- إلا خشية افتضاح أمرهم، وإلا فما الفرق بين ما عليه الأشعري وما هؤلاء الأئمة عليه؟.

(2) العلو ص ١٣٩ ومختصره ص٧٤، ٢٠٧.

(3) مختصر العلو للألباني ص ٥٦ والجيوش الإسلامية ص ٩٦.

طريقهم من متأخري الأشاعرة من جهة أخرى، كما تظهر مدى خطورة التحريف لهذا اللون من التوحيد أو الولوج فيما حُظر منه من تفويض أو تأويل أو إخراج للصفات إلى المجاز، وتكشف بالتالي عن أهمية الإيمان بما كان عليه السلف الصالح ووجوب التصديق بما جاء به الكتاب والسنة في هذا الصدد وعدم تجاوزهما تحت أي مبرر، ومهما صدر من المخالفين من تلفيق للتهم أو ترويج للباطل، ومن المرجح أن يكون ما ذكرناه من أمر استنكار أئمة السلف الشديد على المخالفين، وإجماعهم على الإثبات دون التفويض ودون إخراج الصفات عن ظاهرها إلى التأويل، سبباً في تراجع الكثير ممن حادوا عن هذا السبيل من أئمة الخلف فيما يمثل ظاهرة غريبة من نوعها.

وبالطبع إنما يحكم على من خرج عن ذلك بمثل ما نطق به أئمة العلم من ضلال وابتداع وكفر، بعد إقامة الحجة الرسالية التي يكفر تاركها بعد انتهائها إليه وبعد استيفاء شروطها وانتفاء موانعها، وبعد علمه بأن هذا هو مراد الله منها وأن الرسول ﷺ قال ذلك، فمن جحد قوله عليه السلام بعد هذا ولم يؤمن به، وارتضى لنفسه الخروج على إجماع سلف الأمة وأئمة الشريعة أو رفض فهمهم لما ورد عنهم في هذا الباب فقد خرج عن جماعة المسلمين، أما قبل ذلك فلا.

وهذا ما أفاده ابن جرير الطبري في قوله فيما أخرجه له الذهبي في (العلو) وأبو يعلي في (إبطال التأويل): "القول فيما أدرك علمه من الصفات خبراً، وذلك نحو إخباره عز وجل أنه سميع بصير، وأن له يدين بقوله: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ.. المائدة/ ٦٤)، وأن له وجهاً بقوله: (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ..الرحمن/ ٢٧)، وأن له قدماً بقول النبي ﷺ: (حتى يضع الرب فيها قدمه)، وأنه يضحك بقوله: (لقي الله وهو يضحك إليه)[1]، وأنه يهبط إلى سماء الدنيا لخبر رسول الله ﷺ بذلك وأن له إصبعاً بقول رسول الله ﷺ: (ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن)، فإن هذه المعاني التي وصفت ونظائرها مما وصف لله به نفسه ورسوله، ما لا يثبت حقيقة علمه بالفكر والروية، لا

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده في زوائد الهيثمي١/ ٣١٢ والذهبي في السير١٤/ ٢٧٩.

نكفر بالجهل بها أحداً إلا بعد انتهائها إليه"[1]، وما أفاده قول الإمام الشافعي رحمه الله فيما رواه عنه الذهبي والهكاري وابن القيم وغيرهم: "لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكر، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها وتثبت هذه الصفات وينفي عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ.. الشورى/ ١١)"[2].

والحق أن أئمة السلف في التشديد على ذلك الأمر معذورون، ذلك أن التهاون في هذا الأمر والمراء فيه يقسي القلب ويورث- على حد قول الشافعي- الضغائن، ويوهن من شأن أمور الاعتقاد ويضعف من تأثيرها في نفوس العباد، ويجعل منها- من دون شك- مادة للشد والجذب والمد والجزر، وهذا ما لوحظ بوضوح طوال هذه الحقب المتطاولة التي تلت القرون الفاضلة وإلى يوم الناس هذا، وغريب أن يحدث هذا مع وجود ما يفيد الإجماع بشهادة ثقات الأمة ومن غير ما طريق، الأمر الذي يعني ضرورة أن يتدارك أهل الاختصاص تبني تربية الأمة على الإيمان بصفات الخالق سبحانه التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله من غير تفرقة بين صفات وصفات على نحو ما وقع من المعتزلة وغيرهم من متأخري الأشاعرة المخالفين لمذهب شيخهم الذي آل إليه في نهايات حياته، ومن غير تفويض ولا تأويل ولا إخراج لها عن ظاهرها .. وهو ما يعد من أفرض الفرائض وأوجب الواجبات لتعلق ذلك بتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله الذي يمثل أول أنواع التوحيد، والذي يشمل أنواع التوحيد الأخرى- الربوبية والألوهية- "لقيامه على إفراده سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه رباً

---

(1) العلو ص ١٥١ ومختصره ص٢٢٤ وإبطال التأويل لأبي يعلي.

(2) ذم التأويل ص١١ والعلو ص ١٢١ وجيوش ابن القيم ص٥٩ والمعارج١/ ٢٩٧.

واحداً لا شريك له في ربوبيته، وكونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته"[1]، وحسبنا في بيان أهمية هذا الموضوع والوقوف على وجه الصواب فيه ما ذكرنا حتى نقدر الأمر قدره ونوليه ما يستحق من الاهتمام، والله وحده هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) دعوة التوحيد أصولها والأدوار التي مرت بها، د/ محمد خليل هراس ص٧٠، ٧١وينظر الحق المبين ص ٥٨.

المبحث الأول

إثبات السلف وفهمهم لمعاني الصفات وقصرهم التفويض فيها على الكيف

أ: موافقة اعتقاد السلف في قصرهم التفويض على الكيف، لمعتقد الأنبياء

من الأمور الثابتة والمقطوع بها والتي ينبغي العلم بها ومعرفتها عن السلف الصالح، تضافرهم على إثبات الصفات وفهمهم لمعانيها، وتعني عبارة إثبات السلف لصفات الله، التعرف على كل ما جاء منها في القرآن الكريم وصحيح السنة، والوقوف من ثمّ على معناها والعمل بمقتضاها وفهمها على ما تقتضيه قواعد اللغة وأصول الدين ومبادئ الشريعة، وذلك بالإيمان بها ونسبتها جميعاً إلى الله على النحو اللائق به من غير تكييف ولا تشبيه وبإثباتها كلها إثباتاً بلا نفي ولا تعطيل إعمالاً لقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .. الشورى/ ١١)، إذ يفاد من قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) نفي تشبيهها بصفات الخلق باعتبار أن الكلام عن الصفات متفرع عن الكلام في الذات، ومن قوله (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) النهي عن نفي أو تعطيل أيٍّ منها لدلالة صحيح المنقول وصريح المعقول على أن إثباتها على النحو اللائق به، كدلالتهما على سمعه تعالى وبصره تماماً بتمام دون ما تفرقة، لا من قِبل العقل ولا من جهة السمع.

ففي النسق الكريم رد صريح على أصحاب التجهيل من فرق المعطلة والنفاة[1] والمفوضة الذين أخذوا هذه الآية الكريمة وجعلوها "مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم – ردوه بـ (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)، تلبيساً منهم وتدليساً على من هو أعمى قلباً منهم وتحريفاً لمعنى الآي عن مواضعه، ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام، أن إثباتها يقتضي التمثيل بها للمخلوقين! ثم استدلوا على إبطال ذلك

---

(١) ويندرج تحت أولئك من تستروا في نفيها فأثبتوا ألفاظ أسمائه دون ما تضمنته من صفات الكمال وقالوا: إنه رحيم بلا رحمة عليم بلا علم قدير بلا قدرة.

بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ .. ويصنفون الكتب ويقولون: هذا أصول دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده، ويقرءون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبر لمراده الذي بينه الرسول وأخبر أنه معناه الذي أراده الله، وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث، وقص ذلك علينا من خبرهم لنعتبر وننزجر عن مثل طريقهم فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .. البقرة/ ٧٥)، إلى أن قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .. البقرة/ ٧٨)، والأماني: التلاوة المجردة"[1].

وهؤلاء الذين يتحدث عنهم هنا شارح الطحاوية الإمام ابن أبي العز من أصحاب التجهيل واللاأدرية الذين يقولون: لا ندري معاني الصفات وينسبون طريقتهم إلى السلف ويقول المتأولون عنها أنها هي الأسلم، ويجعلونها من المتشابه ويحتجون لذلك خطأ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويقولون: بأن هذا هو الوقف التام عند جمهور السلف .. يشخص ابن القيم ماهيتهم ويكشف لنا عن حقيقة أمرهم ويلخص من خلال كلامه عنهم عور فكرهم وخطأ تصورهم فيشير إلى أن أصحاب هذا الفكر هم الذين قالوا: إن "نصوص الصفات، ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يدرى ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظاً لا معاني لها ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ فلو ورد علينا منها ما ورد، لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيها ولم نعرف معناه وننكر على من تأوله ونكل علمه إلى الله تعالى، وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات، ولا يفهمون معنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ

[1] العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز وتحقيق الألباني ص٣٤١، ٣٤٢وينظر الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل ص٩٨، ٩٩ ومختصر الصواعق ص٨ وموافقة صريح المعقول١/ ٧٧.

بِيَدَيَّ .. ص/ ٧٥) وقوله: (وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ .. الزمر/ ٦٧) وقوله: (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥) وأمثال ذلك من نصوص الصفات، وبنوا هذا المذهب على أصلين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه، والثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فنتج عن هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به، ولازم قولهم أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها بما يخالف هذه الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلاً ويقولون تجري على ظواهرها؟ ويقولون الظاهر منها مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها؟ وهل من التناقض أقبح من هذا؟

وهؤلاء غلطوا في المتشابه، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطئوا في المقدمات الثلاث واضطرهم إلى هذا: التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين وسدوا على نفوسهم الباب، وقالوا لا نرضى بالخطأ ولا وصول لنا إلى الصواب، فتركوا التدبر المأمور به والتعقل لمعاني النصوص، وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها.

وأولئك فضلاً عن كونهم قد جعلوها عرضة للتأويل والتحريف فإن قولهم يستلزم أن يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص ولا أصحابهم ولا التابعون لهم بإحسان بل يقرءون كلاماً لا يعقلون معناه"[1].

والحق أن الأمر على خلاف ذلك، فقد انبنى منهج السلف في الصفات على الإثبات الذي لا يتأتى إلا بفهم معانيها الواردة في آيات القرآن وأحاديث

---

[1] الصواعق ص ٦٢، ٦٣، ١٢٣ بتصرف وينظر الحموية ص٧ وموافقة صريح المعقول ١/ ١٦.

السنة، "ولو كان معناها غير مفهوم لهم لما صح من سلف هذه الأمة الإثبات إذ كيف يثبتون شيئاً لا يعقلون معناه، غاية الأمر أنهم لم يكونوا يبحثوا فيها وراء هذه الظواهر عن كنه هذه الصفات أو كيفية قيامها بذاته تعالى"[1]، لكون ذلك مما استأثر الله بعلمه ولكون الكلام عن الصفات- كما سيأتي- فرع عن الكلام في الذات.

ومن المحال أن يكون صلوات الله وسلامه عليه قد علّم أصحابه آداب الغائط وآداب الطعام والشراب، دون أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف وعبادته وحده أقرب الوسائل والوصول إليه أتم المطالب.

كما أنه من المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. المائدة/ ٣)، ثم يترك هذا الباب الذي يعد لب التوحيد ومحط نظر شريعة الإسلام وأساس العقيدة[2] فلا يميز ما يجوز نسبته إليه وما لا يجوز مع حضه على التبليغ عنه بقوله: (ليبلغ الشاهد الغائب)[3]، حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما كان بحضرته، بل ومع قوله:

(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)[4] وقوله:

(ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم)[1]، وقول أبي ذر:

---

(١) ينظر ابن تيمية السلفي د. هراس ص ٤٩.

(٢) لشموله على نوعي التوحيد الآخرين- الألوهية والربوبية- لكوننا بأسمائه الحسنى نتذلل له ونعبده على ما جاء في قوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها .. الأعراف/ ١٨٠)، وبصفاته العلى ندرك حكمته وقدرته.

(٣) البخاري٦٧، ٥٢٣، ٤١٤٤، ٧٠٠٩ومسلم ١٦٧٩وابن حبان ٥٩٧٥ والمستدرك ٥٩٨٢ ومسند أبي عوانة ٤/ ١٠٢ والدارمي١٩١٦والسنن الكبرى٤٠٩٢ وابن ماجة ٢٣٣، ٢٣٤وأحمد ٥/ ٣٧، ٤٩، ٧٢، ٤١١، ٦/ ٤٦٧.

(٤) أخرجه وبنحوه من حديث العرباض بن سارية، أحمد ٤/ ١٢٦وابن ماجة في مقدمة السنن ٤٣والحاكم ٣٣١ والطبراني في الكبير ٦١٩، ٦٤٢ والمنذري في الترغيب١/ ٥٢ وقال: رواه ابن أبي عاصم في السنة بإسناد حسن.

(لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً)[2]، وقول عمر:

(قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظ ونسيه من نسيه)[3] .. فدل على أنهم اتفقوا على معرفة ما جاء عن الله من صفات، تماماً كما اتفقوا على الإيمان بأنها واجبة له تعالى على الوجه الذي أراده منها، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)، فمن أوجب خلاف ذلك فقد خالف سبيله صلوات الله وسلامه عليه وسبيل أصحابه[4].

ومن الأدلة على بطلان القول بتعميم التفويض ليشمل ما تحمله الصفات من معانٍ، وعلى أن ذلك مناقض لما كان عليه النبي وصحابته، أن من تأمل خطبه عليه السلام وخطبهم وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله وأصول الإيمان بالكلية، فقد كانوا يذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم[5]، ومن تفسيراته صلوات الله وسلامه عليه لبعض أسمائه تعالى على النحو السابق ذكره ما جاء في قوله:

(أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)[6]، فقد فسر في

---

(1) أخرجه وبنحوه مسلم في باب الإمارة ١٨٤٤وأحمد ٢/ ١٦١، ١٩١والنسائي في السنن ٧٨١٤، ٨٧٢٩ وفي المجتبى ٧/ ١٥٣وابن ماجة ٣٩٥٦والبيهقي في الكبرى٨/ ١٦٩.

(2) ذكره وبنحوه ابن حبان ٦٥ وأحمد٥/ ١٦٢وكذا الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد٨/ ٢٦٣، ٢٦٤من طريقين عن أبي ذر وقال فيه: رواه أحمد والطبراني، وعن أبي الدرداء وقال فيه: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(3) ذكره البخاري ٣٠١٩، ٣٠٢٠، ٣١٩٢ ورواه عن حذيفة البخاري ٦٢٣٠ ومسلم٤٢٤، ٢٨٩١ وأبو داود ٤٤٤٠ وابن حبان٦٦٣٦والحاكم٤/ ٥٣٣وأحمد٥/ ٣٨٥.

(4) ينظر فتح الباري ١٣/ ٣٣٣باب قوله تعالى: (ولتصنع على عيني) والصواعق ص٧.

(5) ينظر زاد المعاد لابن القيم١/ ١١٦.

(6) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري في التاريخ الكبير٦/ ٤٧٩ ومسلم ٢٧١٣ والنسائي في الكبرى ١٠٦٢٥ والحاكم١/ ٥٢٠، ٥٢٤ وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير٢٣/ ٣١٦، ٣٥٢ والأوسط ٦٢١٤ وفي الدعاء ١٤٢٢.

قوله: (الأول والآخر) وقوله: (الظاهر والباطن) كل اسم له سبحانه بمعناه اللائق به، ونفى عنه ما يضاده وينافيه بما يفيد تفرد الرب بالكمال المطلق والإحاطة الزمانية والمكانية المطلقة، فـ"(الأول) يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى، و(الآخر) يدل على أنه هو الغاية والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها، و(الظاهر) يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذواتٍ وصفاتٍ، ويدل أيضاً على علوه سبحانه، و(الباطن) يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوِّه، ولا يتنافى (الظاهر) و(الباطن) لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت"[1]، وللبيهقي عن مقاتل بن حيان قال: "بلغنا والله أعلم في قوله تعالى: (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ .. الحديد/ ٣): هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه"[2].

على أن هذه الأسماء الأربعة التي لفت النبي ﷺ أنظار أمته إليها تمثل أركان العلم والتوحيد، وعليه فخليق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه، وتفصيل ذلك أنه ما من شيء إلا وله أول وآخر وظاهر وباطن حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، أما أولية الله عز وجل فهي سابقة على أولية كل ما سواه وكذا هي آخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبْقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه .. فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته

---

(١) الحق الواضح في شرح كافية ابن القيم للسعدي ص ١٥.

(٢) العلو للعلي الغفار للحافظ شمس الدين الذهبي ص١٠٢ ومختصره ص١٣٩ والمعارج ١/ ١٣٤.

وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده .. فالأول سبقه لكل شيء والآخر دوامه وبقاؤه بعد كل شيء، والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا كل شيء بظهوره ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارِي منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً، ولا يحجِب عنه ظاهرٌ باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة والبعيد منه قريب والسر عنده علانية .. فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد إذ بها ما يفيد أنه سبحانه الأول في آخريته والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره، وأنه كان ولم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وقد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين في حديثه المتقدم بأوجز عبارة وأخصرها[1] .. وهكذا كان معتقده الذي فهمه عنه الصحابة وتابعوهم بإحسان .. وهو من قبل هذا معتقد جميع الأنبياء والمرسلين الذين في شأنهم يقول ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو ** صاف الكمال لربنا الرحمن

"أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية وثبتت في النصوص النبوية، يتعرفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية، فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة وتعظيماً له وتقديساً، وأوصاف العز والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها، وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعاً فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقاً إليه وتوجب له التأله والتعبد والتقرب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه،

(1) ينظر معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ حافظ حكمي ١/ ٨٧.

وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) فإحصاؤها فهمها وعقلها والاعتراف بها والتعبد لله بها"[1].

ومما يدل على إثبات الأنبياء لما أثبته سبحانه لنفسه من صفات، ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل في حق موسى عليه السلام قال: "كلم الله موسى من وراء حجاب فقال: (رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ .. الأعراف/ ١٤٣)، فأخبر الله عز وجل أن موسى يراه في الآخرة، وقال: (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ .. المطففين/ ١٥)، ولا يكون حجاب إلا لرؤية"[2].. وفي معنى ذلك يقول الإمام أبو الحسن الأشعري إمام المذهب[3] في تعليقه على آية الأعراف تلك: "ولا يجوز أن يكون موسى صلوات الله عليه وسلامه – وقد ألبسه الله جلباب النبيين وعصمه بما عصم به المرسلين – قد سأل ربه ما يستحيل عليه، فإذا لم يجز ذلك على موسى ﷺ علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى، ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا تعالى كما زعمت المعتزلة ولم يعلم ذلك موسى عليه السلام وعلموه هم، لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى، وهذا مما لا يدعيه مسلم .. وإذا لم يعلم ذلك وقت لزمه علمه وعلمتموه أنتم الآن، لزمكم بجهلكم أنكم بما لزمكم العلم به الآن أعلم من موسى بما لزمه العلم به، وهذا خروج عن دين المسلمين"[4].

---

(1) الحق الواضح ص١٢، ١٣ والحديث أخرجه النسائي في الكبرى٧٦٥٩ وبنحوه البخاري ٢٥٨٥، ٢٧٣٦، ٦٠٤٧، ٦٤١٠، ٦٩٥٧، ٧٣٩٢ ومسلم٢٦٧٧ والترمذي٣٥٠٦، ٣٥٠٨ وابن حبان٨٠٨، ١٨٠٧ وابن ماجة ٣٨٦٠، ٣٨٦١، ٤٢٨٣ والبيهقي في الكبرى٦/ ٨٤، ١٠/ ٢٧ وأحمد٢/ ٢١٦، ٢٦٧، ٤٢٧، ٤٩٩، ٥٠٣، ٥١٦.

(2) المعارج١/ ٢٧٦، وينظر١/ ١٢١.

(3) هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبي بشر البصري المتكلم الزاهد المتعبد صاحب تصانيف (الإبانة) الذي صرح فيه بأنه على مذهب ابن حنبل، و(مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) و(رسالة إلى أهل الثغر) وهي مما يمثل آخر ما استقر عليه أمر معتقده ت٣٢٤.

(4) الإبانة ت د/ فوقية حسين ص ٤١ : ٤٣.

كما يدل على إثبات الأنبياء لصفات الخالق جل وعلا ما جاء عن كعب الأحبار قال: "قال الله عز وجل في التوراة: (أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي أدبر أمور عبادي ولا يخفى عليّ شيء في السماء ولا في الأرض)"[1]، "وفي الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال للحواريين: (إن كنتم غفرتم للناس فإن أباكم الذي في السماء[2] يغفر لكم ظلمكم، انظروا إلى الطير فإنهن لا يزرعن ولا يحصدن،وأبوكم الذي في السماء هو يرزقهن)"، كذا أورده الإمام ابن قتيبة في مختلف الحديث[3]، وسيأتي دعاء داود عليه السلام وقوله: "إليك رفعت رأسي يا عامر السماء، نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء".

ويؤكد ما ذكرنا ويدل عليه أيضاً ما قصه الله تعالى عن فرعون عليه اللعنة في تكذيبه موسى عليه السلام في أن إلهه الله عز وجل العلي الأعلى خالق كل شيء وإلهه، وذلك قوله تعالى في سورة القصص: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ .. القصص/٣٨)، وقوله في سورة المؤمن: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا

---

(1) العلو ص٩٢والعظمة٢/ ٦٢٦وحلية الأولياء٦/ ٧وفيض القدير٢/ ٥وتأويل مختلف الحديث١/ ٢٧٣

(2) الأبوة في قول عيسى عليه السلام: (أباكم) وكذا البنوة الواردة في قول اليهود والنصارى: (نحن أبناء الله وأحباؤه) لم يكونوا يريدون بها الولادة أصلاً، بل يعنون بذلك يحبهم ويربيهم ويرأف بهم .. ولا يسوغ استعمال هاتين الكلمتين في لغة هذه الأمة، ولا ينبغي الآن إطلاقهما، لورود ما يدل من النصوص على ذمهما حيث يقول تعالى: (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قوله بأفواههم .. الآية)، وعليه فإن صح لعيسى أن ينطق بنحو هذا فلها محمل غير ما ذم الله تعالى.

(3) مختلف الحديث ص٣٤٤: ٣٤٧والعلو ص١٤٥ كما ينظر في نص كعب الأحبار العلو ص ٩٢والمعارج ١/ ١٢٩، وعن الأثر المذكور يقول ابن القيم في جيوشه ص١٠٢: (رواه أبو الشيخ وابن بطة وغيرهما بإسناد صحيح عنه).

﴿كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .. غافر/ ٣٦، ٣٧)، ففرعون لعنه الله تعالى كذب موسى في أن رب السماوات والأرض ورب المشرق والمغرب وما بينهما هو الله الذي في السماء فوق جميع خلقه مباين لهم لا تخفى عليه منهم خافية.

وقد أدى ما فهمه فرعون عن موسى من إثباته أن له إلهاً فوق السماء، لأن يروم بصرحه الذي أمر ببنائه أن يطلع إليه واتهم موسى بالكذب فيما يقول ويدعي من أن له رباً في السماء أرسله إليه، ولو أن موسى قال إنه في كل مكان بذاته، لطلبه في بيته أو في بدنه أو في حشه ولم يجهد نفسه ببنيان الصرح .. لكن مخالفنا ليس يعلم أن الله فوقه بوجود ذاته ومن ثم فهو أعجز فهماً من فرعون، وعليه فكل جهمي ناف لعلو الله عز وجل هو فرعوني وعن فرعون أخذ دينه، وكل سني يصف الله تعالى بما وصف به نفسه أنه استوى على العرش بائن من خلقه فهو موسوي محمدي متبع لرسل الله وكتبه[1].

"وبالجملة فجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام وجميع كتبه المنزلة وجميع أهل السماوات ومؤمني أهل الأرض من الجن والإنس أتباع رسل الله، وجميع الفطر السليمة والقلوب المستقيمة التي لم تجتلها الشياطين عن دينها، جميعها شاهدة حالاً ومقالاً أن خالقها وفاطرها ومعبودها الذي تأله وتفزع إليه وتدعوه رغباً ورهباً، هو فوق كل شيء عال على جميع خلقه، استوى على عرشه بائناً من مخلوقاته، وهو يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم وجميع تقلباتهم وأحوالهم لا يخفى عليه منهم خافية، ولهذا ترى جميع المؤمنين عالمهم وعاميهم وحرهم ومملوكيهم وذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم كل منهم إذا دعا الله تبارك وتعالى في جلب خير أو كشف مكروه إنما يرفع يديه ويشخص بصره إلى السماء إلى جهة العلو، إلى من يعلم سره ونجواه متوجهاً إليه بقلبه وقالبه، يعلم أن معبوده فوقه وأنه إنما يُدعى من أعلى لا من أسفل كما يقول الجهمية قبحهم الله تعالى وتنزه عما يقولون علواً كبيراً"[2].

---

(1) اجتماع الجيوش ص٧٥عن الطبري وأبي قاسم التيمي وإمام الشافعية في وقته سعد بن علي الزنجاني، وينظر الإبانة١٠٦ والحموية٤١ والمعارج١/ ١٢١ والنصيحة للجويني ص٢٣.

(2) المعارج للشيخ حافظ حكمي ١/ ١٢٤.

وعلى العموم فإن الإثبات ورد على ألسنة جميع الأنبياء كما ورد في كافة كتبهم المنزلة وعلى ألسنة جميع أتباعهم، يقول سيد الوعاظ عبد القادر[1] الجيلي شيخ بغداد في كتاب الغنية: "أما معرفة الصانع عز وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار، فهي أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد" إلى أن قال:

"وهو مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ..فاطر/ ١٠) .. ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش كما قال: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥) .. وينبغي إطلاق ذلك الاستواء من غير تأويل .. وكونه تعالى على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، بلا كيف"[2].

فعلى درب الأنبياء ودرب خاتمهم عليه وعليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات سار أتباعهم، وسار الصحابة وتابعوهم من أهل القرون الفاضلة ومن تلاهم، وكان إجماع هؤلاء وأولئك على إثبات كل ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسله الكرام عليهم من الله الصلاة والسلام، من سمع ويدين وبصر واستواء وقدرة ونزول ووجه وكلام وفوقية وإرادة ورضا وغضب وعلم وحياة لا فرق بين أي منها ولا نفي، كما أجمعوا على أن معاني هذه الصفات بما فيها الصفات الخبرية من نحو اليدين والعينين والوجه والصفات الاختيارية المسماة بصفات الأفعال من نحو الاستواء والنزول إلى السماء الدنيا إلى غير ذلك من الصفات المتعلقة بمشيئته تعالى إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، يجب العلم بها والتسليم لها على ظاهرها، وأن الذي يوكل الأمر فيه إلى الله بتفويض علمه إليه هو كيفية هذه الصفات والوقوف على حقيقة كنهها لكون هذا

---

(1) ابن أبي صالح بن جنكي دريت أبو محمد الجيلاني، قال عنه العز: "ما نعرف أحداً كراماته متواترة كالشيخ عبد القادر، وكان لا يجلس على حدث قط ولم يزل الاجتهاد دأبه حتى اشتهر أمره وفاق أهل عصره علماً وعملاً وزهداً، وطار صيته في جميع الأمصار، كذا في العلو ص١٩٣ ت٥٦٢.

(2) الغنية١/ ٧١: ٧٤وينظر العلو ص ١٩٣ ومختصره ص٢٨٤ومعارج القبول١/ ١٥٢.

الجانب دون ظاهر معاني الصفات هو من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا هو سبحانه.

ب: من نصوص أهل الفضل المفصحة عن إجماع السلف على إثبات الصفات وقصر التفويض فيها على الكيف

إجماع سلف هذه الأمة، على وجوب العلم بالصفات الخبرية من نحو اليدين والعينين والوجه، والاختيارية من نحو الاستواء والنزول والمجيء يوم القيامة- كما أخبر سبحانه عن نفسه وأخبر عنه نبيه عليه السلام- والتسليم لجميع هذه الصفات وإثباتها وحملها جميعاً على ظاهرها .. وقد نقل الإجماع على هذا وعلى قصر التفويض في تيك الصفات على الكيف:

١، ٢- الإمام الأوزاعي[1] وذلك فيما رواه عنه الحاكم والذهبي والبيهقي بسند جيد قال: "كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته"[2]، وللأوزاعي من رواية الخلال في كتاب السنة قوله: "سئل مكحول[3] والزهري[4]- وهما أعلم التابعين في زمانهم-عن تفسير أحاديث الصفات فقالا: (أمروها على ما جاءت)"، وله من طريق بقية ابن الوليد كانا "يقولان: (أمروا الأحاديث كما جاءت)"[5]، وإنما قال الأوزاعي

---

(1) هو الإمام الفقيه الثقة الجليل أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو، من عباراته المشهورة: "عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول"، وكان رحمه الله أعلم أهل الشام في زمانه ت١٥٧ ..التقريب١/ ٤٩٣وفيات الأعيان٣/ ٣٦١ العلو١٠٢.

(2) ينظر الأسماء والصفات للبيهقي ص٥٦١والعلو ص١٠٢ومختصره ص١٣٧ والفتوى الحموية ص٢٣واجتماع الجيوش لابن القيم ص٨٤ومعارج القبول١/ ١٣٤وفتح الباري١٣/ ٣٤٥.

(3) هو الحافظ المحدث أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أبي أيوب البيروني، كان من الثقات العالمين بالحديث ت٣٢١.. التذكرة ٣/ ٨١٥.

(4) هو الإمام أبو بكر محمد بن شهاب القرشي المدني، حدث عن ابن عمر وسهل بن سعد وأنس وغيرهم، قال فيه عمر بن عبد العزيز: لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية من الزهري، وقال مالك: بقي ابن شهاب وما له في الدنيا نظيرت١٢٤.. التذكرة١/ ٨٠١وشذرات الذهب١/ ١٦٣.

(5) علاقة الإثبات ص ٧١عن كتاب السنة لأبي بكر الخلال، وينظر الأسماء والصفات للبيهقي ٦٠٨ والحجة ١/ ١٧٥، ١٩٢، ٤٣٨وجامع بيان الفلم لابن عبد البر ٣٦٩ والحموية ص٢٤.

هذا بعد ظهور مذهب جهم المنكر لكون الله فوق عرشه والنافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف يخالف هذا .. والوليد بن مسلم[1]، حيث روى عنه الإمام الذهبي قوله:

"سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري[2] والليث بن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفات؟ فكلهم قالوا لي: أمروها كما جاءت بلا تفسير"[3].

وللوليد – في رواية أخرى ذكرها الذهبي أيضاً – قوله: "سألت الأوزاعي والليث بن سعد ومالكاً والثوري عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية وغير ذلك فقالوا: أمضها بلا كيف"، وفي رواية ذكرها البيهقي في الأسماء والصفات: "أمروها كما جاءت بلا كيفية" .. وقولهم رحمة الله عليهم (أمروها كما جاءت): رد على المعطلة، وقولهم: (بلا كيف) رد على الممثلة[4] .. وكما هو معلوم فإن جميعهم من أئمة الدنيا وكبار تابعي التابعين[5] فمالك هو إمام أهل المدينة والحجاز والثوري إمام أهل الكوفة والعراق والأوزاعي إمام أهل دمشق والشام والليث إمام أهل مصر والمغرب.

---

(1) هو أبو العباس القرشي الدمشقي، عالم الشام روى عن الأوزاعي وابن جريج والثوري وابن العلاء وخلق كثير، وعنه الليث وبقية والحميدي وابن حنبل وابن راهويه وابن المديني وآخرون، وكان ثقة حافظاً متقناً صحيح العلم ت٩٥ وقيل ٩٦ .. التهذيب٦/ ٩٨، ٩٩.

(2) هو عالم زمانه أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفي، إمام في علم الحديث وغيره، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده، وهو أحد الأئمة المجتهدين وعنه قال ابن مهدي: "الأئمة أربعة: مالك والثوري وحماد بن زيد وابن المبارك" ت بالبصرة١٦١ .. تقريب١/ ٣١١.

(3) العلو ص١٠٤ ومختصره ص١٤٢ وينظر ص١٣٨، ١٣٩ كما ينظر ذم التأويل ص٩ والأسماء للبيهقي ص٦٠٨ والسنة للخلال١/ ٢٥٩ والتوحيد لابن مندة٣/ ١١٥ وعقيدة السلف للصابوني١/ ١٢٠ واجتماع الجيوش ص٧٧ والفتح ١٣/ ٣٤٥ والمعارج ١/ ١٥١.

(4) العلو ص ١٠٥ ومختصره ص١٤٣ والصفات للدارقطني ص٧٥ والسنة للالكائي٣/ ٤٣١ وشرح السنة للبغوي ١/ ١٧١ وخلق أفعال العباد للبخاري ص١٢٦ والحموية ص٢٤ والمعارج١/ ٢٧٣ والحجة١/ ٤٣٩ وهامشه ١/ ١٧٦ وأقاويل الثقات للمقدسي ص٦٢.

(5) يعني ممن عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم). يقول ابن حجر: "اتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من عاش حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً وأطلقت المعتزلة ألسنتها ورفعت الفلاسفة رؤوسها وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن" .. فتح الباري٧/ ٤.

٣- كما حكى الإجماع من بعدهما محمد بن الحسن فقيه العراق وصاحب أبي حنيفة وذلك فيما رواه عنه أبو القاسم هبة الله اللالكائي وابن قدامة والذهبي وموفق الدين المقدسي وغيرهم قال:

"اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير[١] ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم ينفوا ولم يفسروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم- يعني في نفي الصفات وإخراجها عن ظاهر معناها- فقد فارق الجماعة، لأنه وصفه بصفة (لا شيء)"[٢].

ففي عبارات الإمضاء والإمرار بلا تفسير التي جيء بها في جانب الكيف وأريد بها التفويض، إشارة واضحة إلى أن الجانب الآخر المتعلق بمعاني الصفات هو ما يجب الوقوف عليه ومعرفة معناه والمراد منه .. وفي هذه العبارات أيضاً وفيما أفادته وأومأت إليه إشارة إلى إبقاء دلالة الصفات على ما جاءت به من معانٍ، ولا شك أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة به سبحانه، كما أن تلك العبارات تعني أنهم إنما أرادوا من قولهم: (أمروها) الرد على المعطلة، وبقولهم (بلا كيف) الرد على الممثلة، كما أنها تومئ إلى أن منهج السلف ومعتقدهم فيما يتعلق بالصفات هو الإثبات لا النفي، إذ لو كانوا لا يعتقدون ثبوت الصفات ما احتاجوا إلى نفي الكيفية، لأن غير الثابت لا وجود له في نفسه فنفي كيفيته من العبث.

٤- ٧: ومما يفيد إجماعهم على ما ذكرنا من إثبات الصفات والوقوف على معناها مع عدم البحث عن الكيفية، ما جاء عن أبي عبد الله شريك[٣] القاضي فيما

---

(١) سيأتي بيان أن التفسير المنفي هو ما تعلق بالكيف وكذا ما قصد إليه الجهمية وأرادوا به تحريف الكلم عن مواضعه.

(٢) العلو للذهبي ص١١٣ ومختصره للألباني ص١٥٩ وينظر ذم التأويل لابن قدامة ص٦ وشرح أصول السنة للالكائي٣/ ٣٢مجلد٢ رقم٧٤٠ ومجموعة الفتاوى لابن تيمية ٤/ ٤، ٥ وفتح الباري ١٣/ ٣٤٥ وأقاويل الثقات للمقدسي ص٦٠ ومعارج القبول١/ ١٣٧.

(٣) ابن عبد الله بن الحارث بن أوس النخعي، كان فقيهاً عالماً صحيح القضاء وكان أحضر الناس جواباً، ولي القضاء بواسط ثم ولي الكوفة ومات بها سنة ١٨٨ .. التهذيب٢/ ٤٩٧.

حكاه عنه عباد بن العوام قائلاً: قدم علينا شريك بن عبد الله مذ نحو من خمسين سنة، فقلنا له: يا أبا عبد الله، إن عندنا قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا)، و(إن أهل الجنة يرون ربهم)[1]، فحدثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا ثم قال: "أما نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة، فهم عمن أخذوا؟"[2] .. وما جاء عن سفيان بن عيينة[3] حين قيل له: هذه الأحاديث التي تروى في الرؤية؟ قال:

"حق على ما سمعناها ممن نثق به ونرضاه"[4] .. وما جاء عن شيخ خراسان قتيبة بن سعيد[5] قال:

"قول الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة: نعرف ربنا سبحانه بأنه في السماء السابعة على عرشه، كما قال جل جلاله: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥)"[6] .. وما جاء عن إمام المحدثين علي بن المديني[7] وقد سئل عن قول أهل الجماعة فقال: "يؤمنون بالرؤية وبالكلام، وأن الله عز وجل فوق عرشه استوى"[8].

---

(1) يعني الذي أوله: (هل تضارون في رؤية الشمس)، والحديث وبنحوه أخرجه البخاري ٨٠٦، ٤٥٨١، ٦٥٧٣، ٦٥٧٤، ٧٤٣٤: ٧٤٣٩ ومسلم ١٨١: ١٨٣، ٢٩٩: ٣٠٢، ٦٣٣، ٢٩٦٨ والترمذي٢٥٥٢، ٢٥٥٤والنسائي ٢٤٥وأبو داود ٤٧٣٠ وابن ماجة ١٧، ١٧٩وابن أبي عاصم ٤٤٣، ٤٤٤ وأحمد٢/ ٢٧٥، ٣٣٢، ٣٨٩، ٥٣٤، ٤/ ٣٦٠.

(2) العلو ص ١٠٨ ومختصره ص١٤٩وينظر التوحيد لابن مندة٣/ ١١٦، ٣٠٦والصفات للدارقطني ص٧٣ والأسماء والصفات للبيهقي ص٦٠٧ومعارج القبول١/ ٢٧٢.

(3) ابن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي، سكن مكة وروى عن الأعمش وشعبة والثوري ومسعر وهم من شيوخه، وعنه ابن المبارك ووكيع والشافعي وابن حنبل وغيرهم، وكان ثبتاً من حكماء أصحاب الحديث، قال عنه الشافعي: "ما رأيت أحداً من الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة"، وقال: "لولا مالكاً وسفيان لذهب علم الحجاز"، وقال أحمد: "ما رأيت أحداً من الفقهاء أعلم بالقرآن والسنن منه" ت ١٩٨ .. التهذيب٢/ ٣٥٧: ٣٦٠.

(4) العلو ص ١١٥ ومختصره ص ١٦٥ والصفات للدارقطني ص٧٠.

(5) كان إماماً صدوقاً لقي مالكاً والليث وحماد بن زيد والكبار، وعمر دهراً وازدحم الحفاظ على بابه، كذا ذكره الذهبي في العلو ص١٢٨ت٢٤٠.

(6) العلو ص ١٢٨ ومختصره ص١٨٧ واجتماع الجيوش ص٩٠والمعارج١/ ١٤٠.

(7) هو إمام المحدثين أكثر الإمام البخاري في صحيحه من الأخذ عنه، وقال: "ما استصغرت نفسي إلا بين يدي ابن المديني" ت ٢٣٤هـ .. العلو ص ١٢٩.

(8) العلو ص ١٢٩ ومختصره ص١٨٩ ومعارج القبول١/ ١٤١.

٨- ويفيده كذلك ما جاء عن إسحاق بن راهويه[1] شيخ البخاري فيما رواه عنه البيهقي والحافظ الذهبي قال:

دخلت على عبد الله بن طاهر أمير خراسان فقال لي: ما هذه الأحاديث؟ تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟، قلت: نعم، رواها الثقات الذين يروون الأحكام، فقال: ينزل ويدع عرشه؟ فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش؟[2]، قال: نعم، قلت: فلم نتكلم في هذا؟[3].

يريد بيان أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوق الذي يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر، كما يريد إثبات ذلك والتسليم بما سلم به أهل الحديث وعدم إدخال العقل فيها لا يمكن إدراك حقيقته وكنهه .. وفي رواية أخرى له ذكراها يقول إسحاق:

قال لي ابن طاهر يا أبا يعقوب هذا الذي ترووئه (ينزل ربنا كل ليلة)، كيف ينزل؟ قلت: أعز الله الأمير، لا يقال كيف؟ إنما ينزل بلا كيف، وفي زيادة للحاكم ذكراها ورواها أيضاً الحاكم بسنده عن أحمد بن سعيد الرباطي قال: حضرت مجلس ابن طاهر ذات يوم وحضر إسحاق فسُئل عن حديث النزول أصحيح هو؟ قال إسحاق: نعم، فقال له بعض قواد الأمير عبد الله كيف ينزل؟ فقال: أثبتْه فوق حتى أصف لك النزول! فقال له الرجل: أثبته فوق! فقال إسحاق:

قال الله تعالى: (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا .. الفجر/ ٢٢)، فقال ابن طاهر: هذا يا أبا يعقوب يوم القيامة، فقال إسحاق: ومن يجئ يوم القيامة من يمنعه اليوم؟[4].

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه المروزي، قال الخطيب: كان احد أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين وإماماً من أئمة الاجتهاد اجتمع له الحفظ والحديث والضبط والصدق والورع والزهد ت٢٣٨ .. تاريخ بغداد٦/ ٣٤٥والتذكرة١/ ٤٣٣والعلو١٣٢.

(٢) وهذا الذي أشار إليه إسحاق هو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أنه تعالى لا يزال فوق العرش ولا يخلو العرش منه مع دنوه ونزوله إلى السماء.

(٣) ينظر الأسماء ص٦٠٨والعلو ص١٣٢ومختصره ص١٩٢ والمعارج ١/ ١٤١، ٢٤١.

(٤) الأسماء والصفات ص٦٠٧، ٦٠٨والعلو ص١٣٢ومختصره ص١٩٣وينظر عقيدة السلف للصابوني ١/ ١١٣ والحجة٢/ ١٢٤، ١٢٥، ١٧٢ مجلد١ والمعارج ١/ ٢٤١.

وللبيهقي في (الأسماء والصفات) يقول إسحاق: "فقلت: أيها الأمير إن الله تعالى بعث لنا نبياً نقل إلينا عنه أخباراً بها نحلل الدماء وبها نحرم، وبها نحلل الفروج وبها نحرم، وبها نبيح الأموال وبها نحرم، فإن صح ذا صح ذاك وإن بطل ذا بطل ذاك، قال فأمسك عبد الله"[1]، كما روى عنه الحاكم قوله في أحاديث النزول والرؤية:

"رواها من روى الطهارة والغسل والصلاة والأحكام- وذكر أشياء- فإن يكونوا في هذه عدولاً وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع"[2]، وهذا الذي قاله إسحاق هو الذي عليه عامة أهل السنة والجماعة في جميع نصوص الصفات، وفيه ما يدل على أن مذهبهم إمرارها كما جاءت والإيمان بها بلا كيف، يقول فيما رواه عنه الخلال: "إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى، ويعلم كل شيء في أسفل الأرض السابعة"[3].

٩- ١٣: ومما يفيده كذلك ما جاء عن أبي زرعة الرازي[4] وأبي حاتم الرازي[5] فيما رواه عنهما عبد الرحمن بن أبي حاتم قال:

"سألت أبي وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة والجماعة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً ومصراً وشاماً ويمناً وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا:

أدركنا العلماء في جميع الأمصار فكان من مذاهبهم .. أن الله تبارك وتعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بلا كيف أحاط بكل شيء علماً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ..

---

(1) الأسماء للبيهقي ص٦٠٧ وأخرجه اللالكائي١/ ٧٧٤ والذهبي في أعلام النبلاء١/ ٣٧٦.

(2) المعارج١/ ٢٧٧.

(3) العلو ص ١٣٢ ومختصره ص١٩٤، وينظر معارج القبول١/ ١٤١.

(4) الإمام الحافظ عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد القرشي، كان من أفراد الدهر حفظاً وذكاء وديناً وإخلاصاً وعلماً وعملاً، حدث عنه مسلم، قال عنه أحمد: "ما عبر جسر بغداد أحفظ منه"، وقال أبو حاتم: "ما خلف أبو زرعة بعد مثله" ت٢٦٤ .. التذكرة٢/ ٥٥٧ العلو١٣٨

(5) هو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي أحد الحفاظ ومن كبار أئمة أهل الأثر، كان ثقة متقناً ثبتاً من أهل الأمانة والمعرفة، حدث عنه أبو داود والكبار وقال عنه محمد بن سلمة: "ما رأيت بعد ابن راهويه ومحمد بن يحيى أحفظ للحديث ولا أعلم بمعانيه منهما" ت٢٧٧.. العلو ص١٣٩ التقريب٢/ ١٤٣ التهذيب٥/ ٢٤.

الشورى/ ١١)"[1] .. وما جاء عن أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني ت٢٨٧ قال: "جميع ما في كتابنا – كتاب السنة الكبير– من الأخبار التي ذكرنا أنه توجب العلم، فنحن نؤمن بها لصحتها وعدالة ناقليها، ويجب التسليم لها على ظاهرها، وترك تكلف الكلام في كيفيتها، فذكر من ذلك النزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش"[2].. وما جاء عن شيخ أبي الحسن الأشعري وشيخ البصرة وحافظها زكريا الساجي[3] قال:

"القول في السنة التي رأيت عليها أصحابنا أهل الحديث الذين لقيناهم أن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء"، وساق سائر الاعتقاد[4] .. وما جاء عن ابن جرير الطبري[5] قال: "وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر"، والحق أن تفسيره "مشحون – على حد قول الحافظ الذهبي – بأقوال السلف على الإثبات، فنقل في قوله تعالى:

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ.. البقرة/ ٢٩فصلت/ ١١) عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع، ونقل في تفسير (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ .. الأعراف/ ٥٤ يونس/ ٣الرعد/ ٢ الفرقان/ ٥٩ السجدة/ ٤ الحديد/ ٤) في المواضع كلها، أي: علا وارتفع، وقد روى قول مجاهد ثم قال: ليس في فرق الإسلام من ينكر هذا"[6].

---

(1) العلوص١٣٨ ومختصره ص٢٠٤ واللالكائي١/ ١٧٦، ١٧٧ واجتماع الجيوش ص٩١ والمعارج ١/ ١٤٣، ٢١٩ وينظرعقائد السلف ص٥٧٢ عن تفسير القاسمي، والفتاوى٢/ ٢٢٢.

(2) ينظر العلو ص ١٤٦ ومختصره ص ٢١٧ والمعارج١/ ١٤٤.

(3) عنه أخذ الأشعري علم الحديث ومقالات أهل السنة، رحل إلى المزني والربيع فتفقه بهما، وله (علل الحديث) و(اختلاف الفقهاء) لقي أبا الربيع الزهراني وطبقته ت٣٠٧.. العلو١٥٠.

(4) العلوص١٥٠ ومختصر ص٢٢٣ وينظر اجتماع الجيوش ص٩٧ والمعارج١/ ١٤٦.

(5) قال عنه الخطيب: (كان أحد العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، كما كان عارفاً بالقرآن بصيراً بمعانيه فقيهاً في أحكامه عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين في الأحكام) ت٣١٠.

(6) العلو ص١٥٠ ومختصره ص٢٢٤ وينظر شرح أصول السنة للالكائي ٣/ ٣٩٧ مجلد٢ واجتماع الجيوش ص٧٥ والمعارج١/ ١٤٦.

١٤- كما يفيده ما جاء عن إمام المذهب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، حيث قال في رسالته إلى أهل الثغر: "وأجمعوا على وصف الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه ووصفه به نبيه من غير اعتراض فيه ولا تكييف له، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف له لازم"[١]، وبعد أن ذكر في (مقالات الإسلاميين) فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم، قال تحت عنوان (جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة): جملة قولهم، "الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردّون من ذلك شيئاً.. وأن الله على عرشه كما قال: (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ .. طه/ ٥)، وأن له يدين بلا كيف كما قال: (خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ .. ص/ ٧٥)، وكما قال: (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ .. المائدة/ ٦٤)، وأن له عينين بلا كيف كما قال: (تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا .. القمر/ ١٤)، وأن له وجهاً كما قال: (وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ.. الرحمن/ ٥٥)، وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج .. ويصدّقون - يعني أهل السنة- بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر) كما جاء الحديث.. ويقرون أن الله يجئ يوم القيامة كما قال: (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا .. الفجر/ ٢٢)[٢]، وأن

---

[١] رسالة الأشعري إلى أهل الثغر ص١٣٣ .

[٢] ومن شأن المخالفين للمعتقد الصحيح لأبي الحسن الأشعري الذي ختم به حياته، أن ينكروا ويشككوا في كلام أبي الحسن هذا الذي رجع إليه، وأن يشككوا كذلك في كتبه التي يأتي على رأسها كتاب (الإبانة) الذي سجل فيه تراجعه لمعتقد أهل السنة وأوضح فيه ما كان يعتنقه مؤخراً، لأنهم لو سلموا بهذا لكان في تسليمهم نقض لتأويلاتهم الباطلة ولمذاهبهم المنحرفة في النفي وذكر السلوب والتي هي أقرب لمذهب الجهم منها إلى مذهب أهل الحق، بل بينها وبين الأخير ما بين المشرق والمغرب .. وحسبنا في صحة نسبة (الإبانة) إليه قول الحافظ الذهبي: "وكتاب (الإبانة) من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه، ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي"[ينظر العلو ص١٦١ومختصره ص٢٣٩]، وقد قامت بتحقيقه ومقابلته بنسخه الخطية وأصوله الأربعة التي أمكنها الوصول إليها، الدكتورة فوقية حسين محمود الأستاذة بكلية البنات جامعة عين شمس كما قامت بطباعته دار الأنصار بالقاهرة.

الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .. ق/ ١٦)" إلى أن قال:

"فهذا جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله"[1].

١٥- ١٩: ويفيد إجماعهم عليه أيضاً ما جاء عن أبي بكر الضبعي[2] في: "مذهب أهل السنة في قوله: (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ)، قال: بلا كيف، والآثار فيه عن السلف كثيرة، وهذه طريقة الشافعي وأحمد"[3] .. وما نقله البغوي عن أبي سليمان الخطابي[4] تعليقاً على حديث (المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين .. الحديث)[5]، من القول بأنه: "ليس فيما يضاف إلى الله عز وجل من صفة اليدين شمال، لأن الشمال دال على النقص والضعف، وقوله: (كلتا يديه يمين) هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار الصحيحة، وهو مذهب أهل السنة"[6].. وما جاء عن القاضي أبي بكر الباقلاني[7] قال:

"كذلك قولنا في جميع المروي عن رسول الله ﷺ في صفات الله- إذا صح- من إثبات اليدين والوجه والعينين، ونقول: إنه يأتي يوم القيامة في ظلل من

---

(1) العلو ص١٥٩ ومختصره ص ٢٣٦، ٢٣٧ وينظر مقالات الإسلاميين ص٢٩٠: ٢٩٧ والحموية ص٥٣، ٥٤.

(2) هو الفقيه أبو بكر أحمد بن إسحاق النيسابوري، كان عديم النظير في الفقه بصيراً بالحديث كبير الشأن، أكثر عنه الحاكم ت ٣٤٢ .. العلو١٦٥.

(3) فتح الباري١٣/ ٣٤٦ باب (وكان عرشه على الماء).

(4) هو الإمام العلامة حمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، صاحب (معالم السنن) و(الغنية عن الكلام وأهله)، روى عن أبي سعيد بن الأعرابي وطبقته ت٣٨٨ .. العلو١٧٣.

(5) حديث (المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين .. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) .. أخرجه مسلم ١٨٢٧ والنسائي٨/ ٢٢١ وفي الكبرى ٥٩١٦ وابن حبان ٤٤٨٤ والبيهقي١٠/ ٨٧ وأحمد٢/ ١٦٠.

(6) شرح السنة للبغوي١٠/ ٦٤.

(7) هو أبو بكر محمد بن الطيب البصري صاحب (الإبانة) و(التمهيد) وهما من خير ما كتب في معتقد أهل السنة الصحيح، وقد سارت بمصنفاته الركبان ت٤٠٣ ..العلو ص١٧٤.

الغمام، وإنه (ينزل إلى السماء الدنيا) كما في الحديث، وإنه مستو على عرشه"، إلى أن قال:

"وقد بينا دين الأئمة وأهل السنة أن هذه الصفات تمر كما جاءت بغير تكييف ولا تحديد ولا تجنيس ولا تصوير كما روي عن الزهري وعن مالك في الاستواء، فمن تجاوز هذا فقد تعدى وابتدع وضل"[1].. وما جاء عن شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني[2] قال:

"ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه، وعرشه فوق سمواته"[3] .. وما جاء عن الحافظ الحجة أبي نصر السجزيّ[4] في إبانته قال:

"أئمتنا كسفيان الثوري ومالك وحماد بن سلمة[5] وحماد بن زيد[6] وسفيان بن عيينة والفضيل وابن المبارك وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله سبحانه بذاته[7] فوق العرش وعلمه بكل مكان، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه يغضب ويرضى ويتكلم بما شاء"[8].

---

(1) العلو ص ١٧٤ ومختصره ص٢٥٩.

(2) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد النيسابوري، كان إماماً مفسراً ومحدثاً فقيهاً وواعظاً صوفياً، وعظ المسلمين ستين سنة، سمع من ابن خزيمة والسراج، قال إمام الحرمين: "كنت بمكة أتزود من المذاهب فرأيت النبي فقال: (عليك باعتقاد ابن الصابوني)" ت٤٤٧ أو٤٤٩ .. اللباب٢/ ٢٢٨والعلو ص١٨٠.

(3) العلو ص١٧٩ ومختصره ص٢٦٥وينظر مجمل معتقده١/ ١١٠من المجموعة المنيرية.

(4) هو عبيد الله بن سعيد الوائلي، حافظ مجود روى عن أصحاب المحاملي وطبقتهم ت٤٤٤ ..العلو ١٨١.

(5) البصري النحوي، قال الذهبي: "كان من أئمة السنة، لهجاً ببث أحاديث الصفات رأساً في العلم والعمل"، وهو أول من صنف التصانيف مع ابن أبي عروبة، وكان بارعاً في العربية فقيهاً فصيحاً" ت١٦٧ .. التذكرة١/ ٢٠٢ والطبقات٧/ ٢٨٢والعلو ص١٠٥.

(6) ابن درهم البصري الضرير، قال ابن حنبل: "هو من أئمة المسلمين من أهل الدين" وقال الذهبي: "حماد للعراقيين نظير مالك في الجلالة والعلم"، ت١٧٩..الطبقات٧/ ٢٨٦ والتذكرة١/ ٢٢٨.

(7) اضطر أهل الأثر من أئمة القرون التالية لعصر الصحابة- على الرغم من حرصهم الشديد على الاتباع حتى في تحري الألفاظ- إلى استعمال لفظ (بذاته) (بنفسه) (بائن) التي شاعت في عباراتهم في حق الله، ولفظ (غير مخلوق) في حق كتابه، لمّا ابتدع الجهم وأتباعه مقولة أن (الله في كل مكان) وأن (القرآن مخلوق)، وذلك رجاء أن يقع منهم البيان بأنه تعالى فوق العرش دون سواه من الأمكنة وأن القرآن كلامه فهو من ثم صفة من صفاته[مختصر العلو ص ١٨، ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٧٨وينظر المعارج١/ ١٤٨].

(8) ينظر العلو ١٧٢، ١٨٠ومختصره ص٢٥٥، ٢٦٦واجتماع الجيوش ص٩٧، ١١٠والمعارج١/ ١٥٠.

٢٠، ٢١: وكذا ما جاء في كلام ابن عبد البر[١] في شرحه لحديث النزول من الموطأ من قوله:

"هذا حديث صحيح لم يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء على العرش فوق سبع سماوات كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة، وهذا أشهر عند العامة والخاصة، وأعرف من أن يُحتاج إلى أكثر من حكايته، لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم"[٢]، ومن قوله:

"أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة، ولم يكيفوا شيئاً من ذلك، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ولا يجعلوا منها شيئاً على الحقيقة"، كذا ذكره الذهبي في العلو وابن حجر في شرحه لصحيح البخاري[٣] .. وما جاء في كلام ابن قدامة صاحب المغني[٤] - وذلك بعد أن ساق كلاماً في هذا الصدد للإمام أحمد والإمام الشافعي - من قوله:

"وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم، كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله"[٥].

وقد دل هذا الإجماع ضمناً وعلى نحو ما أفاده ابن قدامة المقدسي ولوح به على بطلان كل تأويل يُخرج أياً من الصفات الثابتة بطريق صحيح عن ظاهر معناها، على نحو ما زعم البعض – تحت دعوى تنزيه الله تعالى عن المشابهة – في تأويل اليد والأصبع بالقدرة والملك، والعجب بالرضا، والضحك بالرحمة، والمناجاة بالإقبال، والدنو بالقرب، وعلوه بعلو الشأن والشرف والمنزلة،

---

(١) هو الإمام العلامة حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري الأندلسي، اشتهر فضله في الأقطار ولا غرو فهو صاحب المصنفات النفيسة من نحو (التمهيد) و(الاستذكار) و(الاستيعاب) و(جامع بيان العلم وفضله) وغيرها ت٤٦٣ .. العلو ص ١٨١، ١٨٣.

(٢) العلو ص ١٨١ ومختصره ص ٢٦٨ والمعارج ١/ ١٥٠.

(٣) العلو ص ١٨٢ ومختصره ص٢٦٨ وينظر فتح الباري١٣/ ٣٤٦.

(٤) هو الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الدمشقي الحنبلي، كان ثقة حجة ورعاً عابداً على قانون السلف، كما كان بحراً زاخراً في العلم والذكاء ت ٦٢٠.

(٥) لمعة الاعتقاد بشرح الشيخ ابن عثيمين ص١٩.

والاستواء بالاستيلاء، والوجه بالذات، والإعراض بالسخط، والغضب بإرادة إيصال العذاب وهكذا، لتنافي كل ذلك مع الإثبات.

كما دل ضمناً على بطلان التوسع في صفات السلوب، لكون ذلك خوض في الكيف الذي تضافرت كلمة السلف على تفويض علمه إلى الله.

جـ: من كلام فقهاء المذاهب والمحدثين والعباد وإجماعاتهم على وجوب الوقوف على معاني الصفات وعدم البحث عما وراءها من الكيفية

ومن أقوال أهل العلم وأئمة السلف المؤيدة لما سبق ذكره ما أورده الذهبي عن سفيان الثوري قال: "كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن[1] - شيخ مالك - فسأله رجل فقال: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥) كيف استوى؟ فقال: (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)[2]، وفي رواية لعبد الله بن صالح بن مسلم أوردها البيهقي بلفظ: (الكيف مجهول والاستواء غير معقول ويجب عليّ وعليك الإيمان بذلك كله)، وفي لفظ آخر صح عن ابن عيينة وبنحوه عن اللالكائي قال: سئل ربيعة كيف استوى؟ فقال: (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق)"[3]، وهو ثابت عن أم سلمة زوج النبي عليه السلام لكن بلفظ: (الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول

---

(١) فروخ التيمي أبو عثمان المعروف بربيعة الرأي، كان ثقة ثبتاً كثير الحديث، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة يجلس إليه وجوه الناس يتقونه لموضع الرأي ت١٣٣..التهذيب٢/ ١٥٣.

(٢) وهي لفظ لمالك في رواية أخرجها الذهبي وابن مندة عن عالم المشرق يحيى بن يحيى النيسابوري وينظر في شأنها المختصر ص ١٨٠.

(٣) العلو ص٩٨ومختصره ص١٣٢وينظر السنة للالكائي٣/ ٣٩٨ مجلد٢ رقم٦٦٥والأسماء للبيهقي ص٥٦٢ والعلو لابن قدامة ٩٠ وفتح الباري١٣/ ٣٤٥واجتماع الجيوش ص٤٤والمعارج ١/ ١٣٢ وقال ابن تيمية في الحموية ص٢٤ والفتاوى٥/ ٣٦٥رواه الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات.

والإقرار به واجب والجحود به كفر)[1]، وعن الإمام مالك إمام دار الهجرة[2]، ومن أقواله:

(الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف؟ وكيف عنه مرفوع)، وفي رواية ذكرها أبو سعيد الدارمي بسنده عن جعفر بن عبد الله- وكان من أهل الحديث ثقة- أنه[3] حين سئل عن ذلك أخذته الرحضاء- أي العرق- وأطرق وجعلنا ننظر ما يأمر به في السائل فزاد: (والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً) ثم أمر به فأخرج، قال أبو سعيد الدارمي: "وصدق مالك، لا يعقل منه كيف ولا يجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية"[4].

"وهو قول أهل السنة قاطبة .. أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه كما أخبر في كتابه وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أن لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عليه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته ولا في استوائه ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً"[5] .. ومن أقوال الإمام القرطبي صاحب التفسير الكبير:

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه وكذا ابن مندة في التوحيد٣/ ٣٠٣واللالكائي في أصول السنة ٦٦٣ وابن تيمية في الفتاوى٥/ ٣٦٥ وابن قدامة في العلو٨٢ وابن حجر في الفتح١٣/ ٤٠٦من طريق الحسن البصري عن أمه عنها وفيها: (والإقرار به إيمان) وقد ضعفها الذهبي.

(2) يقول ابن قدامة: "من المحتمل أن يكون ربيعة ومالك بلغهما قول أم سلمة فاقتديا بها وقالا مثل قولها لصحته وحسنه وكونه قول إحدى أزواج النبي عليه السلام، ومن المحتمل أن يكون الله تعالى وفقهما للصواب وألهمهما من القول السديد مثل ما ألهمها" .. ذم التأويل ص١٢.

(3) أي مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ولد سنة٩٣ بالمدينة وتوفي بها سنة ١٧٩ .. التذكرة١/ ٢٠٧ والتقريب١/ ٢٢٣.

(4) الرد على الجهمية ص٢٨٠من عقائد السلف، وينظر أبو نعيم في الحلية٦/ ٣٢٥، ٣٢٦ وشرح أصول السنة٣/ ٣٩٨مجلد٢ رقم ٦٦٤وذم التأويل ص٥وعقيدة السلف للصابوني١/ ١١٠، ١١١من المنيرية والبيهقي في الأسماء ٨٦٦، ٨٦٧ وابن حجر في الفتح١٣/ ٤٠٦.

(5) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٣٣ وينظر مختصر العلو ص١٤١، ١٤٢ والأسماء والصفات للبيهقي ص٥٦٣وفتح الباري١٣/ ٣٤٥باب (وكان عرشه على الماء)، وعقائد السلف ص٥٨٧عن تفسير القاسمي المسمى بـ(محاسن التأويل) والمعارج١/ ١٣٥.

"وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص عرشه بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تُعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم- يعني غير مجهول المعنى في لغة العرب- والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة)"[1].

ولأبي حنيفة[2] عمن يقول: (لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض)، قال: "قد كفر، لأن الله تعالى يقول: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥)، وعرشه فوق سماواته).

وعمن يقول: (هو على العرش ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض)، قوله: (إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر)"[3]، كما "سئل عن حديث النزول فقال: (ينزل بلا كيف)"[4] .. ومما جاء عن عالم الديار المصرية في وقته الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة التي ألفها، قوله:

"القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على نبيه وحياً، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله بالحقيقة ليس بمخلوق .. والرؤية لأهل الجنة حق بغير إحاطة ولا كيفية، وكل ما في ذلك من الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد" .. إلى أن قال: "والعرش والكرسي حق كما بيّن في كتابه، وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه"[5].

---

(1) العلوص١٩٤ومختصره ص٢٨٦وينظر تفسيرالقرطبي٣/ ٢٧٣٧ والأسماء والصفات للبيهقي ص٥٦١واجتماع الجيوش ص١٠٣، ١١٠والمعارج١/ ١٥٢.

(2) هو عالم العراق الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت التميمي الكوفي، أحد الأئمة الأربعة ولد سنة ٨٠ رأى أنس بن مالك أكثر من مرة، قال عنه ابن المبارك: (أبو حنيفة أفقه الناس)، وقال الشافعي: (الناس عيال على أبي حنيفة) ت١٥٠.. التذكرة١/ ١٦٨وشذرات١/ ٢٧٧.

(3) العلو ص ١٠١، ١٠٢ومختصره ص١٣٦، ١٣٧وينظر الفاروق لأبي إسماعيل الهروي وشرح الطحاوية بتحقيق شاكر ص ٢٦٧والمعارج١/ ١٣٤.

(4) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٦١١.

(5) العلو ص ١٥٨ومختصره ص٢٣٥وينظر اجتماع الجيوش ص٩٨و المعارج١/ ١٤٧.

ولمحمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى[1] فيما رواه عنه الحافظ المقدسي وشيخ الإسلام أبو الحسن علي بن محمد الهكاري بسنده، قال: "القول في السنة التي أنا عليها ورأيت عليها الذين رأيتهم فأخذت عنهم مثل سفيان بن عيينة ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذكر شيئاً ثم قال: وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء وينزل إلى سماء الدنيا كيف يشاء وذكر سائر الاعتقاد"[2]، ولشيخه عالم الكوفة وكيع بن الجراح[3] قوله في أحاديث الصفات مثل (حمل السماوات على أصبع)، (قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن): "نسلم بهذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف كذا، ولا لم كذا"[4].

ومما قاله أبو الحسن الكرجي[5] الشافعي في قصيدته التي زادت عن المائتي بيت:

عقيدة أصحاب الحديث قد سمت ** بأربـاب ديـن الله أسنى المراتب
عقائـدهــــم أن الإلـه بذاتــــه ** على عرشـــه مع علمه بالغوائب
وأن استـواء الرب يعـقل كونه ** ويجهل فيه الكيف جهل الشهارب[6]

ومن كلام الإمام البارع الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الشافعي صاحب التفسير المعروف باسمه، في هذا الصدد:"وأما قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب المطلبي المكي، أحد الأئمة الأربعة وهو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين ولد ١٥٠ بغزة فلسطين وتوفي بمصر ٢٠٤.. التذكرة ١/ ٣٦١ والتقريب ١/ ٤٣.

(2) العلو ص١٢٠ ومختصره ص١٧٦ وينظر وصية الإمام الشافعي ص٥٤ والمعارج ١/ ١٣٨ والأسماء والصفات ص٥١٧ وعون المعبود ١٣/ ٤١، ٤٧ وساقه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة بإسناده المتصل إلى الشافعي ١/ ٢٨٣.

(3) ابن مليح الرواس الكوفي الإمام الحافظ الثبت، محدث العراق وأحد الأئمة الأعلام، قال أحمد بن حنبل: "ما رأت عيني مثل وكيع قط يحفظ الحديث ويذاكر بالفقه في حسن مع ورع واجتهاد ولا يتكلم في أحد" ت١٩٧ .. التذكرة١/ ٣٠٦ والتقريب٢/ ٢٣١.

(4) العلو ١١٧ ومختصره ص١٦٩ والسنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ص٦٤ والصفات للدارقطني ص٧١.

(5) هو العلامة محمد بن عبد الملك صاحب شيخ الإسلام الهروي من كبار فقهاء الشافعية ت ٥٣٢ .. العلو ص١٩١.

(6) العلو ص١٩١، ١٧٢ ومختصره ص٢٨١، ٢٥٥ والمعارج١/ ١٥٢ والشهارب جمع شهرب وهو العجوز الكبير.

ٱلْعَرْشِ .. الأعراف/ ٥٤ يونس/ ٣الرعد/ ٢الفرقان/ ٥٩السجدة / ٤ الحديد/ ٤)، فللناس فيها مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل"[1].

ولأحمد بن حنبل[2] قوله قبيل موته: "أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل"، وروى عنه ولده عبد الله في كتاب السنة قال: "سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت، فقال لي أبي: (بل تكلم بصوت، وهذه الأحاديث تروى كما جاءت)"[3]، كما روى عنه حنبل قوله: "أدركنا الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث- يعني أحاديث الرؤية- شيئاً، وكانوا يحدثون بها على الجملة، يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين"[4]، وعن أحمد في رواية لبعضهم: "لا يقال في صفات الرب عز وجل (كيف؟) و(لم؟)"، وعنه قوله: "نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد، لما روي عن سعيد بن المسيب[5] عن كعب الأحبار قال: قال الله تعالى في التوراة: (أنا الله فوق عبادي وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي عليه أدبر عبادي ولا يخفى عليّ شيء ..).

---

(١) تفسير ابن كثير٢/ ٢٢٠.

(٢) هو صاحب المذهب المعروف الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، طاف البلاد في طلب العلم، ومناقبه أكثر من أن تحصى أو تستقصى، ويكفي أن الشافعي عده من عجائب الزمن وعلل ذلك بأنه كان صغيراً وكلما قال شيئاً صدقه الكبار، ومشايخه أعيان السلف وأئمة الخلف وأصحابه خلق كبير لا يحصيهم عدد ولا تحويهم بلد، روى عنه الفقه أكثر من مائة نفس، كما روى عنه الحديث من الأكابر عبد الرزاق ووكيع وقتيبة وغيرهم، وله من التصانيف الكثير منها إلى جانب المسند(الرد على الزنادقة الجهمية) ت٢٤١.

(٣) السنة ص٧٠، ٧١وينظر فتح الباري١٣/ ٣٤٦باب(وكان عرشه على الماء).

(٤) معارج القبول ١/ ٢٧٦.

(٥) بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عابد المخزومي فقيه المدينة وأجل التابعين ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، كان واسع العلم والمعرفة متين الديانة قوالاً بالحق فقيه النفس مات بعد التسعين وقيل بعد المائة .. تذكرة الحفاظ١/ ٥٤وتقريب التهذيب١/ ٣٠٥.

وكونه عز وجل على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف.. ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله: (كل وصف وصف الله تعالى به نفسه في كتابه، فتفسيره قراءته لا تفسير له غيرها، ولا نكلف غير ذلك فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه، ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه الصلاة والسلام .. انتهى من كلام الجيلاني"[1] .. ومما جاء عن أبي محمد البربهاري[2] شيخ حنابلة عصره ببغداد قوله: "لا يُتكلم في الله إلا بما وصف به نفسه، ولا نقول في صفاته: (لم؟) ولا (كيف؟)، يعلم السر وأخفى، وعلى عرشه استوى، وعلمه بكل مكان"[3].

وذكر شيخ الصوفية الإمام العارف بالله أبو منصور معمر بن أحمد بن زياد الأصبهاني ت ٤١٨في وصيته قوله: "أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث، وأهل التصوف والمعرفة" فذكر أشياء إلى أن قال بعدها: "وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف مجهول، وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون منه، فلا حلول ولا ممازجة ولا ملاصقة، وأنه سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويعجب ويضحك ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال"[4]، وفي أخبار شتى "أن الله في السماء السابعة على العرش بنفسه" كذا ذكره شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي صاحب (ذم الكلام وأهله) و(منازل السائرين في التصوف) والمتوفي سنة ٤٨١[5].

---

(1) الغنية١/ ٧٤وينظر عقائد السلف ص٥٧١عن محاسن التأويل للقاسمي وفتح الباري١٣/ ٣٤٥ باب (وكان عرشه على الماء) والمعارج١/ ١٥٢ والتوحيد لابن مندة ٨٩٥.

(2) الحسن بن على بن خلف، كان – على حد ما ذكر الذهبي – كبير الشأن، أخذ عن المروزي وله أصحاب وأتباع ت٣٢٩ .. العلو ١٦٤.

(3) العلو ص ١٦٤ ومختصره ص٢٤٤ والشذرات لابن العماد ٢/ ٣١٩والمعارج١/ ١٤٧.

(4) العلو ص ١٧٧ ومختصره ص٢٦٢والمعارج١/ ١٤٩.

(5) العلو ص١٧٢، ١٨٩ ومختصره ص٢٥٥، ٢٧٨وينظر كتابه في الصفات المعروف بـ (الفاروق) واجتماع الجيوش ص١٠٩ والمعارج١/ ١٥١.

ومما ذكره بشر الحافي زاهد عصره ت٢٢٧ مما يفيد إثبات استوائه تعالى وفوقيته على عرشه وعدم حلوله جل شأنه في الأشياء أو اتحاده بها، ما جاء في قوله بوجوب "الإيمان بأن الله على عرشه استوى كما شاء، وأنه عالم بكل مكان"[1] .. ومن كلام للحافظ أبي نعيم[2] الأصبهاني صاحب (حلية الأولياء) قوله: "طريقنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته القديمة لا يزول ولا يحول .. وأن الأحاديث التي ثبتت في العرش واستواء الله عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمائه من دون أرضه"[3].

كما بوب المحدثون في كتبهم لأحاديث الصفات بما يفيد إثباتها، وذلك بالوقوف على دلالاتها وتفويض كيفياتها إلى علام الغيوب سبحانه، فقد ذكر البخاري في آخر صحيحه في كتاب التوحيد ضمن ما ذكر: باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ .. النساء/ ١٤٨)، باب قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ .. القصص/ ٨٨)، وباب قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ .. طه/ ٣٩)، وباب قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .. ص/ ٧٥)، وباب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ .. هود/ ٧)، وباب قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ .. القيامة/ ٢٢) ..إلخ، يذكر في كل باب مجموعة من الأحاديث التي فيها الصفة التي بوب لها بما يفيد إثباتها لله تعالى دون تكييف .. كذا فعل مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وأحمد في المسند وغيرهم من أصحاب السنن والمسانيد، فقد ذكروا أحاديث الصفات بما يفيد إثباتها، وكلهم أمروها في كنهها كما جاءت ولم يتعرضوا لها بكيف ولا تأويل.

---

(1) العلو ص ١٢٦ ومختصره ص ١٨٥.

(2) أحمد بن عبد الله بن أحمد كان – كما قال الذهبي في العلو ص ١٧٦ – حافظ العجم في زمانه بلا نزاع، جمع بين علو الرواية وتحقيق الدراية، ذكره ابن عساكر في أصحاب الأشعري ت٤٣٠.

(3) العلو ص١٧٦ ومختصره ص٢٦١ والاعتقاد لأبي نعيم واجتماع الجيوش ص١١٠ والمعارج ١/ ١٤٩.

وكان البخاري قد عقد أبواباً ذكر فيها ما أنكرت الجهمية من معاني صفات الله، وحذا حذوه في هذا كثير من المحدثين من نحو ما فعل ابن ماجة في سننه الذي ذكر فيها أنكرت الجهمية أحاديث الرؤية والضحك والقبض والأصابع والطي وغيرها من الصفات، وممن شهد لهم بهذا من أهل العلم العلامة أبو بكر الإسماعيلي[1] وقد كان من مشايخ الإسلام ورأساً في الفقه والحديث قال: "اعلموا رحمكم الله أن مذاهب أهل الحديث أهل السنة والجماعة، الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقبول ما نطق به الله وما صحت به الرواية عن رسول الله ﷺ، لا معدل عما ورد به، ويعتقدون أن الله تعالى مدعو بأسمائه الحسنى، موصوف بصفاته التي وصف بها نفسه ووصفه بها نبيه، خلق آدم بيده، ويداه مبسوطتان، بلا اعتقاد كيف، واستوى على العرش بلا كيف، فإنه انتهى إلى أنه استوى على العرش ولم يذكر كيف كان استواؤه"[2].

ومما ذكره الإمام البيهقي[3] في باب القول في الاستواء، قوله: "قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ .. طه/ ٥﴾ .. وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ .. الأعراف/ ٥٤ يونس/ ٣الرعد/ ٢الفرقان/ ٥٩ السجدة / ٤ الحديد/ ٤﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ .. الأنعام/ ١٨﴾، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ.. النحل/ ٥٠﴾، وقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ.. فاطر/ ١٠﴾، إلى سائر ما ورد في هذا المعنى، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ .. الملك/ ١٦﴾ وأراد (من فوق السماء) كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ .. طه/ ٧١﴾ يعنى على جذوع النخل،

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم أخذ عنه فقهاء جرجان وصنف المستخرج على صحيح البخاري وجمع بين رئاسة الدين والدنيا ت ٣٧١ .. العلو ص١٦٧.

(٢) العلو ص١٦٧ ومختصره ص٢٤٨ عن اعتقاد السنة للإسماعيلي، وينظر المجموع ١٦/ ٣٨: ٤٤ والمعارج ١/ ١٤٨.

(٣) هو شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي صاحب التصانيف التي منها كتابه (المعتقد)، وشهرته وجلالته تغني عن التعريف به ت ٤٥٨ .. العلو ص ١٨٥.

وقال: (فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ .. التوبة/ ٢) يعني على الأرض، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات، فمعنى الآية:

أأمنتم من على العرش، كما صُرح به في سائر الآيات .. وفيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية أن الله سبحانه وتعالى بذاته في كل مكان، وقوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. الحديد/ ٤) إنما أراد بعلمه لا بذاته"[١]، إذ لو كان بذاته "في كل مكان لكان في بطن الإنسان وفمه وفي الحشوش، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق فيها ما لم يكن، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى خلفنا ويميننا وشمالنا، وهذا ما أجمع المسلمون على خلافه وعلى تخطئة قائله"، كذا ذكره أبو بكر محمد ابن الطيب الباقلاني فيما نقله عنه الحافظ الذهبي[٢].

وبنحو ما فعل المحدثون فعل الذين صنفوا في العقيدة من المتقدمين فقد ذكروا الأحاديث والآثار التي تتعلق بالصفات ضمن أبواب في رسائلهم، حتى أن بعضهم كابن خزيمة أطلق على كتابه اسم (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل)، فذكر باباً في إثبات وجه الله وباباً في إثبات العين لله جل وعلا، وباباً في ذكر استواء خالقنا العليّ الأعلى، وباباً في ذكر تكلم الله بالوحي.. وبمثله فعل البيهقي حيث ذكر ضمن ما ذكر (باب في إثبات صفة الوجه ..العين .. اليدين.. باب ما ذكر في اليمين والكف .. في الأصابع .. في الساعد والذراع .. في الساق .. في الضحك .. في الغيرة .. في التقرب والإتيان والهرولة .. إلخ)، ومن المصنفات التي جاءت على هذه الوتيرة مما صنف في العقيدة السلفية كتاب (الرد على الجهمية) للدارمي، ونحوه للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب (السنة) لكل من عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، وابن أبي عاصم، وأبي بكر الخلال، وأبي بكر الأثرم، وكتاب (الإبانة) و(مقالات الإسلاميين) وغيرهما لأبي الحسن الأشعري، وكتاب (الشريعة) للآجري، وكتابي الإبانة الصغرى والكبرى لابن بطة، و(الصفات) للدارقطني، وكتابي

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ص٨٩: ٩١ وينظر العلو ص ١٨٥ ومختصره ص٢٧٢.

(٢) العلو ص ١٧٤ ومختصره ص٢٥٨ عن الإبانة للباقلاني.

(التوحيد) و(الإيمان) لابن مندة، وكتاب (شرح أصول السنة) للالكائي، وكتابي (الاعتقاد) و(الأسماء والصفات) للبيهقي، و(النصيحة) للإمام الجويني، وكتاب (الأربعين في دلائل التوحيد) للهروي، و(الأسماء والصفات) و(الإكليل في المتشابه والتأويل) ورسائل (الحموية) و(التدمرية) و(الأكملية) وغيرها لابن تيمية، و(اجتماع الجيوش) لابن القيم، و(العلو) لكل من الذهبي وابن قدامة، فجميع هذه المصنفات وغيرها تكلمت في صفات الله سبحانه ولم تذكر إلا ما يدل على إثبات هذه الصفات وإمرار كيفيتها، وليس فيها ما يدل على خلاف ذلك[1].

د: مراد أهل العلم من وجوب إثبات الصفات دون تعطيل أو تكييف والوجه فيه

وصفوة القول أن عبارات السلف[2] الذين هم أدرى منا بألفاظ اللغة – وبخاصة ما تعلق منها بأمور الاعتقاد من نحو معرفة ما يجب وما يجوز وما

---

(1) ومع هذا فلا يزال البعض يطلب الدليل على أن مذهب السلف في صفات الله هو الإثبات، ولا يزال الكثير يعتقد أن مذهب السلف هو التفويض في معاني صفاته سبحانه.

(2) التي مؤداها– على ما أفادته نصوص الكتاب والسنة– أنه تعالى بذاته مستو علي عرشه على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، وعرشه فوق سماواته السبع، لا يحمله العرش بل العرش الذي هو فوق الماء ولا يقدر أحد قدره، وحملته– مع استغنائه عنهما– محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش ولا إلى السماء، وأن كرسيه الذي وسع السماوات والأرض هو موضع القدمين، وهو سبحانه بائن من خلقه وهم بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو معهم بعلمه ينظر كيف يعملون، وعلمه وقدرته واستماعه ونظره ورحمته في كل مكان، محيط بكل شيء وفوقه، ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة دون أن يخلو منه العرش ومن غير أن يدعه، يقرب من خلقه كيف يشاء، وأنه جلت حكمته وتعالت عظمته خلق آدم بيده، ويداه مبسوطتان وهما ملأى وكلتا يديه يمين، وقلوب عباده بين إصبعين من أصابعه، وله الملك في الدنيا والآخرة يمسك السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع، وأن من صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها الوجه والعينين، وهو جل وعلا يرضى ويسخط، ويعجب ويضحك، ويحب ويكره ويغضب، كل ذلك ثابت له بلا كيف وعلى الوجه اللائق بجلاله وعظمته، ويتكلم بما شاء وكيف شاء، ويجئ يوم القيامة للفصل بين عباده في ظلل من الغمام بلا كيف ويرى لأهل الجنة بغير إحاطة، وأنه لا يقال في صفاته (لم؟) ولا (كيف؟) لأن ذلك خوض في الكيف والمثل، وهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، ومن ليس له مثل في ذاته لا مثل له في صفاته.

يستحيل نسبته إلى الله من صفات- وأقدر بالتالي على فهم مراد الله ومراد رسوله منها، كلها متضافرة على إثبات كل ما أثبته الله لنفسه وصح عن رسوله ﷺ من الصفات.

* من غير تعطيل للنصوص بنفي ما اقتضته من صفات كماله سبحانه ونعوت جلاله، فإن نفي ذلك سواء كان بتعطيل أو تأويل، مِن لازمه نفي الذات ووصفه بالعدم المحض، لأن ما لا يوصف بصفة هو العدم[1]، ولهذا قالوا عن الجهمية أنهم يقولون بأن ليس في السماء إله يعبد وما ذلك إلا لجحودهم لما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله، وذلك فضلاً عما يتضمنه من تكذيب بالكتاب والسنة هو افتراء على الله، قال حماد بن زيد وبنحوه عن جرير ابن عبد الحميد والحافظ أبي معمر القطيعي أحد شيوخ البخاري ومسلم: "إنما يدورون على أن يقولوا ليس في السماء إله"[2]، وقال عاصم بن علي شيخ البخاري رحمهما الله:
"ناظرت جهماً فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أن في السماء رباً"[3]، وذكر العابد الفقيه الثبت الثقة أيوب بن أبي تميمة السختياني – ت ١٣١ – المعتزلة، وقال: "إنما مدار القوم على أن يقولوا ليس في السماء شيء"[4]، وقال عباد بن العوام محدث واسط ت١٨٥: "كلمت بشراً المريسي وأصحاب بشر، فرأيت آخر

---

(1) وهذا ما نطق به كبيرهم جهم بن صفوان فيما حكاه عنه الفقيه أبو معاذ البلخي فقد قالوا لجهم: صف لنا ربك الذي تعبده، فدخل البيت ثم خرج إليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ولا يخلو منه شيء فقال أبو معاذ: كذب عدو الله بل الله جل جلاله على العرش كما وصف نفسه، وفيما حكاه عنه أبو نعيم البلخي، وأخرجه البخاري في (خلق الأفعال) وعبد الله بن الإمام أحمد في (السنة) ص٣٧ من أنه لما أتى قوله في سورة طه: (الرحمن على العرش استوى .. طه/ ٥)، قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت [ينظر في شأن ذلك من غير ما ذُكر العلو ص ١١٤، ١١٥ ومختصره ص١٦٢، ١٦٣ واجتماع الجيوش ص٨٨].

(2) مختصر العلو ص١٤٦، ١٥١، ١٨٨ والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص١٥ ورواه ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية وابن بطة في الإبانة الكبرى٢/ ٦٩٣ وابن القيم في اجتماع الجيوش ص٨٧ والشيخ حكمي في المعارج١/ ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠.

(3) العلو ص ١٢٢ ومختصره ص ١٧٩ ومعارج القبول ١/ ١٣٩.

(4) ذكره الشيخ حكمي في المعارج١/ ١٣٢ والذهبي في العلو وعلق عليه الأخير بقوله: "هذا إسناد كالشمس وضوحاً وكالاسطوانة ثبوتاً عن سيد أهل البصرة وعالمهم رحمه الله تعالى" .. العلو ص ٩٨ ومختصره ص ١٣٢.

كلامهم ينتهي أن يقولوا: ليس في السماء شيء، أرى أن لا يناكحوا ولا يوارثوا"[1].

وعلى نفس دربهم وبنحو قولهم قال حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر، قال: "مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سعف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كرب (وهي أصول السعف الغلاظ العراض)، قالوا: لا، قيل: لها رطب وقنو (عذق)، قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة"، يقول الذهبي معلقاً: "قلت: كذلك هؤلاء النفاة، قالوا: إلهنا الله تعالى، وهو لا في زمان ولا في مكان، ولا يرى ولا يسمع، ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يريد .. ولا .. ولا، وقالوا: سبحان المنزه عن الصفات! بل نقول: سبحان الله العلي العظيم السميع البصير المريد الذي كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، ويُرى في الآخرة، المتصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين، (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .. الشورى/ ١١)"[2] .. وقال حنبل بن إسحاق- وبنحوه عن أبي داود والأثرم والفضل بن زياد- سمعت أبا عبد الله- يعني أحمد بن حنبل- يقول: القوم يرجعون إلى التعطيل في أقوالهم، ينكرون الرؤية والآثار كلها، وما ظننتهم على هذا حتى سمعت مقالاتهم، قال: وسمعته يقول: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي، فقد كفر ورد على الله وعلى الرسول قوله، أليس الله يقول: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ .. القيامة/ ٢٢، ٢٣)، ويقول: (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ .. المطففين/ ١٥) .. فنحن نؤمن بهذه الأحاديث- أي المؤيدة والمبينة لما جاءت به الآيات- ونقر بها ونمرها كما جاءت"[3]، وتجدر الإشارة إلى أن الجهمية لم تنكر صدور هذه الآيات عن الله سبحانه كما لم تنكر صدور أحاديث الصفات عن النبي ﷺ وإنما

---

(1) العلو ص١١٢ ومختصر العلو ص١٥٤، ٥٧ والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص١٩، ٢٥، ٣٢، ٣٨ وبنحوه عن عبد الرحمن بن مهدي ص٣١ وابن بطة في الإبانة الصغرى ص٢٥٥ والكبرى٢/ ٦٩٣ واجتماع الجيوش ص٨٤ والمعارج ١/ ١٣٦، ٢١٦.

(2) العلو ص١٨٢ ومختصره ص٢٦٩ وينظر الرد على الجهمية لابن حنبل ١٤٠ والإبانة الكبرى٢/ ٢٢٨.

(3) المعارج١/ ٢٧٥ وينظر ٢٧٤، ٢٧٦.

عن الله سبحانه كما لم تنكر صدور أحاديث الصفات عن النبي ﷺ وإنما أنكرت ما تضمنته هذه وتلك من إثبات صفات الله تعالى، فرد عليهم علماء السنة ما بين مكفر ومضلل ومبدع ومفسق.

* ولا تكييف لكنهِ شيء منها كأن يقول استوى على هيئة كذا، أو ينزل إلى السماء بصفة كذا، أو تكلم بالقرآن على كيفية كذا، ونحو ذلك من الغلو في الدين والافتراء على الله واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله ولا نطق به كتاب ولا سنة، فالخوض في مثل هذا هو الذي أدى إلى شيوع روح التفويض في معاني صفات الله على الرغم من أن الكلام فيه غير مطلوب، ولو كان ذلك مطلوباً من العباد لكلفنا به المولى سبحانه، والعقل فضلاً عن الشرع يقضي بعدم الخوض في الكيف، فإنه إنما يقال (كيف؟) لمن لم يكن مرة ثم كان، أما ما لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو .. وقد سأل رجل في مسجد الكوفة علياً رضي الله عنه: هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً؟ فغضب – عليه رضوان الله – ونادى: الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه، إلى أن قال:

"فكيف يوصف من عجزت الملائكة مع قربهم من كرسي كرامته وطول ولهم إليه وتعظيم جلال عزته وقربهم من غيب ملكوت قدرته، أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم .. فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته، فأتم به واستضيء بنور هدايته، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه – مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة النبي ﷺ ولا عن أئمة الهدى أثره – فكِلْ علمه إلى الله تعالى، فإنه منتهى حق الله عليك"[1].

وفي هذا المعنى يقول الفضيل بن عياض[2] فيما حكاه عنه الأثرم في كتاب السنة وابن القيم في اجتماع الجيوش ص١٠٦:

---

(١) إيثار الحق على الخلق للصنعاني ص٢٧١، ٢٧٢.

(٢) شيخ الحرم المكي من العباد المشهورين أخذ عنه الإمام الشافعي وغيره، ولد بسمرقند ثم استقر بمكة وتوفي بها عام ١٨٧ .. التذكرة ١/ ٢٥والطبقات٥/ ٥٠٠.

"ليس لنا أن نتوهم في الله - يعني في استوائه تعالى على عرشه- كيف؟ وكيف؟، لأن الله وصف نفسه فأبلغ فقال: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ .. / سورة الإخلاص)، فلا صفة أبلغ مما وصف الله به نفسه، وكذا النزول والضحك والمباهات والاطلاع كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يباهي وكما شاء أن يطلع وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم كيف؟ وكيف؟" .. ويقول سهل التستري[1]:

"لا كيف لاستوائه عليه، لأنه لا يجوز لمؤمن أن يقول: كيف الاستواء لمن خلق الاستواء، وإنما عليه الرضى والتسليم لقول النبي ﷺ: (إنه تعالى على العرش)"[2] ..ويقول الشافعي رحمه الله: "لا يقال للأصيل: (لم؟) ولا (كيف؟)، إنما يقال ذلك للفرع، فإن أمكن قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة"[3] .. "وإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر، فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه ولا نقول: إن معنى اليد القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات للفعل، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ .. الشورى/

---

(1) كان سهل ت٢٨٣ شيخ العارفين في زمانه، لقي ذا النون المصري وجماعة، ومما أثر عنه قوله: "أصولنا: التمسك بالقرآن والاقتداء بالسنة وأكل الحلال وكف الأذى والتوبة وأداء الحقوق"، كذا في العلو ١٤٨.

(2) العلو ص ١٤٨ ومختصره ص ٢٢٠ وهذا الجزء هو في جملة أحاديث وتمامه في بعضها، أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال له صلى الله عليه وسلم: (أتدري ما الله؟ إن شأنه أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع به على أحد، إنه فوق سمواته على عرشه)، أخرجه وبنحوه أبو داود ٤٧٢٦ والبغوي في شرح السنة١/ ١٧٥ والدارمي في الرد على الجهمية ٧١ وابن خزيمة في التوحيد١/ ٢٣٩، ٢٤٠ وابن أبي عاصم في السنة ٥٧٥، ٥٧٦ والآجري ٦٦٧ والبيهقي في الأسماء ٨٨٣ والدارقطني في الصفات٣٨، ٣٩ وأبو الشيخ في العظمة٢/ ٥٥٤، ٥٥٥ وابن عبد البر في التمهيد٧/ ١٤١.

(3) العلو ص ١٢١ ومختصره ص١٧٦ والآداب لابن أبي حاتم ص٢٣٣.

١١)، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .. الإخلاص/ ٤)"، كذا ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب[1].

ومن المواقف الدالة بوضوح على مدى استنكار أئمة السلف للسؤال عن الكيف ما حكاه الذهبي في العلو وابن عدي في الكامل عن بكير بن جعفر فيما رواه عنه إبراهيم بن موسى قال: "كنت عند بكير بن جعفر فجاء رجل فقال: الله على عرشه! كيف؟ فقال بكير: جروا برجله، فجروه"[2].

وابتناء على ما سبق ذكره مما يقره العقل السليم والمنطق السديد على نحو ما أقره الشرع الحنيف وأجمع عليه علماء الأمة المشهود لهم بالفضل، "لو قال لنا متنطع بينوا لنا كيفية الاتصاف بصفة الاستواء واليد ونحو ذلك لنعقلها، قلنا: أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا .. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بالصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات"[3].

ويعني هذا أن السؤال "إنما يكون عن كلمة غريبة في اللغة، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر"[4]، كما يعني أن الوجه في إثبات صفاته، كونها معلومة ولا تحتاج إلى بيان أو تفسير .. والوجه في نفي التشبيه والتكييف عنها، عجز العقول عن تحقيق كنه صفته وكيفية قيامها بذاته .. ومن المعلوم بداهة أن العقل البشري أسير مألوفاته ومشاهداته، والاستواء وكذا بقية الصفات المتعلقة بذات الله تعالى أمور غيبية، فلا يجوز فيها توهم المشابهة كما لا يجوز نفي ما ثبت منها عن الله ولا عن رسوله ﷺ لذلك التوهم، وإنما هو الإيمان والتسليم.

ومما يدل على وجوب الإثبات عن طريق معرفة الله بصفاته وعدم التفويض إلا في الكيف - من غير ما ذكرنا من تضافر أقوال الأئمة وإجماعهم

---

(١) ينظر ذم التأويل ص٦ والعلو ص١٨٥ ومختصره ص ٢٧٢ والمجموع١٦/ ٤٣، ٤٤.

(٢) ينظر العلو ص ١١٣ ومختصره ص ١٥٩ وكامل ابن عدي ٢/ ٣٧ وفيه بلفظ (خذوا).

(٣) تفسير أضواء البيان للشنقيطي٢/ ٢٢٠.

(٤) كذا ذكره الحافظ الذهبي إبان تعليقه على قول أبي جعفر الترمذي الفقيه: (النزول معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)، وذلك إثر سؤال وجه إليه عن حديث النزول: كيف هو يبقى فوقه علو؟ .. ينظر العلو ص ١٥٦ ومختصره ص٢٣١.

وأن هذا هو منهج السلف الصالح - ما صح عن علي بن الحسن بن شقيق، قال فيما رواه عنه الدارمي والحاكم والبيهقي: "سألت عبد الله بن المبارك: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا عز وجل؟ قال: في السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض، فقيل هذا لأحمد بن حنبل، فقال: (هكذا هو عندنا)"[1] .. وما صح عن حرب بن إسماعيل الكرماني، قال: "قلت لإسحاق بن راهويه: قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ .. المجادلة/ ٧)، كيف نقول فيه؟ قال: (حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه)، ثم ذكر عن ابن المبارك قوله: (هو على العرش بائن من خلقه)، ثم قال: أعلى شيء في ذلك وأبينه قوله تعالى: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥)"[2].

ولا أدل على عجز العقول عن تحقيق صفته، من عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه حتى لا تكاد تراه ولا ترى له بصراً ولا سمعاً، وكذا عجز أصحابها عن إدراك كنه الروح التي هي أدنى إليهم من كل دان وعدم إدراكهم لكنهها وكيفيتها، فكيف بمن فاقت عظمته الوصف والتقدير، وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحسرت العقول دون معرفة قدره؟[3]، وفي تعليق على قول سيد الحفاظ يحيى بن معين: (إذا قال لك الجهمي: وكيف ينزل؟ فقل له: كيف يصعد؟)، يقول الإمام الذهبي: "الكيف في الحالين منفي عن الله تعالى، لا مجال للعقل فيه"[4]، وهذا ما يقتضيه المنطق والقياس، وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم فلم يشكّوا أن في الجنة أنهاراً من خمر وأنهاراً من عسل

---

(1) العلو ص١١٠ ومختصره ص١٥١ وينظر الرد على المريسي للدارمي ص ٢٤، ١٠٣ والرد على الجهمية له ص٥٠ والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص١٣، ٧، ٤١، ٨١ والتوحيد لابن مندة ٨٩٩ والحموية ص٣٠ واجتماع الجيوش ص٤٤ والمعارج ١/ ١٣٦.

(2) العلو ص١٣١ ومختصره ص١٩١ والسنة للخلال والمعارج ١/ ١٤١.

(3) كذا أفاده ابن الماجشون وابن القيم عندما سئلا عما جحدته الجهمية ينظر العلو١٠٥ ومختصره ١٤٥ والصواعق المرسلة٦٣ كما ينظر الإبانة الصغرى لابن بطة٢٠٦ واجتماع الجيوش٩٧ والمعارج١/ ١٣٥.

(4) العلو ص ١٢٩ ومختصره ص١٨٨ والمعارج١/ ١٤٠.

وأنهارا من لبن، ولم يعرفوا كنه ذلك ولا مادته وكيفيته، إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا من الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، ومن العسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، ومن اللبن إلا ما خرج من الضروع، ومن الحرير إلا ما خرج من دودة القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا، ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها.

وإن شئت مزيداً من معرفة ذلك فافترض أن قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإنك إذا نسبت قوتهم إلى قوة الرب تعالى فلن تجد نسبة إليها البتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقد نبهنا سبحانه على هذا المعنى بقوله:
(وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .. لقمان/ ٢٧)، كما أخبر النبي ﷺ (أن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، وهو سبحانه فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه)[1]، فإذا لم يكن لأحد سبيل إلى معرفة كنه عرشه وهو بعض خلقه، فكيف بكنه صفاته جل وعلا وكيفيتها .. على أنه تعالى لم يكلف عباده بذلك ولا أراده منهم ولا جعل لهم إليه سبيلاً[2].

---

(١) أخرجه وبنحوه ابن جرير في تفسيره ٥٧٩٥ وابن أبي شيبة في العرش٤٥، ٥٨، ٥٩ وأبو الشيخ في العظمة ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٥٠ وعبد الله بن أحمد في السنة ٤٥٦، ٥٩١ وابن حبان ٣٦ والدارمي في الرد على المريسي١٠١وابن مردويه وغيرهم وكلها لا تسلم من ضعف وصححه الألباني بطرقه في الصحيحة ١٠٩.

(٢) ينظر الصواعق المرسل ص٦٣: ٦٥.

ومما جاء عن ابن مندة محدث الشرق في هذا قوله: "هو تعالى موصوف غير مجهول، وموجود غير مدرك ومرئي غير محاط به لقربه كأنك تراه، وقريب غير ملازق وبعيد غير منقطع، يسمع ويرى وهو العليّ الأعلى وعلى العرش استوى .. فالقلوب تعرفه والعقول لا تكيفه، وهو بكل شيء محيط"[1] .. وأنى لعقولنا أن تكيفه وإنا- على حد ما ذكره القاضي أبو يعلي[2] في هذا الصدد- لعاجزون كالّون حائرون باهتون في حد الروح التي فينا، وكيف تعرج كل ليلة إذا توفاها بارئها، وكيف يرسلها، وكيف تستقل بعد الموت؟ وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربه بعد قتله؟ وكيف حياة النبيين الآن؟ وكيف شاهد النبي ﷺ أخاه موسى يصلي في قبره قائماً ثم رآه في السماء السادسة وحاوره، وأشار عليه بمراجعة رب العالمين، وطلب التخفيف منه على أمته؟ وكيف ناظر موسى أباه آدم وحجه آدم بالقدر السابق، وبأن اللوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه؟ وكذلك نعجز عن وصف هيأتنا في الجنة، ووصف الحور العين؟ .. فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفيتها، وأن بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا في لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النوراني؟ .. وإذا ظهر عجزنا على نحو واضح وفاضح عن معاينة بعض خلقه، فمن ذا الذي يستطيع أن يصف لنا كنهه سبحانه أو ينعت لنا كيف سمع كلامه؟ ومن ذا الذي عاينه أصلاً أو قبلاً فنعته لنا؟[3].

وعلى نحو ما دل العقل على عدم إدراك كنه صفاته تعالى، فإنه قد دل كذلك على ضرورة الوقوف على معانيها، ذلك أن رسالة النبي ﷺ تضمنت شيئين مهمين هما العلم النافع والعمل الصالح كما قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .. التوبة / ٣٣والصف/ ٩) ..فالهدى: هو العلم النافع،

---

(1) التوحيد لابن مندة٣/ ٣٤ وينظر كتابه الإيمان١/ ٢٢٠، ٢/ ٧٥٨ وما بعدهما والعلو ١٧١ ومختصره ص٢٥٤ والحجة للأصفهاني١/ ٩١والإبانة الصغرى لابن بطة ص٢٠٦ وما بعدها والمعارج ١/ ١٤٨.

(2) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء البغدادي، صنف التصانيف الفائقة وكان عالي الإسناد إمام الحنابلة في وقته ت٤٥٨ .. طبقات الحنابلة٢/ ١٩٣: ٢٣٠والعلو١٨٤.

(3) ينظر العلو ص ١٨٣ومختصره ص ٢٧٠، ٢٧١.

ودين الحق: هو العمل الصالح الذي اشتمل على الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ، والعلم النافع يتضمن كل علم يكون للأمة فيه خير وصلاح في معاشها ومعادها، وأول ما يدخل في ذلك: العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، فإن العلم بذلك أنفع العلوم وبه قوام الدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ومن أجل ذلك كان من المستحيل أن يهمله النبي ﷺ ولا يبينه للناس بياناً ظاهراً ينفي الشك ويدفع الشبهة، خاصة وأن الإيمان بالله وأسمائه وصفاته هو أساس الدين وخلاصة دعوة المسلمين، وهو أوجب وأفضل ما اكتسبته القلوب وأدركته العقول، ثم إنه ﷺ كان أعلم الناس بربه وهو أنصحهم للخلق وأبلغهم في البيان، فلا يمكن مع هذا المقتضى التام للبيان أن يترك باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبساً مشتبهاً[1].

وفيما مضى، الرد الكافي على من أخطئوا في تنزيه الله وأحسنوا الظن بعقولهم وأساءوه بالكتاب والسنة فضلوا بذلك طريقهم، فمنهم من نزهه عن فوقيته على عرشه وبينونته من خلقه فاعتقد أنه عين الوجود وأنه في كل مكان ولم يصنه عن أخس الأماكن وأقبحها وهم الحلولية من أتباع جهم وأشياعهم، ومنهم من نزهه عن العلو والفوقية وجعل الوجود بأسره - على اختلاف أنواعه وتقابل أضداده مما لا يسوغ التلفظ بحكايته - هو المعبود، وهم طائفة ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين وأضرابهم من طائفة الاتحادية، ومنهم من أثبت إثباتاً هو عين النفي فوصفوا الباري بصفة العدم بقولهم بوجوده لا داخل العالم ولا خارجاً عنه ولا مبايناً له ولا محايثاً ولا منفصلاً عنه ولا متصلاً به ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا فوقه ولا تحته، فنزهوه بسلوبهم عن علوه وفوقيته على عرشه وجعلوا وجوده بذلك وجودا ذهنياً لا حقيقة له أو هو عين موجوداته، وهو مذهب الطوسي وغلاة الجهمية وطائفة الدهرية والسلبية ومن هم في زماننا على شاكلتهم من نحو أتباع عبد الله الهرري الحبشي[2].

---

(1) ينظر فتح رب البرية بتلخيص الحموية ص ٥٠، ٥١.

(2) وقد سول الشيطان لهؤلاء جميعاً اعتقاد أن لازم الإيمان بعلوه عز وجل على خلقه أن يكون حالاً في مكان، قالوا: وهذا وما لزم منه باطل ومن ثم فلا استواء له تعالى على الحقيقة، وجهلوا أن المكان أمر وجودي وأنه ليس فوق العرش وجود حادث، وبالتالي فليس ثمة مكان إطلاقاً، فالله فوق عرشه وهو

وهذا كله مخالف- كما تقرر- لما جاء به الوحي ولما أجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، وأنه مع علوه بائن من خلقه، يعلم ما هم عليه لا يخفى عليه منهم خافية، واستواؤه على عرشه كما أخبر وعلى الوجه الذي عناه وأراده وكما يليق بجلاله، ففوقيته جل وعلا إنما هي فوقية ذات وفوقية قهر، واستواؤه على عرشه إنما هو استواء علو وارتفاع يليقان بجلاله، ونزوله سبحانه إلى خلقه محمول على حقيقته اللائقة به، وأنه يأتي لعباده يوم القيامة لفصل القضاء ويراه أهل الجنة كما يرون الشمس لا يضارون في رؤيته، لا نتكلف لذلك تأويلاً ولا تكييفاً، بل نقول كما قال سلفنا: آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء به رسول الله على مراد رسول الله، لا نطلب إماماً غير الكتاب والسنة ولا نتخطاهما إلى غيرهما ولا نتجاوز ما جاء فيهما، ننطق بما نطقا به ونسكت عما سكتا عنه ونسير سيرهما حيث سارا ونقف معهما حيث وقفا.

******

جلت قدرته منزه عن المكان .. ومن العجيب أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بعد بعلوه عز وجل على عرشه فراراً من الإيمان بالمكان المزعوم، لم يكفهم تكذيبهم لنصوص الكتاب والسنة ولا خرقهم لإجماع الأمة حتى أوقعوا أنفسهم في القول بأنه- تعالى عما يقولونه علواً كبيراً- في الأمكنة حقيقة، وذلك بقولهم أنه جلت قدرته موجود في كل مكان أو في كل الوجود .. والأعجب أن بعضهم لما تنبه لما في هذا القول من تجسيم وتشبيه لله ببعض مخلوقاته الحالة في الأمكنة، أرادوا تنزيهه عن ذلك فوقعوا فيما هو شر منه وهو التعطيل المستلزم نفي وجوده تعالى أصلاً فقالوا: بأنه (ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا أمام ولا خلف، لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه)، ولقد صدق في حق أولئك قول القائل: (إن المعطل يعبد عدماً والمشبه يعبد صنماً)، ولو قيل لأبلغ الناس: صف لنا العدم، لما تجاوز ما قالوه، وهذا- على حد قول الألباني في المختصر ص١٢٢، ١٢٣ - من شؤم الانحراف عن السنة والإعراض عن اتباع السلف وأئمة الحديث، تعالى الله ما يقول الظالمون علواً كبيراً.

المبحث الثاني

توهم بعض أهل العلم أن تفويض معاني الصفات هو مذهب السلف

منشأ الخطأ عند علماء الكلام ولدى من تأثر بقول المفوضة من متأخري الأشاعرة

غلب على ظن البعض من متأخري علماء الكلام ومن لا يزال متأثراً عن جهالة بمعتقدهم أو متشبثاً به في إصرار وعناد، أن التفويض في معنى الصفات هو طريق السلف، ويذكر أن الشهرستاني كان من أوائل من ذكر أن مذهب السلف هو التفويض وقد تبعه في ذلك إمام الحرمين أبو المعالي بن عبد الله الجويني[1] والفخر الرازي[2] والسيوطي[3]، ثم شاع هذا بين الباحثين قديماً وحديثاً وراج حتى اتخذت هذه العبارات شبهة تقرر من خلالها أن مذهب السلف هو التفويض وليس الإثبات، قال الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل):

"ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لا بد من إجرائها على ظاهرها فوقعوا في التشبيه الصرف وذلك على خلاف ما اعتقده السلف"[4]، فقد أفاد في هذا النص أن إجراء آيات الصفات على ظاهرها هو زيادة على مذهب السلف وأن هذا لم يكن طريقهم ولا مرادهم في فهم صفات

---

[1] ومن كلامه في هذا ما نقله عنه ابن حجر من قوله في الرسالة النظامية: "ذهب أئمة السلف عن الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله"..وجواب أهل العلم عنه: أنه إن أراد بالتفويض تفويض كيفيات تلك الصفات فمسلم به، وهذا معنى قول السلف: نثبت لله ما أثبت لنفسه وأثبته له رسوله من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تشبيه ولا تعطيل، بل والمبتنى على أساس قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. الشورى/ ١١) .. أما إن أراد بالتفويض تفويض (المعاني المفهومة لتلك الظواهر) كما يفاد من كلامه، فليس هذا هو مذهب السلف، فإن السلف يفهمون معاني تلك الصفات التي وردت بها النصوص ويعتقدونها ولكنهم لا يعلمون كيفيتها ..ينظر هامش التوحيد لابن مندة١/ ٩٠والفتح ١٣/ ٣٤٦.

[2] وقد كان ذلك منهما قبل تراجعهما إلى مذهب السلف، فلا عجب إذن حين نلحظ تناقض كلامهما هنا مع آخر ما استقرا عليه.

[3] ومما قاله الأخير ونقله عنه ثلة من أهل العلم، منهم زين الدين المقدسي: "وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها" .. الإتقان ص ٣٠٥طبع ونشر مكتبة مصر، وأقاويل الثقات ص٦٥ .. والغريب في الأمر أن السيوطي يسوق ويدلل على قوله الذي أسلفنا، بقول الإمام مالك: (والاستواء غير مجهول)، ولا ندري كيف يتأتى له أن يسوق ذلك الأثر على ما أوجبه من تفويض علم مثل ذلك إلى الله؟؟!!

[4] الملل والنحل للشهرستاني١/ ٩٣.

الله تعالى لكون القول بإجراء الصفات على ظاهرها مؤد لا محالة- على ما ظنه- إلى التشبيه الصرف.

وفضلاً عن عدم صحة ما ذكره في هذا الصدد فقد ناقض نفسه حين قال قبل ذلك بصفحة واحدة:

"اعلم أن جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة، و.. لا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولا يؤولون ذلك"، ثم ذكر أن ممن يقول بهذا مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني ومن تابعهم، ولا يعني ذلك- على حد فهمه- إلا اعتقاد باقي أئمة السلف أن ثمة فارقاً بين صفات الذات والصفات الخبرية، لوجوب تأويل الأخيرة حتى لا يتوهم منها التشبيه[1].

وقد أيد الإمام الرازي ت٦٠٦ الشهرستاني ت٥٤٨ وذلك فيما جعله الأول في كتابه (أساس التقديس) قانوناً كلياً للمذهب، ويقضي هذا القانون الكلي وتلك القاعدة العامة التي أرساها الفخر الرازي في كتابه المذكور ص٢٢٣ بـ "أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً وأنه باطل".

وقد أداه تسليمه لما قرره لأن يفصح ويكشف اللثام عن أن الدلائل العقلية قاضية و"قاطعة بأن هذه الدلائل النقلية- يقصد تلك المفصحة من آي التنزيل ومن سنة سيد المرسلين عن الصفات الخبرية وصفات الأفعال والمتعارضة على حد زعمه مع الدلائل العقلية- إما أن يقال إنها غير صحيحة، أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظاهرها"، ثم يردف قائلاً: "ثم إن جوزنا

---

(١) وقد أثبت أهل التحقيق تراجع الشهرستاني عن تناقضاته تلك إلى رأي السلف، ذكر ذلك شيخ الإسلام في (العقل والنقل) و(الفتوى الحموية الكبرى) ص ٧ وأنشد أبياته التي انتهى فيها إلى رأي السلف والتي فيها يقول: لعمري لقد طفت المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم، فلم أر إلا واضعاً كف حائر* على ذقن أو قارعاً سن نادم .. لكن ما يدعو إلى الغرابة والعجب في آن واحد، هو أن من أتوا بعده ممن تأثر به من متأخري الأشاعرة من أمثال الفخر الرازي وابن الجويني والغزالي وغيرهم، بدءوا من حيث بدأ ولم يقفوا على نهاية قدمه حيث انتهى، فوقعوا من ثم فيما وقع فيه، وإن اشتهر أمر تراجعهم هم أيضاً عما خاضوا فيه من مسائل الصفات.

التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع[1] بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم يجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات". أ.هـ من كلام الرازي.

ويحق لنا هنا- ونحن نشير إلى أن التفويض لم يكن بحال من الأحوال مذهباً للسلف وإلى أن التشابه إنما كان مقصوراً لديهم على كيفيات الصفات دون معانيها- أن نتساءل أليس ما ذكره الشهرستاني من القول بالتفويض ومن أن المراد منها غير الظاهر وتبعه فيه الرازي، هو من قبيل ذكر الشيء وضده؟ وأليس ذلك وما أفاده من نسبة كلٍّ للسلف هو التناقض بعينه؟، وألا يكفي ويشهد لما نسبه مؤخراً للسلف وعلى رأسهم مالك وأحمد والثوري وداود وغيرهم من إثبات لصفات الذات وصفات الفعل ومن إجراء للصفات جميعاً على ظاهرها دون ما تمثيل ولا تشبيه، أن يكون هو الحق الذي لا ينبغي الحياد عنه؟ وأليس ما ذكره في شأن صفات الفعل والصفات الاختيارية وإيهام أنهما شيئان مختلفان عن صفات الذات مدعاة للتفرقة بين صفات مثبتة وأخرى مثبتة كذلك؟.

وبمثل هذه التناقضات نطق الرازي حين ذكر في كتابه (أساس التأسيس) قبل تراجعه- بالطبع - إلى مذهب السلف[2]: "أن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض في تفسيرها"[3]، فقد أوجب هنا تفويض معنى هذه المتشابهات- على حد زعمه- إلى الله ثم دعا إلى حملها على غير ظواهرها، فكيف يسوغ فيما كان كذلك أن يقع فيه التفويض؟ وكيف يتسنى القول بالتفويض ومجرد حملها على غير ظواهرها المفضي ضمناً إلى التأويل هو نقض للتفويض من الأساس؟،

---

(1) هكذا وصلت قيمة نصوص الوحي إلى حد جعل الاشتغال بتأويلها-الذي هو تحريف لها- يعد تبرعاً وإحساناً.

(2) وفي شأن تراجعه المأمول بعد شناعة ما صدر عنه يقول الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء٢١/ ٥٠١: "وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم، وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة والله يتولى السرائر"، أما عن إمام الحرمين ابن الجويني فسيأتي الحديث عن تراجعه هو الآخر وعن بعض ما صدر منه من عبارات في هذا الشأن.

(3) أساس التقديس للرازي ص٢٢٣.

ثم إن كان (لا يجوز لنا- على حد قوله- الخوض في تفسيرها) فما فائدة القول إذن بحملها على غير ظاهرها أو القول على سبيل التبرع بتأويلها؟.

وعلى نحو ما اغتر الرازي بكلام الشهرستاني، فقد اغتر زين الدين المقدسي بكلام ابن الجويني الذي ذكر في الرسالة النظامية - قبل أن يتراجع هو الآخر - ما نصه: "وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً اتباع سلف الأمة"، إلى أن قال: "فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة"[1] .. ذلك أنه وبعد أن نقل في كتابه (أقاويل الثقات) قول السيوطي في الإتقان ص٣٠٥:

"وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى"، وقول ابن الصلاح الذي جاء فيه: "وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها" .. لم يكتف بما نقله عنهما من القول بالتفويض في معنى الصفات حتى علق على ما ذكره لهما بأن هذا "القول، هو الحق وأسلم الطرق، فإنك تجد كل فريق من المتأولين يُخطّئ الآخر ويرد كلامه، ومن طالع كلام طوائف المتكلمين والمتصوفين عَلِم ذلك علم اليقين"، بل راح ينشد وينسج على هذا المنوال قائلاً:

"النـــاس شتى وآراء مفـــرقة * كل يرى الحـــق فيـها قـال واعتقدا"[2]

وكلام المقدسي بهذا يحمل كثيراً من الخطأ كما يحمل كثيراً من الصواب، ذلك أنه وإن كان في ظاهره يعد رداً على عادية المعتزلة والنفاة من رفض سبيل التأويل الناشئ عن نفي الصفات ومن عدم حملها على ظواهرها، كما يعد إثباتاً لما نفوه في حق الله تعالى من صفات القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، إلا أنه يحمل في طياته الرضا بما ذكروه هم وأولئك المتكلمون

---

(١) العقيدة النظامية لإمام الحرمين ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) أقاويل الثقات للمقدسي ص٦٧.

من متأخري الأشاعرة من تأويل سائر ما أثبته سبحانه لنفسه وأثبته له رسوله، لكون ذلك ببساطة شديدة هو منهج المتكلمين الذي سلم لهم به ولم يتعقبهم، بل ارتضاه لنفسه كما ارتضاه لأنفسهم كل من نقل عنهم وسلم لهم به ولم يتعقبهم، كما يحمل في طياته أن ما لم يمكن تأويله يجب تفويض المعنى فيه إلى الله، يقول ابن الصلاح فيما نقله عنه المقدسي في الأقاويل:

"وهذا القول .. هو قول بالتفويض وعد الصفات من المتشابه"، ويقول ناقله:

"اعلم- أيدني الله وإياك بروح منه- إن من المتشابه صفات الله تعالى، فإنه يتعذر الوقوف على تحقيق معانيها والإحاطة بها، بل على تحقيق الروح والعقل القائمين بالإنسان، وأهل الإسلام قد اتفقوا على إثبات ما أثبته الله لنفسه من أوصافه التي نطق بها القرآن من نحو سميع وبصير وعليم وقدير"، يعني ما أطلقوا عليه وأسموه بصفات المعاني، يقول:

"ونافي ذلك كافر لأنه مكذب لصريح القرآن"[1]، ومراده رفع الحرج عمن تأول غيرها أو فوض العلم فيه إلى الله لكونه – بزعمه – مما استأثر الله بعلمه.

وقد شاع هذا الفهم المغلوط عن السلف بتناقضاته كما سنبين ذلك تفصيلاً، في عبارات المتكلمين- ممن حسبوا أنفسهم من الخلف أنهم أشاعرة - نظماً ونثراً ومتناً وشرحاً، ففي شرحه على ما جاء في جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني:

وكل نص أوهم التشبيها * أوِّله أو فوِّض ورُم تنزيهاً

يقول البيجوري في كتابه (تحفة المريد على جوهرة التوحيد): "قوله: (فوضه) أي بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فبعد هذا التأويل فوض المراد من النص الموهم، إليه تعالى على طريقة السلف .. وقوله: (ورم تنزيهاً) أي واقصد تنزيهاً له تعالى عما لا يليق به مع تفويض علم المعنى المراد"[2].

---

(1) أقاويل الثقات ص٦٧.

(2) شرح البيجوري على الجوهرة ص١٠٠.

فهو يرى أن ثمة نصوصاً في الصفات موهمه وأن هذه النصوص الموهمة – يقصد بها تيك الصفات الخبرية وصفات الأفعال – تستوجب صرفها عن ظاهرها بتأويل إجمالي يعقبه تفويض، كما يرى أن هذا الخليط العجيب هو ما ارتآه السلف معتقدين إياه.

على أن البيجوري لم يكتف بالجمع بين هذه المتناقضات في تأويل الصفة وصرفها عن ظاهر معناها، والقول مع هذا بتفويض علمها إلى الله والزعم بأن هذا المزيج هو معتقد السلف في الصفات، حتى راح يدعي عليهم أنهم فيما يوهم الجهة في نحو قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. النحل/ ٥٠) "يقولون: فوقية لا نعلمها"، وأنهم في قوله تعالى: (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥)، "يقولون استواء لا نعلمه"، يقول هذا على الرغم من شهرة ما ورد عن مالك وغيره من أن (الاستواء معلوم)، بل وعلى الرغم من سوقه عبارة مالك تلك في سياق كلامه .. كما يدعى البيجوري أن السلف في حديث: (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا) "يقولون: مجيء ونزول لا نعلمها"، وفي قوله تعالى: (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ .. الرحمن/ ٢٧) وقوله: (يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. الفتح/ ١٠)، وحديث: (إن قلوب بني لآدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن)، "يقولون: لله وجه ويد وأصبع لا نعلمها"، وهكذا[١].

وليس ذلك بغريب على من ترك الأمر فيما ظنه موهماً للتشبيه بالخيار بين التأويل والتفويض، ولا في حق من عد ذلك تنزيهاً لله عن المشابهة وأنشأ في ذلك النظم.

هذا والقول بالتفويض مما يكثر الكوثري أيضاً عزوه لأئمة السلف، فقد ذكر في تعليقه على كتاب (السيف الصقيل) ص١٣ أن "الذي عليه السلف إجراء ما ورد من الكتاب والسنة المشهورة في صفات الله سبحانه على اللسان، مع التنزيه بدون خوض في المعنى ومن غير تعيين المراد"، وأعاد الكوثري هذا

---

(١) شرح البيجوري على الجوهرة ص١٠١، ١٠٢.

المعنى في مواضــع أخرى من الكتاب المذكور، من نحــو ما ذكره في ص١٣١، ١٤٥.

وجرى على منواله الشيخ سلامة القضاعي العزامي حيث ذكر نحوه في غير ما موطن إبان تعليقه على كتاب البيهقي في (الأسماء والصفات)، بله أنه كـان في ذلك أكثر جرأة حين صرح في ص٩٤ منه بأن "أكثر السلف على الكــف عن بيان المعنى المراد الـلائق بالحق تعـالى"، وكرر مثل هذا في صفحات ٥، ٨١ حيث نسب إلى أكثر السلف تنزيههم عن بيان المعنى اللائق بالله تعالى[1].

فالعجب ممن ينسب إلى السلف الصالح القول بالتفويض في آيات وأحاديث الصفات ويرميهم بعدم البحث عن المراد منها على نحو ما ارتأينا، مع وضوح ما نقلناه عن سلف هذه الأمة بل ومع إجماعهم على القول بنقيضه ووضوح ما جاء عن الإمام مالك وشيوخه وعن أم سلمة أم المؤمنين في تصريحهم بأن الاستواء معلوم.

وباعتقادي أن أولئك الذين اتهموا السلف بما هم منه برءاء إنما أوتوا- كما ذكر ذلك غير واحد من محققي أهل العلم - من حيث ظنوا أن طريق السلف يكمن في مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ذلك، فجعلوهم بهذا بمنزلة الأميين، وحاشاهم أن يكونوا كذلك.

والظاهر أن الذي حمل أولئك الذين يجهلون طريقة السلف ويغيب عنهم مذهبهم في الصفات[2]، على القول بالتفويض والادعاء بأنه مذهب أهل السنة والجماعة على هذا النحو السافر، مرجعه على وجه التفصيل إلى أحد أمرين:

---

(1) وقد أشار إلى ذلك ونوه عليه الألباني في مختصره على كتاب العلو للذهبي ص٣٦، ٣٧.

(2) مع احترمنا الشديد لهم واعترافنا بفضلهم وإقرارنا بموالاتهم وبأنهم أرادوا الحق فأخطئوه، وما قصدوا مخالفته ولا تعمدوا الخروج فيه على إجماع المسلمين ولا سلف الأمة، ومن ثم فلا عذر لمقلديهم ولا للاحتجاج - فيما خالفوا فيه السلف - بأقوالهم كما يفعل البعض، لاسيما وأنهم ما دعوا الناس إليه ولا جعلوه مذهباً يضاهئون به قول أهل الحق أو يحرضون الدهماء على الانتصار له أو يدعون من خلاله إلى خرم ما اتفق أهل السنة عليه، وما عمدنا إلى إظهار ما كتبوه إلا لبيان الحق ومعرفة وجه الصواب فيه والتحذير مما وقعوا فيه بعد إقامة الحجة وتسجيل تراجع جلهم إلى الحق، وحاشانا أن يكون المأرب من وراء ذلك القدح في معتقداهم ولا التشهير بهم ولا اتهامهم في دينهم أيضاً كما يفعل البعض، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الأمر الأول: ما ورد من نهي السلف عن تفسير الصفات والخوض في معانيها والزعم من ثمّ أنها من المتشابه

فقد وردت في أقوال السلف عبارات لم يدرك جل الأئمة الذين ينسبون إلى السلف معتقد التفويض حقيقتها ولا المراد منها، كإمرار التابعين وتابعيهم بإحسان رحمة الله عليهم لمعاني الصفات وكامتناعهم ونهيهم عن تفسيرها، في نحو ما أوردناه من قول الوليد بن مسلم: "سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفات؟ فكلهم قالوا لي: أمروها كما جاءت بلا تفسير"[1].. وما أوردناه عن محمد بن الحسن من قوله:

"اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم ينفوا ولم يفسروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة، لأنه وصفه بصفة لا شيء" .. وما جاء في قوله في أحاديث (إن الله يهبط إلى السماء الدنيا)[2]، ونحو هذا من الأحاديث هي: "أحاديث قد روتها الثقات، فنحن نرويها ونؤمن بها ولا نفسرها"[3].

وكذا ما جاء عن شيخ المحدثين يحيى بن معين[4] قال: "شهدت زكريا بن عدي سأل وكيعاً فقال: يا أبا سفيان، هذه الأحاديث مثل حديث (الكرسي

---

(1) العلو ص ١٠٤ ومختصره ص١٤٢.

(2) يعني الواردة بلفظ (يهبط) والتي أخرجها مسلم ٧٥٨ وأحمد١/ ١٢٠، ٤٦٦، ٢/ ٥٩، ٧٨٣، ٤/ ٣٨٥وأبو يعلى ٥٨٣٦، ٥٩٣٦، ٦٥٧٦وابن حبان٩٢١، ٩٣٢١ والدارقطني في النزول ٥٥ والبيهقي في الأسماء ص٦٠٦ والآجري في الشريعة ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٥٨ وابن مندة في التوحيد ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٧ وبلفظ (يتدلى) ٨٨٣ وفي النزول للدارقطني٦٦، ٦٧ والمستدرك٣/ ٣٢٢.

(3) ينظر شرح أصول السنة للالكائي٣/ ٤٣٣ مجلد٢ رقم٧٤١ وذم التأويل لابن قدامة ص٦ والعلو ص١١٣ ومختصره ص١٥٩ واجتماع الجيوش ص٨٧.

(4) ابن عون بن زياد بن بسطام، الإمام العالم الجهبذ كان إماماً ربانياً حافظاً ثبتاً متقناً عالما بأحوال الرواة وأسانيدهم ت٢٣٣ .. تذكرة٤٢٩ وتاريخ بغداد١٤/ ١٧٧ والتهذيب٦/ ١٧٨.

موضع القدمين)[1] ونحو ذلك..؟، فقال: "كان إسماعيل بن أبي خالد والثوري ومِسعَر بن كدام[2]- يروون هذه الأحاديث، لا يفسرون منها شيئاً"[3].. وما جاء عن سفيان بن عيينة- فيما نقله عنه الإمام أحمد- قال: "كل وصف وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره قراءته لا تفسير له غيرها، ولا نتكلف غير ذلك فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه"[4] .. وما جاء عن أبي عبيد القاسم بن سلام[5] - فيما رواه عنه البيهقي وغيره بإسناد صحيح- في أحاديث الرؤية والكرسي وموضع القدمين وضحك ربنا وحديث (أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء؟)[6] و(أن جهنم لا تمتلئ حتى يضع ربك عز وجل قدمه فيها فتقول قط قط) وأشباه هذه الأحاديث، فقال: "هذه أحاديث صحاح حملها أصحاب الحديث

---

(1) أخرجه أبو الشيخ في العظمة٢/ ٥٨٢، ٥٨٤، ٥٨٧، ٦٢٧والحاكم في المستدرك٢/ ٣١٠ والطبراني في الكبير٢/ ٣٩وعبد الله بن أحمد في السنة١/ ٣٠١، ٣٠٣، ٢/ ٤٢٤ واللالكائي في اعتقاد أهل السنة٣/ ٥٢٦ والبيهقي في الأسماء باب ما جاء في العرش والكرسي وهذا الشطر صحيح، أما تمامه وهو قوله: (وله أطيط كأطيط الرحل) فقد قال عنه الألباني في مختصر العلو ١٠٢: لم يصح في أطيط العرش حديث.

(2) ابن ظهير بن عبيدة بن الحارث الهلالي العامري الرواسي أحد الأئمة الأعلام ثبت مؤدب متفق على توثيقه، روى عنه سليمان التيمي وابن إسحاق وشعبة والثوري وابن عينة وابن المبارك وغيرهم ت١٥٣ .. تهذيب التهذيب لابن حجر٥/ ٤١٨.

(3) الصفات للدارقطني ص٦٩وذم التأويل لابن قدامة ص٩والعلو ص ١٠٩ومختصره ص ١٥٠ والتوحيد لابن مندة٣/ ١١٥، ١١٦ والبيهقي في الأسماء ص ٤٩٦.

(4) عقائد السلف ص٥٧١ وينظر العلو ص ١٨٣، ١٩٢ومختصره ص٢٧٠، ٢٨٢وفي الصفات للدارقطني ص٧٠ بلفظ "كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل" وبنحوه لابن مندة في التوحيد ٣/ ٣٠٧، ٣٠٨.

(5) من أئمة الاجتهاد وكان رأساً في اللغة، قال عنه ابن راهويه: "الله يحب الإنصاف، أبو عبد الله أعلم مني ومن الشافعي ومن أحمد"، ألف (غريب الحديث) وما تعرض لأخبار الصفات بتفسير، بل عنده ألا تفسير لذلك غير موضع الخطاب العربي ت٢٢٤.. العلو ص١٢٨.

(6) وفيه للنبي صلى الله عليه وسلم جوابان أما جوابه لأهل اليمن فقوله: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب جل ثناؤه في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض) أخرجه وبنحوه البخاري ٣٠١٨، ٣٠١٩، ٣١٩٠، ٣١٩١، ٤١٠٧، ٤١٢٥، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٦٩٨٢، ٧٤١٨ والترمذي٣٩٥١ وأحمد ٤٣١٤وابن حبان ٦١٤٢والطبراني في الكبير٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠ .. وأما جوابه لأبي رزين العقيلي فقوله: (كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق العرش على الماء)، وهو يحتمل التحسين بسبب وكيع بن حُدس، وقد أخرجه الترمذي ٣١٠٩ وابن ماجة ١٨٢ وأحمد٤/ ١١ والطبري في التفسير ١٧٩٨٠، ١٧٩٨١ وفي التاريخ١/ ٣٧، ٣٨ وابن حبان٦١٤١ والطبراني في الكبير١٩/ ٤٦٨وابن أبي عاصم في السنة ٦١٢ وأبو الشيخ في العظمة ٨٥ وينظر البخاري ٧٤١٨.

والفقهاء بعضهم عن بعض، وهي عندنا حق لا نشك فيه، ولكن إذا قيل لنا كيف وضع قدمه فيها وكيف يضحك؟، قلنا لا نفسر هذا ولا سمعنا أحداً يفسره"[1]، إلى غير ذلك من نصوص فهم متأخرو الأشاعرة من مؤداها إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وقد أتى السيوطي وهو يحتج ببعض هذه الأقوال بما يفيد أن السلف كانوا يقولون بتفويض الصفات[2]، وهذا توهم منه لا يبعد أن يكون قد تأثر فيه بما تراجع متأخرو الأشاعرة عنه ولم يبلغه ذلك، كما لا يبعد أن يكون غيره كذلك قد تأثر به فيه .. والجواب عن هذا أن المعنى الذي نفوه، وأبوا حمل التفسير عليه، هو المعنى الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم ممن ابتدعوا تفسيرات للصفات على خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات[3] .. أو أن يكون المراد من ذلك ترك التفسير الذي يخرج عن ظاهر اللفظ أو الذي يؤدي إلى معرفة الكيفية أو الكنه، ذلك - وببساطة شديدة - أن التفسير إنما يكون لما انبهم من الكلام، وصفاته تعالى ليست مبهمة وإنما هي ظاهرة معلومة المعنى، والمجهول هو الكيف ومن ثم كان هو الذي يحتاج إلى تفسير، ولما كان هـذا الكيف مجهول لـلخلق ولا مطمع في إدراكه قال السلف: أمروها بلا كيف.

وليس أدل على صحة ذلك الجواب، من أن السلف مع نفيهم الكيفية، أنكروا على المعطلة نهجهم الذي يقضي بنفي الصفات وعدم إثباتها، ومن أقوال أئمة السلف في ذلك ما نقل عن الإمام أحمد من قوله: "ليس كمثله شيء في ذاته.. وصفاته غير محدودة، ولا معلومة إلا بما وصف به نفسه، قال: فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير، ولا يبلغ الواصفون صفته، ولا نتعدى القرآن والحديث بل نقول كما قال ونصفه بما وصف به نفسه.. نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته بشناعة شنعت .. سميع بصير لم يزل متكلماً عالماً غفوراً .. فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد،

---

(1) العلو١٢٧ ومختصره ١٨٦ والصفات للدارقطني٦٨، ٦٩ والتوحيد لابن مندة ٣/ ١١٦ والأسماء للبيهقي ص٤٩٦ والحموية ٣٠ وشرح أصول الاعتقاد ٩٢٨ والمعارج ١/ ١٤، ٢٧٣ والحجة ١/ ٤٣٩.

(2) ينظر الإتقان ص٣٠٥ طبع ونشر مكتبة مصر.

(3) كذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ونص عليه في الفتوى الحموية ص١١٥.

وهو على العرش بلا حد كما قال تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ .. الأعراف/ ٥٤ يونس/ ٣الرعد/ ٢ الفرقان/ ٥٩ السجدة/ ٤ الحديد/ ٤) كيف شاء، المشيئة إليه والاستطاعة إليه، ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير، لا نتعدى القرآن والحديث، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة"[١].

ومن أدلته كذلك أن السلف أنكروا تفسير أولئك المعطلة وأثبتوا مع إنكارهم لتفسيراتهم تلك، تفسيرات أخري هي الموافقة لما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ليتضمن كلامهم الرد على كلتا الطائفتين المبتدعتين طائفة المعطلة وطائفة المشبهة، "يقول حنبل بن إسحاق: سألت أنا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ - يعني من نحو قوله-: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا) فقال لي: (اسكت عن هذا، ما لك ولهذا! أمض الحديث على ما روي بلا كيف ولا حد كما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب، قال الله عز وجل:)فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ .. النحل/ ٧٤)، ينزل كيف يشاء بعلمه وقدرته وعظمته أحاط بكل شيء علماً، لا يبلغ قدره وصف واصف، ولا ينأى عنه هرب هارب)"[٢].. ويقول محدث الكوفة في وقته الحافظ أبو جعفر محمد بن عثمان بن محمد ابن أبي شيبة العبسي ت٢٩٧ في كتابه عن العرش، وذلك فيما نقله عنه الحافظ الذهبي: "ذكروا أن الجهمية يقولون: ليس بين الله وبين خلقه حجاب، وأنكروا العرش وأن يكون الله فوق، وقالوا: إنه في كل مكان، ففسرت العلماء (وَهُوَ مَعَكُمْ .. الحديد/ ٤) يعني علمه، ثم تواترت الأخبار أن الله تعالى خلق العرش فاستوى عليه، فهو فوق العرش متخلصاً من خلقه بائناً منهم"[٣].

ومن عبارات السلف الدالة على إدراك معاني الصفات مع تفويض كيفياتها، ما ورد عن أبي زرعة الرازي وقد سئل عن تفسير قوله تعالى:

---

(١) ينظر اجتماع الجيوش لابن القيم ص٨٣ ومعارج القبول ١/ ٢٩٧.
(٢) اللالكائي٣/ ٤٥٣ مجلد٢ وينظر علاقة الإثبات ص٧٢ ومختصر الصواعق ٢/ ٢٥٢.
(٣) العلو ص ١٤٨ ومختصره ص٢٢٠.

(ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ .. طه/ ٥)؟، فغضب وقال: "تفسيره كما تقرأ هو على عرشه وعلمه في كل مكان، من قال غير هذا فعليه لعنة الله"[1] ..
وما جاء عن أبي بكر الآجري[2] قال: "الذي يذهب إليه أهل العلم أن الله سبحانه على عرشه فوق سماواته، وعلمه محيط بكل شيء، قد أحاط علمه بجميع ما خلق في السماوات العلى، وبجميع ما في سبع أرضين وما بينهما وما تحت الثرى .. ترفع إليه أعمال العباد .. فإن قيل فما معنى قوله: (مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ .. المجادلة/ ٧) الآية التي يحتجون بها؟ قيل: علمه، والله عز وجل على عرشه وعلمه محيط بهم وبكل شيء خلقه، كذا فسره أهل العلم، والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم وهو على عرشه، هذا قول المسلمين"[3].

ويدل عليه أيضاً قول أبي عبيد القاسم بن سلام سالف الذكر حين سئل عن أحاديث الصفات:

"هي عندنا حق لا نشك فيها، ولكن إذا قيل لنا كيف؟ قلنا لا نفسر هذا ولا سمعنا أحداً يفسره"، كذا بها يفيد التفرقة بين ما يجوز تفسيره وما يجب التوقف عنده .. وكذا قول أحمد نفسه الذي ورد عنه النهي عن التفسير المفضي إلى تحريف الكلم عن مواضعه: "إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه"[4]، وقوله فيما حكاه عنه المروزي قال: "قلت لأبي عبد الله: إن رجلاً قال: أقول كما قال الله: (مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا

---

(1) العلو ص ١٣٧ ومختصره ص٢٠٣ والمعارج١/ ١٤٣.
(2) هو الإمام الحافظ الزاهد محمد بن الحسين بن عبد الله، كان فقيهاً محدثاً أثرياً حسن التصانيف، جاور مدة وروى عن الكجي وأبي شعيب الحراني وطبقتهما وحمل عنه خلق كثير من الحجاج ت٣٦٠ .. العلو ص ١٦٦.
(3) الشريعة للآجري٣/ ١٠٧٦ والعلو ص١٦٦ ومختصره ٢٤٧ واجتماع الجيوش ص٩٧ والمعارج١/ ١٤٧.
(4) الإكليل ص٣١ وينظر موافقة صريح المعقول لابن تيمية١/ ٢٢ والصواعق ص١٢٤.

هُوَ رَابِعُهُمْ .. المجادلة/ ٧)، أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره، فقال: هذا كلام الجهمية، بل علمه معهم، فأوّل الآية بما يدل على أنه علمه"[1]، وقوله فيما رواه عن مالك: "الله عز وجل في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان"[2]، وقال لمحدث كان عنده حَدّثه بحديث (يضع الرحمن فيها قدمه)، فقال المحدث لغلامه: إن لهذا تفسيراً؟!، فقال أحمد بن حنبل للأثرم راوي الخبر: أنظر إليه! كما تقول الجهمية سواء!"[3]، وقال عن أتباع جهم: "إنهم تأولوها على غير تأويلها"[4]، فأوجب- رحمه الله- للصفات تأويلاً وتفسيراً ومعنى يغاير تأويلاتهم وتفسيراتهم ومعانيهم.

وعلى مثل هذا تحمل عبارات نفي التفسير كالتي رواها الحافظ الذهبي في العلو واللالكائي في أصول السنة عن محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة، وكما في قول الأئمة: "نؤمن بهذه الأحاديث من غير تفسير، منهم الثوري ومالك وابن عيينة وابن المبارك"[5] إلى غير ذلك من الأقوال التي يضيق المقام عن حصرها، ويفاد منها معرفة المراد منها وعدم إخراج معناها عن ظاهرها والنهي عن تأويلها بما يخالف قواعد اللغة ومبادئ الشرع على نحو ما فعلت فرق المعطلة.

يقول الحافظ الذهبي في بيان ذلك وفي توضيح معنى ما جاء في عبارة ابن عيينة (قراءتها تفسيرها): "يعني أنها بينة واضحة في اللغة لا يبتغى لها مضايق التأويل والتحريف، وهذا هو مذهب السلف، مع اتفاقهم أيضاً أنها لا تشبه صفات البشر بوجه، إذ الباري لا مثل له لا في ذاته ولا صفاته"[6]، ويقول ابن القيم: "قال ابن الماجشون والإمام أحمد وغيرهم من السلف: (إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه)، وقد فسر الإمام أحمد

---

(1) العلو ص ١٣٠ ومختصره ص ١٩٠.

(2) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ١١ والمسائل لأبي داود ص ٢٦٣ والشريعة ٣/ ١٠٧٧ واللالكائي ٣/ ٤٠١ مجلد ٢ رقم ٦٧٤ والعلو لابن قدامة ٩٢ وللذهبي ص ١٠٣ ومختصره ص ١٤٠.

(3) العلو ص ١٣١ ومختصره ص ١٩٠.

(4) الصواعق ص ١٢٤.

(5) فتح الباري ١٣/ ٣٤٦ ط دار إحياء التراث.

(6) العلو ص ١٨٣ ومختصره ص ٢٧٠.

الآيات التي احتج بها الجهمية من المتشابه وقال: (إنهم تأولوها على غير تأويلها)، وبين معناها وكذلك الصحابة والتابعون فسروا القرآن وعلموا المراد بآيات الصفات، كما علموا المراد من آيات الأمر والنهي وإن لم يعلموا الكيفية، كما علموا معاني ما أخبر الله به في الجنة والنار وإن لم يعلموا حقيقة كنهه وكيفيته، فمن قال من السلف: إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله بهذا المعنى- الكيفية- فهو حق، وأما من قال: إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد منه لا يعلمه إلا الله، فهو غلط، والصحابة والتابعون وجمهور الأمة على خلافه"[1].

ومما يدل على ذلك ويفيده "أن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنه كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أن أحداً منهم قط امتنع عن تفسير آية، قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا، عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل، وكذلك الأئمة"[2]، يقول ابن خزيمة: "وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله أن أهل السنة ومتبعي الآثار- القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ المثبتين لله جل وعلا من صفاته ما وصف به نفسه في محكم تنزيله المثبت بين الدفتين، وعلى لسان رسوله المصطفى ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولاً إليه - فوضوه فيه"[3].

والحق أن هذا غير صحيح فبالإضافة لما في كتب الصحاح والسنن والمسانيد - التي اشتملت على أحاديث الصفات وبوبت فيها أبواباً، مثل كتاب التوحيد وكتاب الرد على الزنادقة والجهمية التي هي آخر كتاب صحيح البخاري، ومثل كتاب الرد على الجهمية في سنن أبي داود إلى غير ذلك مما يضيق المقام عن حصره - جمع طائفة من العلماء في هذا الباب مصنفات، منها مصنفات حماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك وجامع الثوري وجامع ابن عيينة

---

(1) الصواعق المرسلة ص١٢٥ وينظر موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية ١/ ٢٢.
(2) ينظر الإكليل ص ٤٦ : ٤٨ وتفسير سورة الإخلاص ص٢٥٧.
(3) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٥٣.

ومصنفات وكيع ومالك بن أنس وغيرهم كثير، وكلهم تكلموا في جميع نصوص القرآن وفسروا الصفات بما يوافق دلالتها، وفيما ذكروه بيان قاطع ورد حاسم على من ظن أو زعم أن مذهبهم التفويض أو عدم إدراك معاني آيات الصفات.

وفي التنبيهات: "ليس الأسلم تفويض الأمر في الصفات إلى علام الغيوب، لأنه سبحانه بينها لعباده وأوضحها في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ ولم يبين كيفيتها، فالواجب تفويض علم الكيفية لا علم المعاني، وليس التفويض مذهب السلف بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السلف الصالح، وقد أنكر الإمام أحمد- رحمه الله- وغيره من أئمة السلف على أهل التفويض وبدّعوهم، لأن مقتضى مذهبهم أن الله سبحانه خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه، والله سبحانه وتعالى يتقدس عن ذلك"[1].

وفي تجلية هذا الأمر يقول ابن تيمية بعد أن ساق ما يفيده من الآيات ومن أقوال السلف من نحو ما جاء عن "علي عليه السلام لما قيل له: هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً، فقال: لا والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة"[2] يقول شيخ الإسلام: "وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة، قد تكلموا في جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها، وفسروها بما يوافق دلالتها، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم"[3].

ونذكر من أحوالهم ما أورده هو وتلميذه ابن القيم من قول عبد الله بن مسعود: ما في كتاب الله آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت[4]، وقول الحسن البصري[5]: ما

---

(1) تنبيهات على ما كتبه الصابوني للشيخ ابن باز ص ١٢، ١٣.

(2) ورد وبنحوه في مجمع الزوائد٨/ ١٦٩، مسند البزار٢/ ١٣٤ وشعب الإيمان١/ ١٩٧ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٦٨ والطبري٩/ ١٧٠ والموطأ٢/ ٤٥٥ والمدونة الكبرى٣/ ٣١.

(3) الإكليل في المتشابه والتأويل ص ٤٦، ٤٧.

(4) البخاري٤٧١٤، ٤٧١٦والمعجم الكبير ٨٤٣٠ والاستيعاب٣/ ٩٩١، ٩٩٣، ١١٠٧ وسير أعلام النبلاء١/ ٤٧٢ والطبقات الكبرى٢/ ٣٤٢والصواعق المرسلة٣/ ٩٢٤القرطبي١/ ٣٥.

(5) هو الحسن بن أبي الحسن يسار وأمه خيرة مولاة أم سلمة نشأ بوادي القرى وكان فصيحاً عالماً عابداً وسيماً صالحاً ثقة مأموناً صاحب سنة، كما كان أفقه أهل البصرة وأهيبهم، قال عنه المزني: "من سره أن

أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد تعالى بها[1]، وقول مسروق: ما نسأل أصحاب رسول الله عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه[2]، وقول مجاهد[3]: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها[4] .. فهذا ابن عباس وهو أحد من كان يقول: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ .. آل عمران/ ٧)، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن.

الأمر الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله: (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ)، فجعلوا الراسخين في العلم يعلمون التأويل[5]، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، فهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده" .. ويتساءل رحمه الله "هل يجوز لأحد أن يقول أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ)، جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته- وهو ما كان- فقد علّم ﷺ علياً التفسير ودعا لابن عباس فقال: (اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين)[6] .. وعن ابن عباس أنه قال: (كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غسلين وحناناً والأواه والرقيم)[7]، وكان هذا من ابن عباس- بالطبع- في وقت سابق ثم علم ذلك بعد .. وعن مجاهد قال: تعلمونه وتقولون آمنا به،

ينظر إلى أعلم عالم أدركناه في زمانه فلينظر إلى الحسن"، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر الباقر قال: "ذاك الذي أشبه كلامه كلام الأنبياء"، رأى علياً وطلحة وعائشة، وروى عن خلق كثير من الصحابة والتابعين .. التهذيب١/ ٤٨١: ٤٨٥.

(١) الجواب الصحيح٤/ ٧٢ والقرطبي١/ ٢٦

(٢) مسلم ٢٤٦٣ والمعجم الكبير ٨٤٢٩، ٨٤٣٠، ٨٤٣١، ٨٤٣٢ وصفوة الصفوة١/ ٤٠٢.

(٣) ابن جبر أبو الحجاج المخزومي المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من الطبقة الثالثة ت ١٠١ أو ١٠٤ .. التقريب٢/ ٢٢٩ وميزان الاعتدال٣/ ٤٤٠.

(٤) أخرجه وبنحوه الطبري٢/ ٣٩٥ وابن كثير١/ ٥، ٢٦٢ والطبراني في الكبير١١/ ٧٧ والإخلاص٢٥٧.

(٥) ينظر الصواعق ص ١٢٥، والإكليل ص١٨، ١٩.

(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ١٣٨ والحاكم ٦٢٨٠ وأحمد١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥ والطبراني في المعجم الكبير ١١٢٠٤ والأوسط ٤١٧٦.

(٧) أورده ابن قتيبة في مختلف الحديث١/ ١٥٠، ١٥٩ والقرطبي٤/ ١٨ والذهبي في السير٣/ ٣٤٥.

ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا: (ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا)، لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين بل على جهلة المسلمين، لأنهم جميعاً يقولون: (ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا)"، وفيما يشبه المحصلة لما سبق يخلص ابن قتيبة إلى القول بأنا: "لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور"[1].

دحض القول بإدخال الصفات في باب المتشابه وتفنيد نسبته للسلف

وعلى ذلك فإدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك من المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله، كما يقول بكل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم – والكلام هنا لابن تيمية– فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولون ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم، فالكلام على وجهين:

الأول: من قال أن هذا من المتشابه، وأنه لا يفهم معناه، فهؤلاء جعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي، ولا يُعلم أحد من سلف الأمة ولا من أئمته لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية .. ولا قالوا أن الله ينزل كلاماً لا يفهم معناه .. بل تكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره، بل يُبين ويُفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته.

الثاني: أنه إذا قيل هذا من المتشابه، يقال الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله، ونفي علم تأويله ليس نفي علم معناه كما.. في القيامة وأمور القيامة، فالألفاظ التي أخبر الله به عن اليوم الآخر تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، كما

---

[1] تأويل مشكل القرآن ص٧٢، ٧٣.

يشبهها ما أخبر به تعالى من موعود الجنة، فقد أخبر سبحانه أن في الجنة لحماً وعسلاً وخمراً وغير ذلك وهذا يشبه ما في الدنيا لفظاً ومعنى، ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته، وإذا تحقق هذا فيما بين المخلوقات، فأسماء الله وصفاته أولى، وإن كان ما بينهما وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق ولا حقيقته كحقيقته، بل نفي التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفي التشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا[1].

لقد حسم أئمة السلف – فيما سقناه لهم من نصوص – مسألة التفويض بما مفاده عدم جعل آيات الصفات من المتشابه، لتضافر النصوص على ضرورة الوقوف على معانيها .. كما هاجم شيخ الإسلام ابن تيمية مدعي التشابه في آيات الصفات من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم وذكر أن حالهم أشبه بـ"حال أهل البدع والأهواء الذين يسمون ما وافق آراءهم من الكتاب والسنة محكماً وما خالف آراءهم متشابهاً"، وأوضح أن "هؤلاء كما قال الله تعالى: (وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ .. النور/ ٤٧ – ٥٠)، وكما قال: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ .. البقرة/ ٨٥)، وكما قال: (فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .. المؤمنون/ ٥٣).

ذلك أن ادعاء التشابه ودعوى أنه لا يعلمه إلا الله، يستلزم الإعراض عن ذكره وعدم الاشتغال به.

---

[1] ينظر الإكليل ص٢٩: ٣١، ٤٥، والتدمرية ص٣٠: ٣٣ وتفسير سورة الإخلاص ص٢١٧، ٢٤٤، ٢٤٥.

ومما يدل على مخالفة ما عليه مدعي التشابه لما كان عليه السلف، أن أئمة السنة وأخيار الأمة بعد صحب النبي ﷺ - من نحو مالك في الموطأ وكذلك الشافعي وأبو حنيفة وسفيان والليث والثوري-هم الذين نقلوا أحاديث الصفات تلك، وعن هؤلاء الأئمة وأمثالهم أخذت، وهم الذين أدوها إلى الأمة، وما أورد واحد منهم شيئاً منها ولا أودعه في المتشابهات، ويعرف ذلك من له أدنى نصيب من معرفة هؤلاء الأئمة وما نقلوه وصنفوه، والكذب في هذا الكلام أظهر من أن يحتاج إلى بيان[1].

يضاف لما سبق أن ظواهر الشرع كلها تقضي بإثبات الفوقية والعلو له جل وعلا، من ذلك قوله تعالى: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ .. الحاقة/ ١٧)، وقوله: (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. السجدة/ ٥)، وقوله: (تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ .. المعارج/ ٤)، وقوله: (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ .. الملك/ ١٦)، إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤولاً، وإن قيل إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابهاً، لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأنه من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك[2].

ومما يدحض القول بإدخال الصفات في باب المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وأنها مما عناه الله بقوله: (وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ .. آل عمران/ ٧) وأن ماعداها محكم .. ما جاء في صحيح البخاري من قول النبي ﷺ لعائشة:

---

(١) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٥/ ٢٩٦ ومجموع الفتاوى له ٢/ ١٢٦، ٢٦٣.

(٢) ينظر مناهج الأدلة لابن تيمية ص٩٣ واجتماع الجيوش ص١٣١ كما ينظر ابن تيمية السلفي لخليل هراس ص١٥٣، ١٥٤.

(يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله[1] فاحذريهم)[2]، وهذا عام حتى في المحكمات، وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أعظم الشواهد على هذا، فقد بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن، حتى رآه عمر فسأل عمر عن (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا .. الذاريات/ ١)، فقال: ما اسمك؟ قال: عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر وضربه الضرب الشديد[3]، على الرغم من أن سؤاله كان عن آية محكمة وليس عن شيء من الصفات، وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول: (ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ، وبنحو ذلك فعل علي ابن أبي طالب مع ابن الكواء، لما سأله عنها كره سؤاله لما رآه من قصده، لكن علياً كانت رعيته ملتوية عليه ولم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه، هذا لأنهم رأوا أن غرض السائل، ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام، كما قال ﷺ لعائشة: (إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذريهم)، وكما قال تعالى: (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ.. آل عمران/ ٧).

ومما يبين الفرق بين المعنى المطلوب معرفته والوقوف عليه وبين التأويل الفاسد والمذموم والموسوم بالزيغ، أن صبيغاً سأل عن (ٱلذَّٰرِيَٰتِ) وهي ليست من الصفات، فقد تكلم الصحابة في تفسيرها .. و(وَٱلذَّٰرِيَٰتِ) و(ٱلۡحَٰمِلَٰتِ) و(ٱلۡجَٰرِيَٰتِ) و(ٱلۡمُقَسِّمَٰتِ)، فيها اشتباه لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك، إذ ليس في

---

(١) يعني في قوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه.. آل عمران/ ٧).

(٢) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري ٤٥٤٧ ومسلم ٤٧، ٢٦٦٥ وأبو داود ٤٥٩٨ والترمذي ٢٩٩٤ وابن ماجة ٤٧ والدارمي١/ ٥١وينظر الشريعة وشرح أصول الاعتقاد وتفسير ابن كثير والدر المنثور للسيوطي٢/ ٤، ٥

(٣) وردت قصته مع عمر في الطبري٢٦/ ١٨٦القرطبي٤/ ١٤، ١٥ وابن كثير٤/ ٢٣٢، ٢٣٣ والدارمي١/ ٦٦، ٦٧ والبزار١/ ٤٢٣ والسنة للخلال١/ ٢٢٨واعتقاد أهل السنة ١١٣٨، ١١٤٠ والإصابة ٣/ ٤٥٩ وسير أعلام النبلاء١٠/ ٢٩ومعجم البلدان٤/ ١٢٤.

اللفظ ذكر الموصوف، والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر، وكذلك في الجاريات والمقسمات، فهذا وما جاء على شاكلته لا يعلمه إلا الله.

بل يثبت أهل العلم ويقررون في كثير من الأحيان أن آيات الصفات أبين وأوضح وأجلى من آيات الأحكام فقد "تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية ببيانها أهم، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم، وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس وأما آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام.

ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ .. البقرة/ ١٨٧﴾، حتى بُيّن لهم بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. البقرة/ ١٨٦﴾ الآية .. وأيضاً فإن آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة، كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ .. البقرة/ ١٩٦﴾.

فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام فبينته السنة بأنه صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة، ونظائره كثير كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج، وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل"[1].

---

(1) مختصر الصواعق ص ١٧.

ومن هنا كانت كلمة الصحابة- الذين أمرنا أن نأخذ عنهم والذين نقلوا عن النبي ﷺ قوله: (عليكم بسنتي)[1]، وقوله: (لعن الله من أحدث حدثاً)[2]، وقوله: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[3]- على الاتفاق "في توحيد الله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته قولاً واحداً وشرعاً ظاهراً .. إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالى في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنقل إلينا كما نقل سائر الاختلاف، فاستقر صحة ذلك عند خاصتهم وعامتهم حتى أدوا ذلك إلى التابعين لهم بإحسان، فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن لأن الاختلاف كان عندهم في الأصل كفراً"[4].

ويؤكد ابن عبد البر- حافظ المغرب- حقيقة كون الصفات من الأمور المسلم بها لكونها من الوضوح بمكان، فيقول في كتابه (جامع بيان العلم وفضله): "نهى السلف رحمهم الله عن الجدال في الله جل ثناؤه في صفاته وأسمائه، وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر"، ويعلل ذلك بأن الأخير "علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول، للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك لأن الله عز وجل لا يوصف عند الجماعة- أهل السنة- إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه، وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو بإنعام نظر"[5].

وفي معنى ما ذكره ابن عبد البر يقول المقريزي في التأريخ لمسألة الصفات وفي رصد ما دار حولها من جدل ما نصه: "إن القرآن الكريم قد تضمن أوصافاً

---

(1) أخرجه الترمذي٥/ ٤٤ وأبو داود٤/ ٢٠٠ والحاكم١/ ١٧٤: ١٧٧وابن حبان١/ ١٧٩، ١٨٠ وابن ماجة١/ ١٥ وأحمد٤/ ١٢٦ والدارمي١/ ٥٧ والبيهقي في الكبرى١٠/ ١١٤والطبراني في الأوسط ٢٢٥، ٤٤٣ والكبير١٨/ ٢٤٥: ٢٤٩، ٢٥٧.

(2) أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده ٤٢، ٩٧٧وابن حجر في الفتح١٣/ ٢٧٩ وفي مقدمته١/ ١٠٣ والبيهقي في الدلائل لكن بلفظ: من أحدث أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

(3) الحديث وبنحوه أورده البخاري في الصلح٥ ومسلم في الأقضية١٧ وابن ماجة في المقدمة٢ وابن حبان ١/ ٢٠٧ ومسند أبي عوانة٤/ ١٧٠، ١٧١وأحمد٦/ ٢٧٠.

(4) الحموية لابن تيمية ص٤٢.

(5) جامع بيان العلم وفضله ص٣٦٤.

لله تعالى، فلم تثر التساؤل عند واحد من العرب عامة قرويهم وبدويهم، ولم يستفسروا عن شيء بصددها كما كانوا يفعلون في شأن الصلاة الزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهي، وكما سألوه عن أحوال القيامة والجنة والنار وما إليه، ولم يرد في دواوين الحديث وآثار السلف من طريق صحيح ولا سقيم أن أحداً من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم سأل الرسول ﷺ عن معنى شيء مما وصف الله به نفسه في القرآن وعلى لسان نبيه، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله تعالى وساقوا الكلام فيه سوقاً واحداً"[1].

كما يؤكد اقتصار جانب التشابه على ما يتعلق من الصفات بالكيف، ما أورده الإمام الذهبي عن واعظ زمانه منصور بن عمار[2]، فقد كتب إليه بشر المريسي يسأله عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥﴾، كيف استوى؟ فكتب إليه منصور: "استواؤه غير محدود والجواب فيه تكلف ومسألتك عن ذلك بدعة والإيمان بجملة ذلك واجب، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ .. آل عمران/ ٧﴾"، فاستشهاده في مقام الحديث عن الكيف، بالآية الدالة على أن تتبع المتشابه هو دأب الذين في قلوبهم زيغ، دلالة واضحة على أن ما يتعلق بهذا الجانب هو مما استأثر الله بعلمه، وأن ما عدا ذلك هو مما يجب الإحاطة بعلمه والوقوف على معرفته وأن هذا من فقه الآية، وذلك بعينه ما عناه مالك بقوله الاستواء معلوم والكيف مجهول.

ويفاد مما ذكر أن التأويل في الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ .. آل عمران/ ٧﴾، منفي ومثبت، فالمنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله، ونفي علم تأويلها ليس نفياً لعلم معناها المثبت، إنما هو نفي

---

(١) خطط المقريزي٣/ ٣٠٢ ط بولاق لسنة١٢٧٠ .

(٢) "كان منصور- كما جاء في تاريخ بغداد والعلو للحافظ الذهبي ص ١١٤- يضرب به المثل في التذكير وتحريك القلوب، استسقى مرة بالناس فسقوا"، وهذا مما يشهد له- فضلاً عن علو كعبه في العلم وشهرته - بالزهد والورع.

علم حقيقتها وكنهها كما في القيامة وموعود الجنة وسائر ما اختص الله بعلمه كأعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها، أما المثبت فهو بيان ذلك ومعرفة معناه والمقصود منه، والكلام في تأويل آيات الصفات هو فرع عن تأويل الآيات المحكمات، والناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات، فدل ذلك على أن الصفات كلها معلومة فهي من المحكم ولم يغب ويحجب عنا إلا كيفيتها، وهذا هو جانب المتشابهات منها، وعدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه.

وعليه فما ينبغي أن يُتفطن له أن الصفات مثل سائر آيات القرآن لها جانبان:

جانب محكم يتأول ويدخل فيه ما لا مندوحة عن تأويله لأسباب لغوية أو شرعية أو اعتقادية وعليها تأويلات السلف، وهو ما لا يخرج عن ظاهر المعنى وما ورد عنهم من أمثال ما جاء في تفسير ابن عباس لمعنى الاستواء بالعلو والارتفاع، وهذا هو التأويل المقصود من دعائه ﷺ له (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)، فهو مشروع محمود لكونه من باب إيضاح المعنى وإزالة اللبس.

وجانب متشابه: لا يتأول، ويدخل فيه حقيقة وكنه صفاته جل وعلا فتمر بلا كيف، لكون ذلك من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، ونظيرها من غير الصفات ما جاء في قصة صبيغ وسؤاله عن (ٱلذَّٰرِيَٰتِ) .. والنقول المتواترة عن السلف تفيد أنهم كانوا يفهمون معاني الصفات كما يفهمون معاني غيرها من القرآن، أما كنه الرب تبارك وتعالى فأمر لا يحيط به العباد، وتفيد كذلك أن اعتقادهم التفويض في كنه الصفات لم يمنعهم من أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه، كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير لم يلزم منه أن يعرفوا كيفية علمه ولا كيفية قدرته، وإذا علموا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته.

الأمر الثاني: ما جاء في عبارات السلف عن الصفات مما يفيد إمرارها بلا كيف

وما قيل في عبارات السلف الدالة على ترك المعنى وعدم التعرض لتفسير آيات الصفات وأحاديثها، يقال مثله في عبارات (الإمرار) التي تواردت بكثرة على ألسنتهم، ذلك أن الأمر الذي دعا كثيراً من القائلين بالتفويض منذ أن ظهر علم الكلام وحتى زماننا هو- على ما يبدو- ما جاء في نحو قول الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد سالف الذكر لمن سألوا عن أحاديث الصفات: (أمروها كما جاءت)، وفي رواية أخرى لبعضهم بلفظ: (أمضها)[1].. وقول محمد بن الحسن في الأحاديث: "قد روتها الثقات، فنحن نرويها ونؤمن بها"[2] .. وقول سفيان بن عيينة في حديث: (إن الله يحمل السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع)[3]، وحديث (إن الله يعجب أو يضحك ممن يذكره في الأسواق)[4]، وحديث (إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن): "هي كما جاءت نقر بها ونحدث بها"[5]، وقول الزهري من قبل:

"(من الله العلم وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، أمروا أحاديث رسول الله كما جاءت) .. وقول ابن الباقلاني فيما جاء عن استوائه تعالى: (بل

---

(1) العلو ص ١٠٤ ومختصره للألباني ص١٤٢، ١٤٣ ومعارج القبول١/ ١٣٤.

(2) أخرجه اللالكائي في السنة٣/ ٤٣٣ مجلد٢ والذهبي في العلو ص١١٣ وينظر مختصره ص١٥٩.

(3) يعني في إقراره صلى الله عليه وسلم لقول الحبر: (إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على أصبع، والأرضين على أصبع والجبال والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع) وتعجب النبي لذلك وتصديقه له وقراءته لقول الله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .. الزمر/ ٦٧).. الحديث أخرجه وبنحوه البخاري ٤٨١١، ٦٩٧٨، ٦٩٧٩، ٧٠١٣، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣ ومسلم٢٧٨٦ والنسائي في الكبرى٧٧٣٦، ١١٤٥١، ١١٤٥٢ والترمذي٣٢٣٨ والطبراني في الكبير١٠/ ١٠٣٣٥ وأحمد١/ ٣٧٨ وابن مندة في التوحيد واللالكائي في شرح أصول السنة والآجري في الشريعة وغيرهم.

(4) التمهيد لابن عبد البر٧/ ١٤٩ وسير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦٧ وتهذيب الكمال١/ ٥١٤ ومراسيل أبي داود ٧٥.

(5) الصفات للدارقطني ص٧٢ والحجة في بيان المحجة١/ ٤٣٨ وذم التأويل لابن قدامة ص٩ والعلو ص ١١٦ ومختصره ص ١٦٥.

هو مستوٍ على عرشه كما أخبر)[1].. وقول البغوي فيما نقله عن أهل العلم: "نطلقها على ما جاءت.. وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والسنة"[2].

والجواب: أن مقصود (الإمرار كما أخبر وعلى ما جاءت) الذي كثر وروده في عبارات سلفنا الصالح، ليس لمعنى الصفة وإنما هو لحقيقة الصفة وكنهها وكيفية قيامها بذاته تعالى، ليفيد ذلك إثبات صفات المولى سبحانه على ما جاءت به الآيات وعلى النحو اللائق به دون تعطيل أو تكييف أو تحريف أو تشبيه .. يبدو ذلك في قول الله تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .. الشورى/ ١١)،

فإن الله جل وعلا بعد أن نفى أن يماثله شيء، أثبت لنفسه السمع والبصر رغم اتصاف المخلوقين بهما، ولا يعني ذلك إلا أن سمعه وبصره سبحانه وتعالى لا يماثل ولا يشابه سمع المخلوقات وبصرها .. كما يبدو فيما دبجه منصور بن عمار في رده على بشر المريسي- قبحه الله- حين سأله عن قوله تعالى: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥)، فكتب إليه: استواؤه غير محدود والجواب فيه تكلف ومسألتك عن ذلك بدعة والإيمان بجملة ذلك واجب، قال الله تعالى: (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ .. آل عمران/ ٧)[3].

فجوابه عن الاستواء بقوله: (غير محدود)، بيان لنفي الكيف عن استوائه سبحانه، ومن ثم فهو نفي للتأويل الناشئ عن تصور هذا الكيف من نحو تفسيره بالاستيلاء أو الاستقرار إلى غير ذلك مما ابتدعه الجهمية سعياً لإنكار صفات الخالق سبحانه، وفي (علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين) ما نصه: "وفي الرد على هذه الشبهة نقول: إن مثل هذه الأقوال الصادرة عن بعض علماء السلف لا تتنافى مع ما قرروه من الإثبات، لأن مرادهم بمثل هذه العبارات إنما هو ترك الكلام في معنى كيفيتها، لأن معرفة الكيفية لا سبيل إليه

---

[1] الحجة١/ ١٨٠ والإبانة للبغوي وينظر العلو ص١٧٤ ومختصره ص٢٥٨.
[2] شرح السنة للبغوي١٠/ ٦٤.
[3] ينظر معارج القبول للشيخ حكمي ١/ ١٣٧.

فلا بد من اليأس من إدراك كنه الصفة، وهذا أصل معروف لدى علماء السلف، ويؤكد هذا .. أن كل من نُقل عنه مثل هذه العبارات قد نُقل عنه أيضاً القول بالإثبات، ومثال ذلك ما رواه الدارقطني في رسالته (الصفات) بسنده من قول سفيان بن عيينة: (كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل)[1].

وعليه فـ "مراد السلف بقولهم (بلا كيف)، هو نفي للتأويل، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة فيقعون في ثلاثة محاذير، نفي الحقيقة وإثبات التكييف بالتأويل وتعطيل الرب تعالى عن صفته التي أثبتها لنفسه، وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيف ما أثبته الله لنفسه ويقول: كيفيته كذا وكذا حتى يكون قول السلف (بلا كيف) ردًا عليه، وإنما ردوا على أهل التأويل - الذي يتضمن التحريف والتعطيل - تحريف اللفظ وتعطيل معناه"[2].

ولأجل أن مراد أئمة السلف بقولهم: (أمروها)، الرد على النفاة والمعطلة، وبقولهم: (بلا كيف) الرد على المشبهة والمؤولة، كان قولهم: (كَيْفَ يَشَاء) التي وردت في عبارة أحمد والشافعي وغيرهما من نحو ما رواه أبو سليمان الخطابي عن عبد الله بن المبارك[3] من أن رجلاً قال له كيف ينزل؟ قال: "ينزل كيف يشاء"[4]، هو من حسن الفهم والاعتقاد لإفادتها ربط الأمر بالكيفية التي يشاؤها الله سبحانه مما هو خارج عن معقول البشر، ولتضمنها الرد المفحم على الذين ما قدروا الله حق قدره وضربوا له الأمثال تشبيهاً وتعطيلاً وقياساً على

---

(1) علاقة الإثبات والتفويض لرضا بن نعسان ص٦٩ والصفات للدارقطني ص٧٠ وينظر التوحيد لابن مندة ٨٩٥شرح أصول السنة للالكائي٣/ ٤٣١ مجلد٢ رقم ٧٣٦.

(2) اجتماع الجيوش لابن القيم ص٧٧.

(3) ابن واضح الحنظلي أبو عبد الرحمن المروزي الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام، فقيه خراسان صاحب التصانيف النافعة، روى عن الأعمش والثوري وشعبة ومالك والليث وخلق كثير، وعنه ابن عيينة وفضيل وغيرهم، لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه، قال عنه ابن عيينة: "كان فقيهاً عالماً عابداً زاهداً شيخاً شجاعاً شاعراً"، وقال ابن عياش: "ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك وما أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه"، ت١٨٢ ..وفيات الأعيان٣/ ٣٢والتذكرة١/ ٢٧٤ والتهذيب٣/ ٢٤٧.

(4) الأسماء والصفات للبيهقي ص٦٠٩، ٦١١.

محدود فهمهم وإدراك عقولهم، بينا صفات الله تعالى لا تحدها قوانين البشر ولا نواميس الكون، بل له سبحانه العلو المطلق والكيف الذي ليس كمثله شيء، ويدخل في التعرض لمعنى الكيف المنهي عنه قول متأخري المتكلمين ومن شايعهم وسار على نهجهم: "إن الله ليس في السماء ولا على العرش ولا على السماوات ولا في الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا هو متصل بهم".

يقول الإمام أبو بكر محمد بن الحسن القيرواني بعد أن ساق قول ابن جرير وأبي محمد بن أبي زيد والقاضي عبد الوهاب وجماعة من شيوخ الفقه والحديث:

"وأطلقوا على بعض الأماكن أنه فوق عرشه .. وهذا هو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد ولا تمكن في مكان ولا كون فيه ولا مماسة"، ويقول الحافظ الذهبي في تعليقه على ما ذكره الإمام أبو بكر القيرواني في عدم التعرض لمثل هذا: "سلب هذه الأشياء وإثباتها مداره على النقل، فلو ورد شيء بذلك نطقنا به وإلا فالسكوت والكف أشبه بشمائل السلف، إذ التعرض لذلك نوع من الكيف وهو مجهول، وكذلك نعوذ بالله أن نثبت استواءه بمماسة أو تمكن، بلا توقيف ولا أثر، بل نعلم من حيث الجملة أنه فوق العرش كما ورد النص"[1]، ورحم الله أبا حنيفة حين صب لعنته على من فتح هذا الباب وابتدع هذه الطريقة، فقد قال لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام: "لعن الله عمرو بن عبيد، هو فتح على الناس الكلام في هذا"[2].

وهذا كله يعني أن لآيات وأحاديث الصفات جانباً لا يسوغ الخوض فيه، وهو المتعلق بكنه الصفة وكيفية قيامها به سبحانه، وجانباً آخر يجب الوقوف على معرفته لكونه غير منفي المعنى، وما على المؤمن إلا أن "ينظر إلى مولاه من فوق عرشه بقلبه- على حد قول العلامة أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين في بيان أثر العقيدة في قلب المؤمن بها- مبصراً من وجه، أعمى من وجه، مبصراً من جهة الإثبات والوجود والتحقيق، أعمى من جهة التحديد والحصر

---

(1) العلو ص ١٩٠ ومختصره ص ٢٧٩.

(2) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٥٣٢.

والتكييف، فإنه إذا عمل ذلك وجد ثمرته إن شاء الله تعالى، ووجد نوره وبركته، عاجلاً وآجلاً"[1].

وكلامه موافق لما عليه سائر الأئمة الذين نقلنا إجماعهم على الإثبات لمعاني الصفات وذلك بمعرفة معاني ما جاء منها في الكتاب والسنة، وإلا فـ"لو كانت معاني هذه الآيات والأحاديث منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه، فلقد نقل عنهم أنهم كانوا يتعلمون من النبي ﷺ التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع عن تفسير آية، وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية، كقول مالك بن أنس عن معنى قوله تعالى: (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ.. طه/ ٥) وكيف استوى؟ فقال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)، وكذلك ربيعة- أستاذه وشيخه- قبله، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس من أهل العلم من ينكره .. أو ينف العلم بنفس الاستواء لا بكيفيته، لأنه قد ورد عنهم وعن الصحابة أن معناه العلو والارتفاع، وقال بعضهم عبارات أخرى – تصب في نفس المعنى – كلها ثابتة عن السلف"[2].

ويؤكد ابن تيمية هذه الحقيقة فيقرر أن قول ربيعة ومالك (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب) موافق لقول الباقين: (أمروها كما جاءت بلا كيف)، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة ولا ظاهر معناها لأنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبت الصفات، وأيضاً فإن من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج أن يقول (بلا كيف)، فمن قال: (إن الله ليس على العرش) لا يحتاج أن يقول (بلا كيف)[3].

وهذا بالطبع شأن جميع ما وصف الله به نفسه .. وقد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر كتاب (الرد على الجهمية)، وقال الترمذي في سننه:

---

(1) مختصر العلو ص٧٨.

(2) الإكليل لابن تيمية ص ٤٦ وما بعدها بتصرف.

(3) ينظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٤٢ والحموية ص٢٥ والحجة للأصبهاني١/ ٩٢.

"قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال: (كيف؟)"[1]، وهؤلاء أبو داود في سننه وابن ماجة، وكذلك مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهم من أهل الحديث، ساقوا أحاديث الصفات وأمروها كما جاءت ولم يتعرضوا لها بكيف ولا تأويل[2].

فلو كان مراد هؤلاء جميعاً تفويض المعنى في الصفات أو كانوا لا يعتقدون لها معنى، أو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: (أمروها كما جاءت بلا كيف)، إذ قولهم هذا يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه فإنها إنما جاءت ألفاظاً دالة على معانٍ، ولَمَا قالوا: (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول) لأن الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم، ولقالوا: (أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها) أو (أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد) أو (أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقته).

وبذا تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذ (بلا كيف)، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول[3].

يؤيد ذلك .. فضلاً عما سبق ذكره من أن كل من نُقل عنه مثل هذه العبارات نقل عنه أيضاً القول بالإثبات المفضي إلى معرفة الصفات والوقوف على معناها .. ما ذكره صاحب (الحجة في بيان المحجة) الإمام أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني في حق آيات وأحاديث الصفات من "أن مذهب السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها"، وما أفصح عنه من أنه:

"قد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله تعالى، وذهب قوم من المثبتين إلى البحث عن التكييف، والطريقة المحمودة هي الطريقة المتوسطة بين الأمرين، وهذا لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الله تعالى إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات الصفات، وإنما أثبتناها لأن التوقيف ورد بها وعلى

---

(1) سنن الترمذي ٣/ ٥٠وموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية١/ ٢٢وأقاويل الثقات للمقدسي ص ٦١واجتماع الجيوش ص٩٦ والإكليل ص٤٦.

(2) معارج القبول ١/ ١٤٥.

(3) ينظر الفتوى الحموية ص٢٥ ومجموع الفتاوي٥/ ٤١، ٤٢وفتح رب البرية ص٦٣.

هذا مضى السلف، قال مكحول والزهري: أمروها على ما جاءت، فإن قيل كيف يصح الإيمان بما لا نحيط علماً بحقيقته؟ قيل: إن إيماننا صحيح بحق ما كُلفْناه، وعِلمُنا محيط بالأمر الذي ألزِمْناه وإن لم نعرف ما تحتها حقيقة كيفيته، وقد أمرنا بأن نؤمن بملائكة الله ورسله واليوم الآخر وبالجنة ونعيمها وبالنار وعذابها، ومعلوم أنا لا نحيط علماً بكل شيء منها على التفصيل وإنما كلفنا الإيمان به جملة"[1].

وكذلك قال علماء السلف في جميع أخبار الصفات، وعليه فيكون "المراد من قول سفيان .. إنما هو نفي الكيفية، كما نفتها أم سلمة وتابعها مالك وغيره من السلف عندما قالوا في الاستواء إنه معلوم والكيف مجهول"[2].

إزالة اللبس عما ورد في عبارة الإمام أحمد

ومجمل ما يمكن قوله أن "مراد السلف بإمرار الصفات بلا كيف أمران:

الأول أن معنى قولهم (أمروها كما جاءت)، إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعاني، ولا ريب أنها جاءت لإثبات المعاني اللائقة بالله تعالى، ولو كانوا لا يعتقدون لها معنى لقالوا: (أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها) أو نحو ذلك كما سبق أن أشرنا.

الثاني: أن قولهم (بلا كيف) ظاهر في إثبات حقيقة المعنى لأنهم لو كانوا لا يعتقدون ثبوته ما احتاجوا إلى نفي كيفيته، فإن غير الثابت لا وجود له في نفسه فنفي كيفيته من لغو القول .. وأما ما قاله الإمام أحمد في حديث النزول وشبهه: (نؤمن بها ونصدق، لا كيف ولا معنى)، فجوابه: أن المعنى الذي نفاه الإمام أحمد في كلامه هو المعنى الذي ابتكره المعطلة من الجهمية وغيرهم، وحرفوا به نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إلى معانٍ تخالفه، ويدل على ما ذكرنا أنه نفى المعنى ونفى الكيفية ليتضمن كلامه الرد على كلتا الطائفتين المبتدعتين

---

(1) الحجة١/ ١٧٤، ١٧٥وينظر١/ ٢٨٨، وأصول الاعتقاد ٧٣٥ والكلام بنصه نقله ابن تيمية عن الخطابي في رسالته الغنية.

(2) علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين لرضا بن نعسان ص٧٠.

طائفة المعطلة وطائفة المشبهة[1] .. كما يدل عليه قوله فيما أشبه كلامه في حديث النزول وعلى ما جاء في رواية حنبل: (يضحك الله ولا نعلم كيف ذلك)، ولم يقل ولا نعلم معنى ذلك، وقد سبق ذكر نص عبارته التي صرح فيها بـ "أنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن كنا نعلم تفسيره ومعناه"[2]، وكذا الكثير من نصوص كلامه المفصح عن أن هذا هو منهجه الذي لم يخرج فيه عما أجمع عليه السلف الصالح، وفي حقه وفي حق أمثاله يقول صاحب سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:

وكل ما لـه من الصفـات * أثبتـها في محـكم الآيـات
أو صح فيما قالـه الـرسول * فحقـه التـسليم والقبـول
نمـرها صحيـحة كما أتـت * مع اعـتقادنـا لما له اقتـضت
من غيـر تحريف ولا تعطيـل * وغيـر تكييـف ولا تمثيـل
بل قـولنا قـول أئمـة الهـدى * طـوبى لمـن بهديهـم قد اقـتدى[3]

وهو واضح في وجوب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه وأخبرنا باتصافه به في محكم آياته، أو أثبته له رسوله ﷺ فيما صح عنه، وفي أن نقول في ذلك ما ذكره الله تعالى عن الراسخين في العلم حيث قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ *رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ .. آل عمران/ ٧، ٨)، ولا نضرب كتاب الله بعضه ببعض فنتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بل نمرها على ظواهرها كما أتت عن الله تعالى وعن رسوله بنقل العدل عن العدل متصلاً إلينا

---

(1) فتح رب البرية ص٦٣ وينظر تفسير سورة الإخلاص ص٢١٨، ٢٥٠.

(2) وذلك إبان الحديث في هذا المبحث عن أول السببين اللذين حملا من يجهلون طريقة السلف ويغيب عنهم مذهبهم في الصفات إلى القول بالتفويض ص ٨٤.

(3) ينظر هذه الأبيات وشرحها معارج القبول ١/ ٢٧٩، ٢٨٩وما بعدهما.

من غير تحريف لألفاظها كمن نصب لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ .. النساء/ ١٦٤) على المفعولية فراراً من إثبات الكلام له تعالى كما فعله الجهمية، ولا تحريف لمعانيها على ما فعله الزنادقة في تأويلهم نفسه سبحانه بالغير معتبرين الإضافة إليه كإضافة البيت والناقة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومن غير تعطيل للنصوص بنفي ما اقتضته من صفات كمال الله تعالى ونعوت جلاله، فإن نفي ذلك من لازمه نفي الذات ووصفه بالعدم المحض .. ولا تكييف أي تفسير لكنه شيء منها، كأن يقال: استوى على هيئة كذا أو ينزل إلى السماء بصفة كذا أو تكلم بالقرآن على كيفية كذا، ونحو ذلك من الغلو في الدين والافتراء على الله عز وجل واعتقاد ما لم يأذن به ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة، إذ لو كان ذلك مطلوباً من العباد في الشريعة لبينه الله ولأفصح عنه رسوله، ولاسيما أنه صلوات الله عليه لم يدع ما بالمسلمين حاجة إلا بينه وأوضحه .. ولا تشبيه لشيء منها بصفات خلقه على ما اعتقده ودان به أئمة الهدى من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأصحاب الأمهات الست وغيرهم من أعلام المسلمين قديماً وحديثاً ممن قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون.

والفطر السليمة تقضي بما جاء عنهم في هذا وتشهد بعلوه سبحانه، فترى كل من حزبه أمر يرفع يديه إلى العلو ويدعو الله عز وجل، وقد ورد في رفع اليدين في الدعاء أكثر من مائة حديث في وقائع متفرقة، كما في أحاديث القنوت والاستسقاء وحديث دعائه على النفر الذين طرحوا على ظهره الشريف سلا الجزور وهو ساجد وحديث استغاثته ربه ببدر ومناشدته إياه حتى سقط رداؤه وكذا في أحد والخندق وحنين إلخ، وما ذلك إلا لكون ذلك معلوم بالفطر.

يقول أبو الحسن الأشعري في ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث: "وأن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ .. طه/ ٥)، قال: ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله على العرش

لم يرفعوا أيديهم نحو العرش"[1]، ويقول تلميذه أبو الحسن بن مهدي في كتابه (مشكل الآيات): "إنما أمرنا الله برفع أيدينا، قاصدين إليه برفعها نحو العرش الذي هو مستوٍ عليه"[2]، وعن العالم الرباني محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله تعالى قال: "قال لي عبد الله بن طاهر: بلغني أنك لا ترفع رأسك إلى السماء، فقلت: وهل أرجو الخير إلا ممن هو في السماء"[3]، وصح في السنة للالكائي عن ثابت البناني قال: "كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول: (إليك رفعت رأسي يا عامر السماء نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء)"[4].

وفي عبارة الحافظ عثمان بن سعيد[5] الدارمي: أن "هذه الأشياء التي اقتصصنا في هذا الباب قد خلص علم كثير منها على النساء والصبيان - يعني لموافقتها للفطر السليمة التي فطر الله الناس عليها- ونطق بكثير منها كتاب الله تعالى وصدَّقته الآثار عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين، وليس هذا من العلم الذي يشكل على أحد من العامة والخاصة إلا على هذه العميان الملحدة في آيات الله، ولم يزل العلماء يروون هذه الآثار ويتناسخونها ويصدقون بها على ما جاءت حتى ظهرت هذه العصابة فكذبوا بها أجمع وجهلوهم وخالفوا أمرهم خالف الله بهم"[6]، ويقول الإمام العالم أبو محمد بن قتيبة الدينوري صاحب التصانيف الشهيرة في كتابه ت٢٧٦ (مختلف الحديث): "كيف يسوغ لأحد أن يقول إن الله سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع

---

(1) الإبانة ص١٠٥: ١٠٧والعلو ص١٦٠ومختصره ص٢٣٨واجتماع الجيوش ص١١٧ والمعارج ١/ ١٤٧، ١١٨.

(2) العلو ص ١٦٩ ومختصره ص ٢٥٢والمعارج١/ ١٤٨.

(3) العلو ص ١٤٠ ومختصره ص ٢٠٩ ومعارج القبول ١/ ١٤٣.

(4) قال الذهبي في العلو٥٥:إسناده صالح وينظر في شأن ذلك مختصر العلو١٠٠وشرح أصول السنة للالكائي٣/ ٤٠٠ مجلد٢رقم ٦٦٩والعلو لابن قدامة ٥٨واجتماع الجيوش١٠٥والمعارج١/ ١١٨، ١٣١.

(5) ابن صخر صاحب كتابي (النقض على بشر المريسي) و(الرد على الجهمية) والمتوفى سنة٢٨٠، قال عنه أبو الفرات: "ما رأيت مثل عثمان بن سعيد ولا رأى هو مثل نفسه، أخذ الحديث عن يحيى بن معين وابن المديني والفقه عن البويطي والأدب عن ابن الأعرابي فتقدم في العلوم .. كذا في العلوص١٤٤، وهو غير أحمد بن سعيد بن صخر الدارمي من شيوخ البخاري، وغير عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي صاحب السنن المعروف بمسند الدارمي.

(6) الرد على الجهمية ص ٢٨١من عقائد السلف.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ .. طه/ ٥﴾، ومع قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ .. فاطر/ ١٠﴾؟، كيف يصعد إليه شيء هو معه وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه؟، قال: لو أن هؤلاء جميعاً رجعوا إلى فطرتهم وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله عز وجل هو العلي الأعلى وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميها وعربيها تقول إن الله في السماء ما تركت على فطرها"[1].

وفي خبر عن إمام الحرمين ابن الجويني يحكي الذهبي عن أبي الفتح محمد بن علي الفقيه قوله:

"دخلنا على الإمام أبي المعالي ابن الجويني نعوده في مرض موته فأقعد، فقال لنا: (اشهدوا على أني قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح، وأني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور)"، يعني لكونهن مؤمنات بالله على فطرة الإسلام ولم يدرين- على حد ما ذكر الذهبي- ما علم الكلام، ومن كلماته التي ختم بها حياته قوله: "قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً.. وركبت البحر الخضم- كل ذلك في طلب الحق وهو يأمن التقليد- والآن رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الله بلطفه وأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمري على الحق وكلمة الإخلاص وإلا فالويل لابن الجويني"[2]، ومن نظم العلامة أبي الفتح القشيري المعروف بابن دقيق العيد قوله:

---

(1) مختلف الحديث ص٣٤٤ وما بعدها وينظر العلو ص١٤٥ ومختصره ص٢١٦ والمعارج١ / ١٤٤.

(2) ينظر العلو ص ١٨٨ ومختصره للألباني ص٢٧٥، ٢٧٦ وشذرات الذهب١/ ٣٦١، ٣٦٢ وابن الجويني هو عالم الشرق إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيّويه ت ٤٧٨ وقد كان بحراً من بحور العلم في الأصول والفروع يتوقد ذكاء، انشغل ردحاً من الزمن بعلم الكلام ثم رجع عنه وندم ومما أثر عنه في ذلك قوله في وصيته لأصحابه: "لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به، ومما قاله نظماً: "نهاية لإقدام العقول عقال* وغاية آراء الرجال ضلال. وأرواحنا في وحشة من جسومنا * وغاية دنيانا أذى ووبال"، وما أشبه حاله في هذا بحال أبيه فقد ظل هو الآخر حيناً من الدهر متحيراً بسبب تأثره بعلم الكلام الذي تلقاه عن شيوخه، ثم هداه الله بتركه إلى المعتقد الصحيح في فهم الاستواء وسائر الصفات، فما كان منه إلا أن ألف في ذلك رسالة نافعة قدمها نصيحة لإخوانه وهي مطبوعة في المجلد الأول من مجموعة الرسائل المنيرية .. والجويني هو من هو لغة وفقهاً وتفسيراً، ولد في جوين ثم سكن نيسابور ومات بها سنة ٤٣٨ ينظر العلو ١٨٨ ومختصره ٢٧: ٣٢، ٢٧٤: ٢٧٧ .

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا * وسافرت واستبقيتهم في المفاوز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها * وسيرت نفسي في قسيم المفاوز
ولجت في الأفكار ثم تراجع اخـ * تياري إلى استحسان دين العجائز[1]

ولقد دعت هذه الفطرة السليمة والمبرئة من دخن الجهمية ودخل علم الكلام، وغير الملوثة بأفكار الخلف ومقولة متأخري المتكلمين، دعت الجارية السوداء بأن تبادر حين سألت عن الله بمعرفتها بأنه في السماء، وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه وأبو عوانة في مستخرجه عليه والبيهقي في الأسماء والصفات والدارمي في الرد على المريسي وأبو داود والنسائي وابن أبي شيبة وابن أبي عاصم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال:

(كانت لي غنم بين أحد والجوانية[2] فيها جارية لي فأطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة- وأنا رجل من بني آدم- فأسفت فصككتها فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فعظم ذلك عليّ فقلت: يا رسول لله أفلا أعتقها؟ قال: ادعها فدعوتها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله ﷺ، قال: اعتقها فإنها مؤمنة).

يقول شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني ت٤٤٩ شيخ نيسابور في زمانه فيما يمكن استنباطه من هذا الحديث:

"يعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله فوق سبع سماواته على عرشه كما نطق به كتابه، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه، وعرشه فوق سماواته، وإمامنا الشافعي احتج في المبسوط في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة بخبر معاوية بن الحكم، فسأل رسول الله ﷺ عن إعتاق السوداء، فامتحنها ليعرف أهي مؤمنة أم لا، فقال لها: (أين ربك؟)، فأشارت إلى السماء، فقال: (اعتقها فإنها مؤمنة)، حكم بإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية"[3] .. فـ "الكلام- على حد قول

---

(1) وقد ذكرها له الإمام الذهبي وينظر في شأنها العلو ص ١٨٨ وينظر مختصره ٢٧٥، ٢٧٦.

(2) موضع شمال المدينة المنورة.

(3) العلو ص ١٧٩، ١٨٠ وينظر مختصره ص٢٦٥، ٨١، والحديث أخرجه مسلم ٥٣٧ وأبو داود ٩٣٠، ٣٢٨٢، ٣٢٨٤ وابن حبان١٦٥ وأحمد٢/ ٢٩١، ٥/ ٤٤٧، ٤٤٨ والنسائي في الكبرى٥٥٦، ٧٧٥٦، ١١٤٦٥ والطيالسي ١١٠٥ والبيهقي في الأسماء ص٥٧٥ برقم ٤٢١، ٤٢٢ وفي السنن٢/ ٢٤٩، ٢٥٠،

القاضي أبي يعلى بعد أن ذكر حديث الجارية - في فصلين، أحدهما جواز السؤال عن الله سبحانه بـ (أين هو؟)، والثاني جواز الإخبار عنه بأنه في السماء، وقد أخبرنا تعالى أنه في السماء فقال: (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ .. الملك/ ١٦)، وهو على العرش"[1]، يعني بما يفيد حمل هذه الأخبار على ظاهرها على ما دعت به الفطرة، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

ذلك أنه تعالى قد وصف نفسه بصفات كالتي وردت في سورة الإخلاص وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر، وكما في قوله تعالى: (أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ .. البقرة/ ١٠٦، ٢٥٩ الطلاق/ ١٢)، وأنه يحب المتقين والمقسطين والمحسنين، وبمثل قوله: (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ .. الزخرف/ ٥٥)، (وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ .. التوبة/ ٤٦)، (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ .. طه/ ٤٦)، (مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ .. ص/ ٧٥)، (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ .. المائدة/ ٦٤)، (وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ .. الرحمن/ ٢٧)، (يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ .. الأنعام/ ٥٢ الكهف/ ٢٨)، (وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ.. طه/ ٣٩)، إلى غير ذلك، فمن قال: إن ذلك متشابه لا يعرف معناه ويفوض العلم فيه إلى الله، كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح، فإنا نفهم من قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ .. الأنفال/ ٧٥ التوبة/ ١١٥ العنكبوت/ ٦٢ المجادلة/ ٧) معناً، ونفهم من قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ..البقرة/ ٢٠، ١٤٨) معناً ليس هو الأول، ونفهم من قوله: (وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ .. الأعراف/ ١٥٦) معناً، ونفهم من قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ

٢٦٠، ٧/ ٣٨٧، ١٠/ ٥٧ ومالك في الموطأ٢/ ٧٧٦، ٧٧٧والدارمي ١٥٠٢ وفي الرد على الجهمية ٦٠، ٦١ والطبراني في الكبير١٩/ ٣٩٨، ٣٩٩، ٩٤٥، ٩٤٧، ٩٤٨وغيرهم.

[1] العلو ص ١٨٤ ومختصره ص٢٧١ ومعارج القبول ١/ ١٥١.

عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ .. إبراهيم/ ٤٧) معناً، وصبيان المسلمين وكل عاقل يفهم هذا .. فمن لم يقر ويعترف فهو المعطل، وإن أقر ببعضها قيل له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته أو سكت بالتفويض عن إثباته ونفيه، خاصة وأن السمع والعقل دلتا على إثبات هذا وذاك؟.

أما الأول- يعني دلالة السمع - فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير عليّ عظيم، كدلالته على أنه عليم قدير، مستو له يد تليق بذاته ووجه ومجيء ويمين وإتيان وأصابع، ليس بينهما فرق .. وأما الثاني: فالمعنى المفهوم في حقنا يمتنع على الله، فكما أن إرادته ليست من جنس إرادة خلقه فرحمته كذلك ليست من جنس رحمة خلقه، وكذلك محبته واستواؤه ووجهه ويداه، وكل ذلك معلوم بالبديهة[1].

*****

---

(١) ينظر الإكليل ص٣٢: ٣٦.

المبحث الثالث

ما يستلزمه القول بالتفويض في معاني الصفات

أولاً: مقتضى القول بالتفويض

يقتضي القول بالتفويض في معاني الصفات الذي يحلو لمدعي الاتباع لطريقة أهل السنة والجماعة ولما عليه إمام المذهب أبي الحسن الأشعري اعتقاده - ربما لدقة هذا الأمر وعموم البلوى فيه ولجهل الكثيرين بأهميته ولكونه على حد قول الإمام الشافعي مما لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكر- يقتضي ويستلزم التناقض "مع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. الزمر/ ٢٧، ٢٨﴾، وقوله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .. يوسف/ ١، ٢﴾ فقد أخبر أنه إنما أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم، وقال أيضاً:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .. الحشر/ ٢١﴾ فحض على تدبره وفقهه وعقله، كما حث على التذكر به والتفكر فيه ولم يستثن من ذلك شيئاً، بل نصوص متعددة تصرح بعموم ذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ .. محمد/ ٢٤﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا .. النساء/ ٨٢﴾، ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يُتدبر لما تُدُبِّر"[١]، كما أنه لا يكون تعقل ولا تدبر إلا مع العلم بالمعنى.

كما يقتضي ويستلزم أن يكون الله قد خاطب عباده بما لا يفهمون معناه، وأن يكون نبينا محمد ﷺ وجبريل عليه السلام بل وجميع الأنبياء والملائكة لا يعلمون معاني آيات الصفات، وأن يكون الأنبياء أنفسهم قد تكلموا بما لا

---

(١) الإكليل ص ٤٥، ٤٦ بتصرف.

يعقلون، وبعثوا بتبليغ العباد وتكليفهم بما لا يفهمون، وهذا مستحيل حتى على افتراض صحة القول بجعله من متشابه القرآن لأنه إن جاز وجود المتشابه في القرآن أو حتى في سائر كتب الله، فلا يصح وجوده في كلام الأنبياء لكون كلامهم كالشرح لما جاء عن الله، وإن مما يترفع عنه البليغ أن يخاطب الناس بما لا يفهمون، بل بما لا يمكن تعقله، فكيف بالله الذي كلامه أصدق الحديث؟ وكيف برسله الذين أمروا بتبليغ مراده؟ .. ولا يقال إن المقصد اختبار المكلفين، لأنه إن جاز ذلك في الفروع الشرعية لم يجز أن يجري في الأخبار العقدية إذ أن سياق الخبر يمنع من ذلك.

كما يستوجب القول بالتفويض أن يكون الله تعالى قد أنزل نحو مائة آية عبثاً لا تفيد العباد عقيدة ولا ديناً .. وتكليف العباد بما لا يفيدهم أو بفهم ما لا يفهم وأمرهم بالإيمان به، تكليف بالمستحيل وهو ممتنع شرعاً لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها .. البقرة/ ٢٨٦)، بل مستلزم لمشاركة أهل الإيمان أهل الكفر والنفاق لاندراجهم جميعاً تحت قول الله تعالى: (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .. النساء/ ٧٨)، وهذه كلها لوازم شنيعة بإجماع الأمة، ولذلك لا يعذر باعتقادها والتزامها المقلدون، بل يجب عليهم الإيمان بأن مراد السلف الصالح من تلك العبارات المنع من تأويل الصفات وإلزام الناس أن يعتقدوا بمعانيها اللغوية وأن لا يبحثوا عن كيفيات صفات الله التي دلت الآيات عليها، وأن الكيفيات هي وحدها الممنوع من اتباعها والتي يجب أن تكون من المتشابه دون أصل معناها، فإن جميع العباد مكلفون باتباع أصل المعاني المذكورة، وبذلك يمكنهم أن يقصدوا ويتوجهوا إليه سبحانه، إذ الجهل بمعانيها يتنافى مع تعريف العباد بربهم.

ويستلزم القول بالتفويض في معاني الصفات أيضاً استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به .. ولازم قولهم، أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه[1]، وهذا- بالطبع- من المحال لما هو معلوم بداهة أن رغبة الرسول ﷺ في

---

(1) ينظر مختصر الصواعق المرسلة ص٤٠، ٦٢وما بعدهما.

تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، كما أنه من المحال أن يكون ﷺ قد علم أمته كل شيء وقال: (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)، وقال فيما صح عنه أيضاً: (ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم)، ومع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت، ومع قول أبي ذر: (لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً)، وقول عمر فيما رواه البخاري: (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظ ونسيه من نسي) .. ثم يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب.

ومن المحال كذلك أن لا يكون بيان هذا الباب الذي يعد خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية قد وقع منه على غاية التمام، كما أنه من المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه، أو أن يكون أصحاب هذه القرون الفاضلة غير عاملين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما امتناع الجهل وعدم العلم فلأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياة ووعي وطلب للعلم ونهمة في العبادة، إلا أن يكون أكبر همه هو البحث في الإيمان بالله تعالى ومعرفته بأسمائه وصفاته وتحقيق ذلك علماً واعتقاداً، ولا ريب أن القرون المفضلة وأفضلهم الصحابة هم أبلغ الناس في حياة القلوب ومحبة الخير وتحقيق العلوم النافعة.

وأما امتناع كتمان الحق وقول غير الصدق، فلأن كل عاقل منصف عرف حال الصحابة رضي الله عنهم وعرف حرصهم على نشر العلم النافع وتبليغه الأمة، فإنه لن يمكنه أن ينسب إليهم كتمان الحق ولاسيما في أوجب الأمور وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته[1]، وعلى درب الصحابة سار التابعون بإحسان، فقد

---

(1) ينظر الحموية ص٥ وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين ص٢٥.

علموا كذلك أن لو كان أمر الصفات مقصوراً على الإيمان باللفظ المجرد دون فهم لمعناه على النحو الذي يليق بالله لما احتيج لنفي علم الكيفية.

ومن المحاذير التي يقع فيها القائلون بالتفويض في معاني الصفات- ربما دون أن يشعروا بذلك- تزوير حقيقة مذهب السلف في أمر توحيد الله في صفاته وإبطال أحد أصول التشريع الإسلامي من أساسه، وهو الإجماع الذي انعقد عليه السلف والذي ذكرنا له من النصوص ما به تقام الحجة، وهذا يعني بالضرورة تحتم أن تحمل العبارات التي فيها إمرار الصفات على ما ألمعنا، لاستحالة أن يراد بها غير ذلك لما سبق أن نقلناه عنهم، ولما فيه أيضاً من خرق للإجماعات الكثيرة التي سبق أن ذكرناها لهم والتي تنص صراحة على أن مذهب السلف هو الإقرار بالصفات والإمرار لكيفياتها، يقول إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة وذلك فيما نقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات:

"والذي أقوله في هذا الخبر- يعني حديث (من تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[1]- وأشباهه من أخبار الرسول ﷺ المنقولة على الصحة والاستقامة بالرواة الأثبات العدول، وجوب التسليم والانقياد بتحقيق الطاعة وقطع الريب عن الرسول وعن الصحابة النجباء الذين اختارهم الله تعالى له وزراء وأصفياء وخلفاء وجعلهم السفراء بيننا وبينه ﷺ .. والناس ضربان: مقلدون وعلماء، فالذين يقلدون أئمة الدين سبيلهم أن يرجعوا إليهم عند هذه الموارد، والذين منحوا العلم ورزقوا الفهم هم الأنوار المستضاء بهم والأئمة المقتدى بهم، ولا أعلمهم إلا الطائفة السنية"[2].

ومن تيك المحاذير أيضاً، مصادمة قول القائلين بالتفويض للنصوص التي تفيد الإثبات، والتشكيك من ثمّ في صفات الله تعالى، وهذا لا يجوز لأن الشك في صفات الله تعالى يؤدي إلى التشكيك بالموصوف، قال الشيخ مرعي المقدسي في كتابه (أقاويل الثقات في الصفات): "ومن المعلوم أنه عليه السلام كان

---

(1) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري٢٣٨٨، ٤٧٠٥، ٦٩٧٠، ٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧ ومسلم٢٦٧٥، ٢٦٨٦، ٢٦٨٧ والترمذي ٣٦٠٣ والنسائي في الكبرى ٧٧٣٠وابن ماجة٣٨٢١، ٣٨٢٢والحاكم٤/ ٢٧٥ وأحمد٢/ ٢٥١، ٣١٦، ٤١٣، ٥٢٤، ٥/ ١٥٥ وابن حبان٨١١ والبغوي في السنة ١٢٥٢ والصحيحة ٥٨١.

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٦١٥.

يحضر في مجلسه الشريف والعالم والجاهل والذكي والبليد والأعرابي الجافي، ثم لا يجد شيئاً يعقب تلك النصوص مما يصرفها عن حقائقها لا نصاً ولا ظاهراً كما تأولها بعض هؤلاء المتكلمين، ولم ينقل عنه عليه السلام أنه كان يُحذّر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفته لربه من الفوقية واليدين ونحو ذلك، ولا نقل عنه أن لهذه الصفات معانٍ أخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها، ولما قال للجارية: (أين الله؟) فقالت: (في السماء)، لم ينكر عليها بحضرة أصحابه- كيلا يتوهموا أن الأمر على خلاف ما هو عليه- بل أقرها وقال: (اعتقها فإنها مؤمنة)"[1].

ومن لوازم القول بالتفويض في معاني الصفات أنه يؤدي إلى أن يُنسب إلى البدعة كل من خالفه، وفي هذا خطأ فادح وجرم كبير، لأنه فضلاً عما في ذلك من قلب للحقائق فإن فيه تسوية بين من أثبت الصفات وبين من نفاها، وأن يكون عامة الناس جاهلون أيّ الفريقين أصاب السنة والحق، وهذا يؤدي- بالطبع- إلى أن يكذب القرآن وأن يكون الحق باطلاً وتكون السنة بدعة .. بينا أثبت القرآن وأيدت السنة أنه سبحانه:

الأحد الفـــرد القـــدير الأزلي * الصـــــمد البر المهيمــــن العلـــي
علو قـــهر وعلـــو الشـــــان * جل عــــن الأضـداد والأعــوان
كذا لـــه العلـــو والـــفوقيـــة * علـــــى عبـــاده بلا كيـــفية
ومـــع ذا مطلـــع إليهمــــــوا * بعلـــــمه مهيمـــن عليــــهمُ
وذكـــره للقـــرب والمعيـــــة * لـــم ينــف للعـــلو والفوقيـــة
فإنـــه العلـــي في دنـــــــوه * وهـــو القـــريب جل في علـــوه
حـــي وقيـــوم لا ينــــــام * وجـــل أن يشبـــــــهه الأنـــام
لا تبـــلغ الأوهام كنه ذاتـــه * ولا يكيّـــف الحِجـــا صفـاتـه

يعني صاحب (سلم الوصول إلى علم الأصول) أنه تعالى الذي لا ضد له ولا شريك له في إلهيته وربوبيته ولا متصرف معه في ذرة من ملكوته، ولا شبيه له ولا نظير له في شيء من أسمائه وصفاته، فهو أحد في إلهيته لا معبود بحق سواه

---
(1) أقاويل الثقات للمقدسي ص٨٥.

ولا يستحق العبادة إلا هو، ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه، وهو أحد في ربوبيته فلا شريك له في ملكه ولا مضاد له ولا منازع ولا مغالب، أحد في ذاته وأسمائه وصفاته فلا شبيه له ولا مثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. وكما أنه الأحد الفرد في ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فهو المتفرد في ملكوته بأنواع التصرفات من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والخلق والرزق والإعزاز والإذلال والهداية والإضلال والإسعاد والإشقاء والخفض والرفع والعطاء والمنع والوصل والقطع والضر والنفع .. وهو سبحانه الذي له مطلق القدرة وكمالها وتمامها الذي ما كان ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء، الذي ما خلْق الخلق ولا بعْثهم في كمال قدرته إلا كنفس واحدة، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .. الأزلي بذاته وأسمائه وصفاته الذي لا ابتداء لأوليته ولا انتهاء لآخريته، وليس شيء من أسمائه وصفاته متجدداً حادثاً لم يكن قبل ذلك ثم كان، فسائر أسمائه وصفاته أزلية بأزلية ذاته باقية ببقاء ذاته .. وهو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد وتلك صفته التي لا تنبغي إلا له .. وهو البر وصفاً وفعلاً لكونه الصادق فيما وعد .. كما أنه المهيمن الشهيد الرقيب على عباده بأعمالهم.

وهو الذي كل معاني العلو ثابتة له، فعلوه عز وجل علو قهر إذ لا مغالب له ولا منازع وكل شيء تحت سلطان قهره، كما أنه علو شأن لكونه المتعالي عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فقد تعالى في أحديته عن الشريك والظهير والولي والنصير، وتعالى في عظمته وكبريائه وجبروته عن الشفيع عنده بدون إذنه والمجير، وتعالى في صمديته عن الصاحبة والولد والوالد والكفؤ والنظير، وتعالى في كمال حياته وقيومته وقدرته عن الموت والسنة والنوم والتعب والإعياء، وتعالى في كمال علمه عن الغفلة والنسيان وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه في الأرض أو في السماء، وتعالى في كمال حكمته وحمده عن الخلق عبثاً وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهي ولا بعث ولا جزاء، وتعالى في كمال غناه عن أن يُطعَم أو يُرزَق أو أن يَفتقر إلى غيره في شيء، وتعالى في صفات كماله ونعوت جلاله عن التعطيل والتمثيل.

كذا ثابت له بالكتاب والسنة وإجماع الملائكة والأنبياء والمرسلين وأتباعهم على الحقيقة من أهل السنة والجماعة، العلو والفوقية .. فهو جل جلاله كما أنبأ عن نفسه مستو على عرشه عال على خلقه بائن منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه منهم خافية، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى، والفطر السليمة والقلوب المستقيمة مجبولة على الإقرار بذلك لا تنكره .. ولا منافاة بين قربه سبحانه وبين علوه، فإنه المتصف في دنوه بجميع معاني العلو ذاتاً وقهراً وشأناً، فيدنو تعالى من خلقه بكيفية لا يعلمها إلا هو كيف يشاء، وينزل إلى السماء الدنيا في آخر كل ليلة وعشية وغير ذلك كيف يشاء، ويأتي لفصل القضاء بين عباده كيف يشاء، وليس ذلك منافياً لفوقيته ولا لاستوائه على عرشه فإنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وهو جل جلاله قيوم بنفسه قيم لغيره إذ جميع الموجودات مفتقرة إليه لا قوام لها إلا به ولا بدون أمره وهو غني عنها، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه فإن ذلك نقص في حياته وقيوميته .. لا تبلغ الأوهام كنهه ولا حقيقة ذاته لكونه كما قال عن نفسه: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا .. طه/ ١١٠)، ولا يعلم العقل كيفية صفاته لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو، ومن ثم كان الواجب الإيمان بصفات ذاته وصفات أفعاله دون ما فرق، ولا يتأتى ذلك إلا بإثبات معانيها وإمرار كيفياتها في ذات الوقت كما جاءت، واعتقاد أنها حق كما أخبر سبحانه وكما أخبر رسوله ﷺ، وعدم التكييف والتمثيل لأنه تعالى- وكذا رسوله - أخبرنا بأسمائه وصفاته وأفعاله ولم يبين لنا كيفيتها، ومن ثم فليس لنا إلا أن نصدق الخبر ونؤمن به ونكل الكيفية إلى الله كما أسلفنا القول عن أم سلمة رضي الله عنها وربيعة الرأي ومالك بن أنس رحمهم الله تعالى .. وإنا والله لكالون في كيفية سراية الدم في أعضائنا وجريان الطعام والشراب فينا وكيف يدبر الله تعالى قوت كل عضو فيه بحسب حاجته، وفي استقرار الروح التي هي بين جنبينا وكيف يتوفاها الله في منامها وتعرج إلى حيث شاء الله ويردها إذا شاء، وفي كيفية إقعاد الميت في القبر وعذابه ونعيمه، وكيفية قيام الموات من قبورهم

حفاة غرلاً وكيفية الملائكة وعظم خلقهم، كل ذلك نجهل كيفيته ونحن مؤمنون به .. فكيف بالعرش الذي لا يقدر قدره إلا الله .. بل كيف بالخالق عز وجل وأسمائه الحسنى وصفاته العلى[1].

كما أن القول بمبدأ تفويض معاني الصفات ونفيها وعدم إثباتها، هو السبيل الذي ألجأ الملاحدة القدامى من فلاسفة المسلمين إلى إنكار معاد الأجسام في الآخرة لأنهم اعتبروا القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات، إذ بموجب القول بنفي الصفات وعدم إثباتها، "احتج الملاحدة كابن سينا وغيره على مثبتي المعاد وقالوا: القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشبيه والتجسيم، وزعموا أن الرسول ﷺ لم يبين ما الأمر عليه في نفسه، لا في العلم بالله تعالى ولا باليوم الآخر فكان الذي استطابه على هؤلاء هو موافقتهم لهم على نفي الصفات، وإلا فلو كانوا آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت المعارضة ودحضت حجتهم، ولهذا كان ابن النفيس المتطبب الفاضل يقول: (ليس إلا مذهبان مذهب أهل الحديث أو مذهب الفلاسفة، فأما هؤلاء المتكلمون، فقولهم ظاهر التناقض والاختلاف، وأهل الحديث أثبتوا ما جاء به الرسول ﷺ وأولئك جعلوا الجميع تخييلاً وتوهماً، ومعلوم بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء الملاحدة فتعين أن يكون الحق مذهب السلف أهل الحديث)"[2].

ويستلزم القول بالتفويض في معاني الصفات أيضاً ونفي المعرفة لمعاني صفاته تعالى المثبتة، الاستدراك على الله تعالى وتكذيبه لكونه سبحانه الذي "أمر بتدبر كتابه وتفهمه وتعقله وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء لما في الصدور، وحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ومن أعظم الاختلاف اختلافهم في باب الصفات والقدر والأفعال، واللفظ الذي لا يعلم ما أراد به المتكلم لا يحصل به حكم ولا هدى ولا شفاء ولا بيان"[3]، ونفي معاني الصفات المثبتة بهذا فضلاً

---

(1) من شرح أبيات سلم الوصول إلى علم الأصول، في معارج القبول ١/ ٨٧، ١٥٤، ١٥٦ وما بعدها وكلاهما للشيخ حكمي.

(2) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية١/ ١١٩، ١٢٠ وينظر الحموية ص ١٤، ١٩ وعلاقة الإثبات ص٦٢.

(3) مختصر الصواعق المرسلة ص١٢٣.

عن كونه تكذيب لله، هو ضرب لكتاب الله بعضه ببعض، وهو ما حذر صلوات الله وسلامه عليه منه فقال: (لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم)[1]، ولا يخفى ما في اقتراف ما نهى عنه ﷺ من فتنة العامة بل والخاصة.

كما يستلزم ذلك جعل الصفات من المتشابه .. وادعاء التشابه فيها والقول بتفويض معانيها والزعم بأنه لا يعلمها إلا الله، يستلزم هو الآخر "الإعراض عن ذكره وعدم الاشتغال به، وحاشا الله أن يكون في كتابه ما أمر المسلمين بالإعراض عنه وعدم التشاغل به، أو أن يكون سلف الأمة وأئمتها أعرضوا عن شيء من كتاب الله لاسيما الآيات المتضمنة لذكر أسماء لله وصفاته .. فما منها آية إلا وقد روى الصحابة فيها يوافق معناها ويفسروه عن النبي ﷺ، وتكلموا في ذلك بما لا يُحتاج معه إلى مزيد.

وأما قول مدعي أن الصفات من المتشابه والتدليل عليه بـ: (أن أئمة السنة وأخيار الأمة بعد صحب النبي ﷺ لم يودع أحد منهم كتابه الأخبار المتشابهات، فلم يورد مالك في الموطأ شيئاً وكذلك الشافعي وأبو حنيفة وسفيان والليث والثوري ولم يعتنوا بنقل المشكلات) .. فإن هذا الكلام لا يقوله إلا من كان من أبعد الناس عن معرفة هؤلاء الأئمة وما نقلوه وصنفوه، وقوله رجم بالغيب من مكان بعيد، فإنّ نقل هؤلاء الأئمة وأمثالهم لهذه الأحاديث مما يعرفه من له أدنى نصيب من معرفة هؤلاء الأئمة، وهذه الأحاديث عن هؤلاء وأمثالهم أخذت، وهم الذين أدّوها إلى الأمة"[2].

بل إن الادعاء بأن آيّ الصفات هي من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله، مفض إلى الزعم بأن ظواهر هذه النصوص تدل على معنى لا يليق بالله تعالى، وقد قال بهذا طائفة حين نطق قائلهم: بـ "أن هذه المتشابهات- ويعني بها صفات الله تعالى- يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظاهرها، كما يجب

---

(1) السنة لابن أبي عاصم١/ ١٧٧ ولعبد الله بن أحمد١/ ١٣٤ومجمع الزوائد٧/ ٢٢٢ وابن ماجة ٨٥ والترمذي٨/ ٢٩٤، ٢٩٧والمعجم الأوسط ٥١٥، ١٣٠٨، ٢٩٩٥، ٧٠٥٢ ومسند أحمد ٦٦٦٨، ٦٧٠٢، ٦٧٤١، ٦٨٠١، ٦٨٤٥.

(2) الفتاوى الكبرى لابن تيمية٥/ ٢٩٦ بتصرف يسير.

تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض في تفسيرها"[1]، وهذا قول- كما دللنا ولا زلنا- مجانب للصواب.

وفضلاً عن كون القول بالتفويض في معاني الصفات مستلزم لما ذكر، فإنه مستلزم كذلك لأن يكتنفها الغموض والتناقض وأنهما يحيطان بها من كل جانب، ذلك "أن أصحاب التجهيل الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يدرى ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرأها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله .. بنوا مذهبهم على أن هذه النصوص من المتشابه، وأن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فنتج عن هذين الأصلين أن تناقضوا أقبح تناقض فقالوا:

تجري على ظواهرها وتأويلها بما يخالف الظواهر باطل، ومـــــع ذلك فلها تأويـــل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لهـــــا تأويلاً ويقولـــون: تجري على ظواهرها؟ ويقولـــون الظاهر منـــها مراد، والرب منفرد بعــــــلم تأويلها؟"[2].

والحق أن القول بأن آيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما لحق بذلك مما ورد عن الصحب الكرام ومن تبعهم بإحسان، من المتشابه "قول مردود فقد تطرق إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره، إلى بيان المراد بالمتشابه عند قول الله تعالى (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ.. آل عمران٧)، وذكر الأقوال في ذلك عن السلف ولم يذكر أن أحداً من السلف قال بدخول آيات الصفات في قسم المتشابه"[3]، وإن جاز فرضاً عد آيات الصفات من المتشابه فكيف يعقل أن تكون أحاديث الصفات من المتشابه وليس في الأحاديث- على ما تقرر بالإجماع- متشابه؟، وقد رد مؤلف كتاب (إيثار الحق على الخلق) على مدعي ذلك بكلام جيد واعتبر هذا القول غير صحيح، لقول الراسخين في العلم الذي يعلمونه

---

(1) أساس التقديس للرازي ص٦.

(2) مختصر الصواعق ص٦٢ بتصرف وينظر ص١٢٣.

(3) علاقة الإثبات ص٥٣ وينظر هامش الإبانة الصغرى لابن بطة ص٢٦٢.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.. آل عمران/ ٧)، ولذم الله الذين في قلوبهم زيغ بابتغاء تأويله[1].

وقد سبق أن ذكرنا أن "هؤلاء غلطوا في المتشابه، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطئوا في المقدمات واضطرهم إلى هذا، التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين وسدوا على نفوسهم الباب وقالوا: لا نرضى بالخطأ ولا وصول لنا إلى الصواب، فتركوا التدبر المأمور به والتعقل لمعاني النصوص، وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها، وأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف كما جعلها أصحاب التخييل أمثالاً لا حقيقة لها"، في حين "أن الله سبحانه وتعالى أمر بتدبر كتابه وتفهمه وتعقله وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء لما في الصدور، وأنه حاكِمٌ بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومن أعظم الاختلاف اختلافهم في باب الصفات والقدر والأفعال، واللفظ الذي لا يعلم ما أراد به المتكلم لا يحصل به حكم ولا هدى ولا شفاء ولا بيان"[2].

و"من المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير ﷺ الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته، محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملبساً"[3]، وهذا في حد ذاته يؤكد أن في آيات الصفات ما يعلم معناه، وهو ظاهر الصفة وذاك هو الجانب المحكم، وأن ذم السلف إنما وقع على تأويلات الجهمية وعلى خوض الناس في علم كيفيته، كقول مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول)، وكذلك قال سائر أئمة السنة في سائر أسماء الله وصفاته، ففرق بين المعنى المعلوم والكيف المجهول فإن سمي

---

(1) ينظر إيثار الحق على الخلق للصنعاني ص٢٨٢، ٢٨٣ وعلاقة الإثبات ص٥٣.
(2) مختصر الصواعق ص ٦٣، ١٢٣.
(3) الحموية ص٤، ٥.

الكيف تأويلاً ساغ أن يقال التأويل لا يعلمه إلا الله .. وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلاً كما يجعل سائر آيات القرآن تأويلاً فهو من المحكم، وقد جرى علماء السلف على ذلك وما تجرأ أحد أن ينسبهم إلى الضلال أو يخرجهم عن أهل السنة والجماعة"[1].

ويستخلص مما سبق أن القول بالتفويض في معاني الصفات طريق محفوف بالمخاطر، إذ هو معارض لنصوص أهل العلم وإجماعهم على الإثبات ومؤذن بالتشكيك في صفاته سبحانه وهذا مما لا يجوز القول به بحال، كما أن القول بالتفويض مؤد لا محالة إلى نفي الحقائق عن صفات المولى سبحانه وإثبات التكييف بالتأويل، وإلى تعطيل الرب عن صفاته التي أثبتها لنفسه، وإلى عدم معرفة النبي صلوات الله وسلامه عليه ولا الصحابة لمعاني الصفات وأحاديثها .. كما أنه مؤد إلى القول بأن ظواهر هذه النصوص تدل على معانٍ لا تليق بالله تعالى، وفي ذلك ما فيه من تكذيب القرآن ومصادمة النصوص التي تفيد الإثبات، ومن التشكيك كذلك في صفات الله تعالى، وهذا أمر لا يجوز لأنه يؤدي إلى التشكيك بالموصوف .. كما أن القول بالتفويض مستلزم لإبطال إجماع السلف على عدم تفويضهم لمعاني الصفات، وفي ذلك هدم لما استقر عليه أئمة الإسلام من حجية الإجماع إذ من المعلوم أنه أحد أصول التشريع.

ويقتضي القول بالتفويض في معاني الصفات نسبة من خالف القائلين به إلى البدعة .. وهذا أيضاً خطأ جسيم- على ما سبق ذكره - لأن فيه الطعن في معتقد خير القرون من الصحابة وتابعيهم بل والطعن في معتقد الأنبياء والمرسلين .. كما فيه تسوية بين من أثبت الصفات ومن نفاها، بما يعني جعل الحق باطلاً وأن تكون السنة بدعة .. كما تكمن خطورة القول بالتفويض- على ما سبق ذكره أيضاً - في أنه السبيل الذي ألجأ الملاحدة القدامى من فلاسفة المسلمين إلى إنكار معاد الأجساد في الآخرة، لأنهم اعتبروا القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص الصفات في أن كلاً منهما قد شابه التوهيم والتخييل والتشبيه.

---

[1] ينظر الإكليل ص١٩، ٣٠: ٣٢.

وحاصل ما ذكرنا أن التفويض على إطلاقه أو فيما يخص معاني الصفات، ليس مذهب السلف بل هو مذهب مبتدع ومخالف لما عليه السلف الصالح، وأن القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ووصفه به السابقون الأولون، وأن نثبت له تعالى ما أثبتوه من غير تشبيه ولا تفويض في المعنى، لكون هذا يعلمه الراسخون في العلم، ولكونه يمثل الجانب المحكم في معاني صفات الخالق سبحانه، وأن نعلم أن ما وصف الله به نفسه من ذلك حق، ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم بهذا- وهو الرسول ﷺ - أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم وفي التعريف والدلالة والإرشاد، فتفويض معاني الصفات في هذا ابتداع في الدين، وإنما يكون التفويض فيما خفي علينا من كيفيات صفاته سبحانه والخوض في حقيقة كنهها.

ولكون الكلام عن الصفات متفرع عن الكلام عن الذات فإن العبارة الجامعة للصفات في هذا الباب أن يقال في جانبها المحكم: بالإثبات من غير تشبيه ولا تعطيل، وأن يقال في جانبها المنفي أو المتشابه المتعلق بالكيف: آمنا بما قال الله على ما أراده وبما قاله رسول الله على ما أراده، لا نتجاوز القرآن والحديث، فهذا اعتقادنا الذي نتمسك به وننتهي إليه ونسأل الله أن يحيينا عليه ويميتنا عليه وأن يجعله وسيلتنا يوم القيامة بين يديه إنه جواد كريم[1].

ثانياً: موقف السلف فيما استشكل أمره من الصفات واستغلق معناه

كثر القول وتزايد الحديث في كلام السلف- على نحو ما ارتأينا- عن علو الله واستوائه، وعن أن استواءه تعالى على عرشه المراد به علوه وارتفاعه غير معلوم كيفيته، وذلك بإيجاز لسببين أساسيين، أولهما: أن ذلك - فضلاً عن كونه فوق إدراكات العقول والأفهام- هو بالنسبة للمخلوق غيب ولا يعلم

[1] ينظر الفتوى الحموية ص١٦ واجتماع الجيوش ص٦٧ وينظر هامش الحجة١/ ١٦٩.

الغيب إلا الله، وثانيهما: أن الكلام في الصفات متفرع عن الكلام في الذات، فكما لا يشبه الخالق المخلوق في ذاته لا يشبهه في صفاته.

فلأجل ذلك ثبت ورسخ لدى سلفنا الصالح ولدى كل من سار على درب هداهم، أن الاستواء معلوم والعلم بكيفيته معدوم وموكول إليه تعالى وما يعلم تأويله إلا الله، وأنه سبحانه "استوى على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد"[1].

وقد جرت على ألسنة أئمة السلف وتابعيهم بإحسان عبارات تفصح عن أن لا فرق في ذلك بين صفة وأخرى، وأن الأمر على ما أخبر تعالى عن نفسه من "أن له سبحانه وجهاً بلا كيف كما قال: (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .. الرحمن/ ٥٥)، وأن له سبحانه يدين بلا كيف كما قال سبحانه (خَلَقْتُ بِيَدَىَّ .. ص/ ٧٥) وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ.. المائدة/ ٦٤)، وأن له سبحانه عينين بلا كيف كما قال سبحانه: (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا .. القمر/ ١٤)"[2].

يقول أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة: "وكذلك القول فيما يضارع هذه الصفات .. كقول النبي ﷺ: (يضع الجبار فيها قدمه)، وقوله: (إن أحدكم يأتي بصدقته فيضعها في كف الرحمن)[3]، وقوله:

---

(1) الإبانة لإمام المذهب أبي الحسن الأشعري ص٢١ت د/ فوقية حسين محمود.

(2) السابق ص٢٢وينظرالحموية ص٥٥.

(3) ولفظه في مسلم من رواية قتيبة بن سعيد ١٠١٤: (ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله) وبنحوه أخرجه البخاري عن سعيد بن يسار ١٤١٠، ٧٤٣٠ معلقاً وبدون ذكر الكف ومسلم ١٠١٤ كما أخرجه الدارمي ١٦٧٥ وأحمد ٩٤١٣، ٩٥٦١ وابن حبان٢٧٠، ٣٣١٩

(يضع السماوات على أصبع والأرض على أصبع) وأمثال هذه الأحاديث، فإن تدبره متدبر ولم يتعصب، بان له صحة ذلك وأن الإيمان به واجب وأن البحث عن كيفية ذلك باطل"[1].. يقول: "ومن مذهب أهل السنة: الإيمان بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفة الله، كحديث: (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا)[2]، وحديثه ﷺ: (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته)[3]، وحديثه ﷺ: (ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الله عز وجل)،

والنسائي ٧٧٥٩ وفي الكبرى ٢٣٠٤، ٧٧٣٤، ٧٧٣٥ والترمذي ٦٦١ وابن ماجة ١٨٤٢ والبيهقي ١٠/ ٨٧.

(1) الحجة في بيان المحجة٢/ ٢٥٩المجلد١.

(2) الحديث وبنحوه رواه ما يربو عن العشرين نفساً وأخرجه البخاري ١٠٩٤، ١١٤٥، ٥٩٦٢، ٦٣٢١، ٧٠٥٦، ٧٤٩٤ ومسلم ١٦٨: ١٧٢وأبو داود ٥٣١٥والترمذي٧٣٩، ٣٤٩٨وأحمد١/ ٣٤٦، ٣٨٨، ٤٠٣، ٤٦٤، ٢/ ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٢، ٤١٩، ٤٣٣، ٤٨٧، ٥٠٤، ٥٢١، ٣/ ٣٨٣، ٤/ ١٦، ٨١ والنسائي في الكبرى ٧٧٦٨، ١٠٣٩: ١٠٣١٣، ١٠٣١٧: ١٠٣٢١ وفي اليوم والليلة ٤٨٧ وابن ماجة١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٨٩، ١٣٩٠وابن حبان٢١٢، ٩١٩، ٩٢٠والبيهقي في الأسماء ص٦٠٥، ٦٠٦ والدارمي في السنن ١٤٧٩: ١٤٨٢، ١٥٢٣، ١٥٩٩ وفي الرد على المريسي ص١٩، ٢٠والموطأ١/ ٢١٤وابن أبي عاصم في السنة٤٩٢: ٥١٣ والطبراني في الكبير٢/ ١٥٦٦، ٥/ ٤٥٥٧: ٤٥٦٠وابن خزيمة في التوحيد١/ ٨٥: ٩٠، ١٩٥، ٢٩٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣ وابن مندة في التوحيد٨٦٦: ٨٨٤ والآجري في الشريعة ٧٣٩: ٧٦٣واللالكائي في الاعتقاد ٧٤٢: ٧٧٧والدارقطني في النزول وغيرهم.

(3) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري ٢٥٥٩، ٣١٤٨، ٥٨٧٣، ٦٢٢٧ ومسلم٢٦١٢، ٢٨٤١ وأحمد٢/ ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٥١، ٤٣٤، ٥١٩ وابن حبان ٥٦٠٥، ٦١٦٢ والطبراني١٣٥٨٠وابن خزيمة في التوحيد ٢٧، ٣٦، ٤١ والبيهقي في الأسماء٦٤٠وابن أبي عاصم في السنة ٥١٧، ٥١٩ والحميدي وعبد بن حميد في مسنديهما والآجري ٧٦٦: ٧٧٠ وينظر فتح الباري٥/ ٢١٧والصحيحة٨٦٢.

ومع ثبوت صحة الحديث إلا أن ابن خزيمة والإمام مالك وغيرهما قد أنكراه ولا وجه لإنكارهما، وقد ناقش ابن قتيبة التأويلات التي قيلت فيه ثم قال: "والذي عندي- والله تعالى أعلم- أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد"[مختلف الحديث ص١٩٩]، يضاف لما ذكره ابن قتيبة ويعضده، أن المقرر لدى أهل السنة الإمرار كما جاء على الوجه اللائق به تعالى، ومن غير اعتقاد تشبيه، وبهذا يصدق ما ذهبوا إليه من أن جميع صفات الله ليست مماثلة لصفات المخلوقين ومن أنها ثابتة له من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، قال الآجري في الشريعة ٧٧٠: "هذا من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها ولا يقال فيها: كيف؟ ولم؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر كما قال من تقدم من أئمة المسلمين"،كما ينظر تفاصيل ذلك بهامش كتاب الحجة ٢/ ٢٩٨مجلد١وهامش كتاب الصفات للدارقطني للشيخ حماد الأنصاري ص٥٨: ٦٣.

والإيمان بما ورد في القرآن من صفات الله تعالى كاليد والإتيان والمجيء وإمرارها على ما جاءت، لا تكييف ولا تأويل"[1].

وهنا يأتي السؤال الذي مؤداه، ما هو حظ المسلم من معرفة معاني مثل هذه الصفات بعد أن أوكل وفوض جانب الكيف لعلمه تعالى؟ .. والجواب عن ذلك ببساطة، هو اتباع مسلك السلف الصالح الذي يتمثل في:

١ - التسليم والإيمان بها إيماناً مطلقاً .. فذلك مدعاة لإثباتها على الوجه اللائق به سبحانه وعدم الوقوع فيما وقع فيه المعطلة والنفاة من شأن إنكارها ونفيها عن الله تعالى، فقد قال بعض أهل النظر: لا يوصف الله بالصبر ولا يقال صبور، وقال: الصبر تحمل الشيء .. ولا وجه لإنكار هذا الاسم لأن الحديث قد ورد به، وذلك قوله ﷺ فيما رواه مسلم والبخاري واللفظ له عن أبي موسى الأشعري: (ليس أحد - أو قال: ليس شيء - أصبر على أذى يسمعه، من الله عز وجل، إنه ليدعون له ولداً وإنه يعافيهم ويرزقهم)[2]، ولولا التوقيف لم نقله، وقال بعض علماء أهل السنة: معنى الصبور أنه لا يعاجل بالعقوبة[3].. وقال لا يجوز أن يوصف الله بالجمال، منع ذلك ابن فورك في مشكل الحديث ص١٥٧، ١٥٨ .. ولا وجه لإنكار هذا الاسم أيضاً لأنه إذا صح عن النبي ﷺ فلا معنى للمعارضة، وقد صح أنه ﷺ قال: (إن الله جميل يحب الجمال)[4]، فالوجه إنما هو التسليم والإيمان .. قال بعض العلماء: لا يجوز أن يوصف الله بالسخي لأنه لم يرد به نص ويوصف بالجواد لأنه ورد به النص .. قال علماؤنا: يوصف الله بالغضب ولا يوصف بالغيظ، قيل الغيظ بمنزلة الحسرة، وقيل: إنا نغتاظ من

---

(1) الحجة ٢/ ٢٩١ مجلد١.

(2) صحيح مسلم ٢٨٠٤ والبخاري٢٧٤٨، ٦٠٩٩، ٦٩٤٣، ٧٣٧٨وفي الأدب ٣٨٩ والنسائي في الكبرى٧٧٠٨، ١١٣٢٣ وأحمد٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥ وابن حبان٦٤٢ والحميدي٧٧٤ وغيرهم.

(3) فتح الباري١٣/ ٣٠٨ومشكل الحديث لابن فورك ص٢٥٩.

(4) وتمامه: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)، وقد أخرجه وبنحوه مسلم ٩١ وأبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٨، ١٩٩٩وابن حبان ٤٥٦٦، ٥٦٨٠ وابن ماجة٥٩ والحاكم٧٠، ٧٣٦٥ وأحمد ١/ ٤٥١.

أفعالنا ولا نغضب منها .. وقال قوم: لا يوصف الله بأنه يعجب لأن العجب ممن يعلم ما لم يكن يُعلم، واحتج مثبت هذه الصفة بالحديث وبقراءة أهل الكوفة في: (بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ .. الصافات/ ١٢) بضم التاء بدل فتحها، على أنه إخبار من الله عز وجل عن نفسه[١].

وأنكر قوم من الصفات الضحك وهم عامة المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وأولوها بالرضا والرحمة والصفح عن الذنوب، والقول قول السلف لأن ظاهر الأدلة المثبتة لها كحديث مسلم في كتاب الإمارة: (يضحك الله إلى رجلين قتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة، فقاتل هذا في سبيل الله فيقتل فيتوب الله على القاتل، فيقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد)[٢]، لا يستلزم محالاً إلا في نطاق قياس صفة الخالق بصفة المخلوق وهو ما اتفق السلف على بطلانه، وإذا صح الحديث وجب الإيمان به ولم يحل لمسلم رده وخيف على من يرده الكفر، ولا توصف صفته بكيفية ولكن نسلم إثباتاً له وتصديقاً به[٣]، كذا هو في الحجة للأصبهاني .. وفيه أيضاً ما نصه:

"قال علماء السلف: جاءت الأخبار عن النبي ﷺ متواترة في صفات الله تعالى .. نقلها السلف على سبيل الإثبات والمعرفة والإيمان بها والتسليم، وترك التمثيل والتكييف .. فمن جحد صفة من صفـاته بعد الثبوت – أي بعد ثبـوتها بدليـل صحيح من الكتاب والسنة أو أحدهما – كـان بذلك جـاحداً"[٤].

---

(١) منع الخطابي وشريح إطلاق صفة العجب على الله تعالى، وقد رد الفراء – على ما جاء في الأسماء والصفات للبيهقي ص٦٣٤ – وكذا ابن تيمية في الفتاوى٦/ ١٢٣، ١٢٤على من أنكر هذه الصفة، بقراءة أهل الكوفة والمدينة والبصرة (بل عجبتُ) بالضم: أي عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكاً وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون، وهي بالفتح خطاب للنبي عليه السلام، قال الطبري في تفسيره: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، ومما يؤيد المثبتين قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري: (لقد عجب الله عز وجل من فلان وفلانة .. الحديث).

(٢) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري في صحيحه٢٦٧١، ٢٨٢٦ ومسلم ١٨٩٠، ٢٨٩٠ والنسائي٦/ ٣٨ وفي الكبرى ٤٣٧٣، ٤٣٧٤، ٧٧٦٧ وابن ماجة ١٩١ وابن حبان ٢١٥، ٤٦٦٧ والبيهقي٩/ ١٦٥وأحمد٢/ ٢٤٤، ٢٦٤، ٣١٨، ٤٦٤.

(٣) ينظر الحجة للأصبهاني٢/ ٤٥٨مجلد١.

(٤) ينظر السابق١/ ١٦٩.

٢ - الوقوف على ظاهر معناها مع عدم تجاوز ما ورد في القرآن والحديث .. وقد سبق لنا أن ذكرنا ما دبجه أهل العلم وأجمعوا عليه من أن القول الشامل في جميع صفات هذا الباب، أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، لا يتجاوز القرآن والحديث .. والجزم بأن مذهب السلف بهذا، وسط بين التعطيل والتمثيل، وأنهم ما كانوا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ولا ذاته بذواتهم، وما كانوا كذلك ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فيعطلوا بهذا أو ذاك أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء الله وآياته.

وفي معرض الحديث عن قوله ﷺ: (خلق الله آدم بيده وغرس جنة الفردوس بيده .. الحديث)[1]، وقوله: (اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي)[2]، وقوله: (من تقرب إلى شبراً تقربت إليه باعاً)، وقوله: (عجب ربك من شاب ليست له صبوة)[3]، وقوله: (ضحك ربك من قنوط عباده وقرب غَيَرِه)[4] يعني تغيير الحال من عسر ليسر، وقوله: (لا تسبوا الدهر)[5]، وما جاء في الأثر: (لن

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء من طريق عبد الله بن الحارث بلفظ: (خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة الفردوس بيده .. الحديث)، وهو بهذه الرواية مرسل وإسناده ضعيف، وأخرجه أبو نعيم ٢٣ والديلمي في الفردوس من حديث عليّ ٦٧٣ والخرائطي في مساوئ الأخلاق ٤٣١، ٤٣٢ من طريق أبي معشر (نجيح بن عبد الرحمن) وهو ضعيف.

(٢) الحديث وبنحوه أخرجه البخاري ٢٣٨٨، ٦٩٧٠، ٧٥٣٦ ومسلم ٢٦٧٥، ٢٦٨٦ والترمذي ٣٦٠٣ وابن ماجة٣٨٢٢ والنسائي في الكبرى٧٧٣٠وأحمد٢/ ٢٥١، ٤١٣وابن حبان٨١١ وغيرهم.

(٣) حسن لغيره وقد أخرجه أحمد٤/ ١٥١ وأبو يعلي ١٧٤٩ والطبراني في الكبير١٧/ ٨٥٣ وابن أبي عاصم ٥٧١ وابن بطة في الصغرى ٢٤٨ وغيرهم.

(٤) هو عن أبي رزين وتمامه، (فقلت: يا رسول الله، ويضحك الرب؟ فقال: نعم، قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً)، أخرجه البيهقي في الأسماء (باب ما جاء في الضحك) عن وكيع بن حدس، وروي عن عائشة مرفوعاً من طريق خارجة الضبعي ووكيع وخارجة مختلف فيهما، كما أخرجه أحمد٤/ ١١، ١٢ وابن ماجة ١٨١ والدارمي في الرد على المريسي والبيهقي وكذا الدارقطني في الصفات وابن خزيمة في التوحيد ٣٣٧والطيالسي ١٠٩٢والطبراني في الأوسط ٥٣٧١ وفي الكبير ١٩/ ٢٠٧، ٤٦٩وابن أبي عاصم في السنة ٥٥٤وضعه الألباني في (ظلال الجنة).

(٥) وتمامه: (فإن الله هو الدهر) أخرجه البخاري في صحيحه٤٥٤٩، ٧٠٥٣ومسلم٢٢٤٦، ٢٢٤٧ والنسائي في الكبرى ١١٤٨٧وأحمد في مسنده٢/ ١٣٨، ٢٧٢، ٢٧٥، ٤٩١، ٤٩٩والبيهقي٣/ ٣٦٥ وصحح إسناده الحافظ ابن حجر كما أخرجه ابن بطة في الإبانة الصغرى ص٢٤٩ وغيره، ومعنى النهي

نعدم من رب يضحك خيراً)، وما شابه .. جاء في الإبانة الصغرى ما نصه: "فكل هذه الأحاديث وما شاكلها تمر كما جاءت لا تُعارضُ ولا تُضرب بها الأمثـال ولا يواضع فيها القول، فقد رواها العلماء وتلقاها الأكابر منهم بالقبول وتركـوا المسألة في تفسيرها ورأوا أن العلم بها ترك الكلام في معانيها"[1].

٣- التمسك في مثل هذا بمقولتهم: (قراءتها تفسيرها) .. ويعنون بذلك أنها بينة واضحة في اللغة لا يُبتغى لها مضايق التأويل والتحريف، وهذا هو مذهب السلف، مع اتفاقهم أيضاً أنها لا تشبه صفات البشر بوجه، إذ الباري لا مثل له لا في ذاته ولا صفاته[2]، وهي[3] في (الصفات) للدارقطني بلفظ:

"كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل"، وفي محاسن التأويل والفتح وفيما نقله عنه أيضاً أحمد والجيلاني بلفظ: "كل وصف وصف الله تعالى به نفسه في كتابه، فتفسيره قراءته لا تفسير له غيرها، ولا نتكلف غير ذلك فإنه غيب لا مجال للعقل في إدراكه، ونسأل الله تعالى العفو والعافية، ونعوذ به من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام"[4].

وقريب من العبارة سالفة الذكر الواردة عن سفيان بن عيينة أحد أعلام السلف، ما ورد عن الإمام الحافظ أبي زرعة الرازي ت٢٦٤- فيما نقله عنه صاحب الحموية ص٢٩- فقد قال حينما سئل عن معنى قول الله تعالى: (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ .. طه/ ٥): "تفسيره كما تقرأ"، وكذا ما

عن سب الدهر أن من اعتقد أنه الفاعل للمكروه فسبه، أخطأ .. فإن الله هم الفاعل فإذا سببتم من أنزل ذلك بكم رجع السب إلى الله.

(1) الإبانة الصغرى لابن بطة ص٢٤٩: ٢٥٢ وينظر الكبرى في معرض رده على الجهمية.

(2) العلو ص ١٨٣ ومختصره ص ٢٧٠.

(3) أعني مقولتهم سالفة الذكر.

(4) عقائد السلف ص٥٧١ عن محاسن التأويل للقاسمي وينظر الصفات للدارقطني ص٧٠ وشرح أصول السنة للالكائي٣/ ٤٣١ مجلد٢ والعلو ص١٨٣، ١٩٢ ومختصره ص٢٧٠، ٢٨٢ وفتح الباري ١٣/ ٣٤٥ والمعارج١/ ١٥٢ وعلاقة الإثبات ص٦٩.

ورد عن العلامة أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي ت ٢١٩هـ[1] في قوله: "ما نطق به القرآن والحديث مثل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .. المائدة/ ٦٤)، ومثل قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ .. الزمر/ ٦٧)، وما أشبه ذلك من القرآن والحديث، لا نزيد فيه ولا نفسره"[2].

٤- الاعتقاد بعدم الحاجة أصلاً لتفسير معانيها لورودها وفق لغة العرب .. ويعني ما سبق، أن سلفنا الصالح- مع عدم خوضهم في كيفية اتصاف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله- لم يكونوا في حاجة لتفسير معاني ما استشكل من الصفات أو استغلق مرامه، لأنها ظاهرة وواردة كسائر الصفات الخبرية وفق لغة العرب .. ويشهد لهذا قول مالك لما سأله سائل عن الاستواء: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)، وقبله في ذلك ربيعة أستاذه وشيخه، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس من أهل العلم من ينكره أو ينف العلم بنفس الاستواء لا بكيفيته، لأنه قد ورد عنهم وعن الصحابة أن معناه العلو والارتفاع .. كما يشهد لما ذكرنا ما نقل عن أحمد بن نصر الخزاعي الشهيد ت٢٣١ قال: "سألت سفيان بن عيينة عن حديث النبي ﷺ (إن الله يضع السماوات على أصبع)، وحديث (إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن)، وحديث (إن الله يعجب ويضحك)، فقال سفيان: هي كما جاءت نقر بها ونحدث بلا كيف"[3].

ويشهد له كذلك أنهم- عليهم من الله سحائب الرحمة والرضوان- كانوا يسوقون الصفات سوقاً واحداً من غير تفريق بينها، خلافاً لما جنح إليه المتكلمون من معتزلة وأشاعرة وغيرهم ممن دار تعاملهم مع الصفات ما بين تفويض لمعانيها أو تأويل لها كتأويل الاستواء بالاستيلاء والمحبة بإرادة الخير

---

(1) القرشي الأسدي مفتي أهل مكة وعالمهم بعد شيخه سفيان بن عيينة حدث عنه البخاري والكبار.

(2) يعني تفسيراً يخرجه عن ظاهر معناه من نحو ما ابتكره المعطلة وفعله المؤولة من تفسير للصفات على خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون.

(3) الحجة ١/ ٤٣٨ وينظر ١/ ٤٣٧ والحموية ص٢٩.

والغضب بإرادة الانتقام .. إلخ[1]، وذلك لأنهم يرون أن إثباتها تشبيه لله بخلقه وقد كانوا لذلك- ولا يزال أضرابهم- يسمون السلف من المحدّثين، مجسمة ومشبهة وحشوية على الرغم من تلاعبهم بالنصوص وتأويلها بتأويلات لا تقرها اللغة ولا يقبلها العقل السليم، وقد تصدى علماء السلف- بفضل الله وكرمه- لتفنيد شبه أولئك المتكلمين وإبطالها بما فيه الكفاية، فليرجع لمصنفاتهم من أراد لنفسه السلامة والنجاة ففيها الغنية.

٥- السكوت وترك السؤال عن غوامض تيك المعاني لا لكون ذلك تفويضاً ولا لكونه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، ولكن تيمناً بما كان عليه الأولون ولعدم ورود السؤال عنها عن السلف ولكي تتربى القلوب على أن يسعها في ذلك ما وسعهم[2]: وقد نص الإمام مالك على هذا في حق ما هو بيّن

---

(١) ينظر الإرشاد للجويني ص١٦٠ والاقتصاد ص٥٢ : ٥٨ وغاية المرام للآمدي ص١٢٨.

(٢) وفرق بين سكوت يؤمن معتقده بأن معاني صفات الله محكمة وعلى الحقيقة، لثبوتها له سبحانه – كتاباً وسنة وإجماعاً – على النحو اللائق به، ولكون معانيها من الوضوح بمكان، ولمجاراتها على مقتضيات اللغة والشرع في اتصافه تعالى بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في إطار ما جاء في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، ويقول به صاحبه نائياً بنفسه عن اعتقاد أن معاني صفاته تعالى متروكة أو ملغزة أو مستغلقة، ومنزهاً الله في ذاته وأسمائه وصفاته عن التعطيل والتأويل والتشبيه والتمثيل والتجسيم، وعن تفويض لم ترد حتى لفظته عن سلف الأمة ومستلزم لاستجهال الأنبياء وأتباعهم ومفض إلى القول بجعل آيات وأحاديث الصفات – وما أكثرها – بلا تفسير ولا مضمون ولا معرفة لمراد الله منها .. وبين سكوت مذموم يروم معتنقه جعل صفات الله من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، ويقصد إليه عندما يعجز المتأولون عن صرفها – على سبيل التبرع – عن حقيقتها الموضوعة لها في اصطلاح الشرع إلى معان مجازية، كذا بلا دليل يسيغ هذا الصرف ولا قرينة تمنع من حمل تيك الصفات على حقيقتها أو تخرجها عن ظاهر معناها إلى المجاز .. وقد يرد على هذا، الاحتجاج بتفسير وعدم السكوت عن نحو الاستواء بـ (علا) و(ارتفع)، وجوابه هو أنهم هنا آثروا عدم السكوت تحرزاً عن اتصافه تعالى بالمعاني التي لا تليق به مما قد تستلزمها هذه الصفة المثْبتَة من مثل الصعود والاستقرار والاستيلاء، وتنزيهاً له أيضاً عن اتصافه بما يقابلها من مثل الهبوط والانحدار والإرداف والسقوط إلى غير ذلك مما يجب تنزيه الله عنه، آية ذلك أن ما يقابل

ومنقول معناه عن السلف وذلك حين أجاب سائله عن معنى الاستواء قائلاً: (والسؤال عنه بدعة) .. فلأن يكون في حق ما هو دون ذلك مما غمض من باب أولى، يقول الخطابي في حديث أبي سعيد الخدري الذي يقول فيه ﷺ (يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً): "وهذا الحديث مما قد تهيب القول فيه شيوخنا فأجروه على ظاهر لفظه ولم يكشفوا عن باطن معناه، على نحو مذهبهم في التوقف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب"[1].

و"قال أحد علماء السنة- في موقف السلف في نحو صفات المجيء واليمين والنفس- حرام على الخلق أن يكيفوه وعلى الضمائر أن تضمر فيه غير المنقول، وحرام على النفوس أن تتفكر فيه وحرام على الفكر أن يدركه، وحرام على كل أحد أن يصفه إلا بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ في أخباره الصحيحة عند أهل النقل والسلف المشهورين بالسنة المعروفين بالصدق والعدالة، وجميع آيات الصفات التي في القرآن والأخبار الصحاح التي نقلها أهل الحديث، واجب على جميع المسلمين أن يؤمنوا بها ويسلموا بها ويتركوا السؤال فيها وعنها لأن السؤال عن غوامضها بدعة"[2].

وهذا النص فيما يبدو هو من كلام إمام الشافعية في وقته والذي إليه- على حد قول الذهبي- المنتهى في معرفة المذهب أبي العباس بن سريج ت ٣٠٦ وتمامه: "حرام على العقول أن تمثل الله سبحانه وتعالى وعلى الأوهام أن تحده وعلى الظنون أن تقع وعلى الضمائر أن تعمق وعلى النفوس أن تفكر وعلى

العلو والارتفاع مما يليق اتصافه تعالى به – وهو النزول – قد ورد اتصافه به في صحيح السنة، أما ما لم يرد تفسيره فحسبنا في إثباته – حتى ننزهه تعالى عن سائر صفات المخلوقات – قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٨٥ والحديث وأوله: (هل تضارون في رؤية الشمس) وبنحوه، رواه البخاري ٤٥٨١، ٤٩١٩، ٧٤٣٩ ومسلم١٨٣ وعبد الله بن أحمد في السنة٢/ ٥٢٠- ٥٢٤ والطبراني في الكبير٩/ ٣٥٧، ٩٧٦٣ والحاكم٤/ ٥٨٩ والدارقطني في الرؤية ١٦٧١ وصح عن أبي هريرة مرفوعاً انظر الصحيحة ٥٨٤.

(2) الحجة للأصبهاني ٢/ ٤٦٨ مجلد١ بتصرف يسير وينظر ذم التأويل لابن قدامة ص١٠.

الأفكار أن تحيط وعلى الألباب أن تصف إلا ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وقد صح وتقرر واتضح عند جميع أهل الديانة والسنة والجماعة من السلف الماضين والصحابة والتابعين من الأئمة المهتدين الراشدين المشهورين إلى زماننا هذا، أن جميع الآي الواردة عن الله تعالى في ذاته وصفاته، والأخبار الصادقة الصادرة عن رسول الله ﷺ في الله وفي صفاته التي صححها أهل النقل وقبلها النقاد الأثبات، يجب على المرء المسلم المؤمن الموفق، الإيمان بكل واحد منها كما ورد، وتسليم أمره إلى الله سبحانه وتعالى كما أمر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ .. البقرة/ ٢١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ .. الفجر/ ٢٢) وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.. طه/ ٥) وقوله تعلى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ .. الزمر/ ٦٧) ونظائرها مما نطق به القرآن كالفوقية والنفس واليدين والسمع والبصر والكلام والعين والنظر والإرادة والرضى والغضب والمحبة والكراهة والعناية والقرب والبعد والسخط والاستحياء والدنو كقاب قوسين أو أدنى وصعود الكلام الطيب إليه وعروج الملائكة والروح إليه ونزول القرآن منه وندائه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقوله للملائكة وقبضه وبسطه وعلمه ووحدانيته وقدرته ومشيئته وصمدانيته وفردانيته وأوليته وآخريته وظاهريته وباطنيته وحياته وبقائه وأزليته وأبديته ونوره وتجليه والوجه وخلق آدم عليه السلام بيده، ونحو قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.. الملك/ ١٦) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ .. الزخرف/ ٨٤)، وسماعه من غيره وسماع غيره منه وغير ذلك من صفاته المتعلقة به المذكورة في الكتاب المنزل على نبيه ﷺ.

وجميع ما لفظ به المصطفى ﷺ من صفاته كغرسه جنة الفردوس بيده وشجرة طوبى بيده وخط التوراة بيده، والضحك والتعجب، ووضعه قدمه على النار فتقول قط قط، وذكر الأصابع والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا ... وكغيرته وفرحه بتوبة العبد واحتجابه بالنور[1] وبرداء الكبرياء، وأنه ليس بأعور[2] وأنه يعرض عما يكره ولا ينظر إليه[3] وأن كلتا يديه يمين، واختيار آدم قبضه اليمنى[4] وحديث القبضة، وله كل يوم كذا وكذا نظرة في اللوح

---

(1) وذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (خلق الله تبارك وتعالى أربعة أشياء بيده: العرش وجنات عدن وآدم والقلم، وقال لسائر الخلق كن فكان، واحتجب من الخلق بأربعة: بنار وظلمة ونور وظلمة)، صحيح على شرط مسلم رواه عبد الله بن عمر وأخرجه الحاكم في المستدرك٢/ ٣١٩ والدارمي في الرد على المريسي ص١٧٢ والآجري في الشريعة ص٣٠٣ وأبو الشيخ في العظمة٢/ ٥٧٨ والبيهقي في الأسماء ٦٩٣ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٧٣٠ وقال الذهبي في العلو: إسناده جيد .. وقوله: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره من خلقه)، وقد أخرجه وبنحوه ابن حبان ٢٦٦ومسلم ١٧٥، ١٧٩، ٢٩٣ وابن ماجة١٩٥، ١٩٦ وأحمد٤/ ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٥ وأبو يعلي ٧٢٦٢وغيرهم، قال الفراء: "إننا نثبت حجاباً لا يفضي إلى التناهي والمحاذاة والمماسة كما أثبتنا رؤيته .. وقوله: (حجابه النور) صريح في الإضافة، وأما قوله: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .. المطففين/ ١٦) فلسنا نمنع أن يكون الخلق في حجاب عن ربهم، ولا نمنع أن يكون دونه حجاب من نور لورود الشرع بذلك، فليس في الآية ما ينفي ذلك"، كذا في هامش الأسماء للبيهقي ٤٥٢عن (إبطال التأويلات) ص٢٧٥.

(2) الحديث وبنحوه في البخاري ٧٤٠٨ ومسلم ٢٩٣٣والترمذي٤/ ٥٠٨، ٥١٤، ٥١٦ وأبو داود ٤٣٢٠ وأحمد٣/ ٢٩٢، ٥/ ٣٢٤، ٤٣٤، ٤٣٥ والحاكم١/ ٢٤والطبراني١١/ ١٧١٢، ١٧١٣، ١١٧١١.

(3) على ما في نحو حديث: (وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) وقد أخرجه البخاري ٦٦، ٤٦٢ ومسلم٢١٧٦ والترمذي٢٧٢٤والنسائي في الكبرى ٥٩٠٠، ٥٩٠١وابن حبان ٨٦ والبيهقي في الكبرى٣/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤والموطأ٢/ ٩٦٠ والطبراني في الأوسط٤/ ٢٩ والكبير٣/ ٢٩٤، ٣٣٠٨ وأحمد ٢١٩٥٧.

(4) الحديث بتمامه: (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح، عطس، فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم، وقال له: يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة فقل السلام عليكم، فذهب، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك وبنيهم، فقال الله له – ويداه مقبوضتان – اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا هي آدم وذريته .. الحديث)، أخرجه البخاري في صحيحه مختصراً ٣٣٢٦، ٦٢٢٧ ومسلم ٢٨٤١ وابن أبي عاصم في السنة ٢٠٦ وأخرجه بتمامه الترمذي ٣٣٦٨، ٣٣٦٩وابن حبان٦١٦٧ والحاكم١/ ١٣٢ وابن خزيمة في التوحيد ٨٩ وابن حبان ٦١٦٧ والحاكم١/ ٦٤، ٤/ ٢٦٣والنسائي في الكبرى ١٠٠٤٦والبيهقي١٠/ ١٤٧وفي الأسماء باب ما ذكر في اليمين والكف.

المحفوظ[1] وأنه يوم القيامة يحثو ثلاث حثوات من جهنم فيدخلهم الجنة[2]، و(لما خلق آدم عليه الصلاة السلام مسح ظهره بيمينه فقبض قبضة فقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي أصحاب اليمين، وقبض قبضة أخرى وقال هذه للنار ولا أبالي أصحاب الشمال، ثم ردهم في صلب آدم)[3]، وحديث القبضة التي يخرج بها من النار قوماً لم يعملوا خيراً قط عادوا حمماً فيلقون في نهر من الجنة يقال له نهر الحياة[4]، وحديث (خلق آدم على صورته)، وقوله: (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن).

وإثبات الكلام بالحرف والصوت وباللغات وبالكلمات وبالسور، وكلامه تعالى لجبريل والملائكة ولملك الأرحام وللرحم ولملك الموت ولرضوان ولمالك ولآدم ولموسى ولمحمد ﷺ وللشهداء وللمؤمنين عند الحساب وفي الجنة، ونزول القرآن إلى سماء الدنيا وكون القرآن في المصاحف و(ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن)[5]، وأن (الله سبحـــانه يحب العطـاس ويكره التثاؤب)[6] وفرغ الله من الرزق والأجل، وحديث ذبح الموت ومباهات الله تعالى، وصعود الأقوال والأعمال والأرواح إليه، وحديث معراج الرسول ﷺ

---

(1) والوارد في قوله: (إن الله عز وجل لوحاً محفوظاً من درة بيضاء .. ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة .. إلخ)، أخرجه الحاكم٢/ ٤٧٤، ٥١٩ وإسناده ضعيف ويراجع في شأن ضعفه اللآلئ المصنوعة١/ ٢٥ وضعيف الجامع ١٦٠٨.

(2) وذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل واحد سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي)، رواه وبنحوه أحمد٥/ ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٨والترمذي ٢٤٣٧ وابن ماجة ٤٢٨٦وابن حبان ٦٤٥٧والطبراني في الكبير٧٥٢٠، ٧٦٦٥، ٧٦٧٢.

(3) الحديث وشواهده أخرجه البخاري ٤٥٩٦ومسلم ٢٦٤٩ مالك في المؤطأ٢/ ٨٩٨، ٨٩٩ وأبو داود ٤٧٠٣، ٤٧٠٤ والترمذي ٣٠٧٥ والنسائي في الكبرى ١١١٩٠ وأحمد١/ ٤٤، ٤٥، ٢٧٢، ٤/ ١٧٦، ١٨٦ وابن أبي عاصم في السنة ١٩٦ وابن حبان ٣٣٣، ٣٣٨، ٦١٦٦ والطبراني في الكبير٢٢/ ٤٣٤، ٤٣٥ وهو في مجمع الزوائد٧/ ١٨٥، ١٨٨.

(4) الحديث وبنحوه أخرجه أحمد ٢٧٥٢٨ وابن أبي عاصم في السنة ١٠٥٩ والديلمي في الفردوس ٥٢٩٠ والإبانة الكبرى١/ ٤٣٠.

(5) أخرجه وبنحوه كل من البخاري٧١٠٥وفي أفعال العباد ص ٦٧ومسلم٧٩٢ وأبو داود١٤٧٣ والنسائي ٢/ ١٨٠وفي الكبرى١٠٩٠ والبيهقي٣/ ١٢، ١٠/ ٢٢٩ وابن حبان٧٥٢والدارمي١٤٨٨، ١٤٩٧ وغيرهم.

(6) أخرجه البخاري ٣١١٥، ٥٨٦٩، ٥٨٧٢ والنسائي في الكبرى ١٠٠٤٢: ١٠٠٤٤ وأبو داود ٥٠٢٨ والترمذي ٧٤٧٤وأحمد٢/ ٤٢٨وابن حبان٥٩٨والحاكم٤/ ٢٩٣، ٢٩٤والبيهقي٢/ ٢٨٩.

ببدنه وبيان نفسه ونظره إلى الجنة والنار وبلوغه العرش إلى أن لم يكن بينه وبين الله تعالى إلا حجاب العزة، وعرض الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام وعرض أعمال الأمة عليه، وغير هذا مما صح عنه ﷺ من الأخبار المتشابهة الواردة في صفات الله- سبحانه- ما بلغنا وما لم يبلغنا مما صح عنه.

اعتقادنا فيه وفي الآي المتشابهة – يعني من ناحية الكيف – في القرآن أن نقبلها ولا نردها ولا نتأولها بتأويل المخالفين ولا نحملها على تشبيه المشبهين ولا نزيد عليها ولا ننقص منها ولا نفسرها – تفسيراً يخرجها عن ظاهر معناها كما كان يفعل أتباع جهم – ولا نكيفها، ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية، ولا نشير إليها بخواطر القلوب ولا بحركات الجوارح، بل نطلق ما أطلقه الله عز وجل ونفسر ما فسره النبي ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة، ونُجمع على ما أجمعوا عليه ونمسك عما أمسكوا عنه ونسلم للخبر الظاهر والآية الظاهر تنزيلها، لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة، بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول الإيمان بها واجب والقول بها سنة وابتغاء تأويلها بدعة"[1].

ثالثاً: كلامهم في ذم الخوض فيما سكت عنه الأوائل

والحق أن الكلام في ذم بدعة الخوض فيما سكت عنه الأولون وفي ذم أهل الابتداع وأرباب الكلام في عدم السكوت عما سكت عنه سلف هذه الأمة أكثر مما يحصى، وحسبنا ما أورده الأصبهاني بسنده عن أنس: (إياكم والبدع)، فقيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: (أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان) .. وما أورده بسنده عن الشافعي: (لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط، ولأن يبتلى المرء بما نهي عنه خلا الشرك بالله خير له من

---

(١) اجتماع الجيوش ص ٦٢- ٦٤ بتصرف يسير وينظر العلو ص١٥٢، ١٥٣ ومختصره ص ٢٢٦، ٢٢٧.

أن يبتلى بالكلام)[1] .. وما أورده كذلك بسنده عن نوح الجامع[2] قال: قلت لأبي حنيفة ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام والأعراض والأجسام فقال مقالة الفلاسفة؟ فقال: (عليك بالآية وطريق السلف وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة)[3].

يقول الشيخ الإمام ابن مندة[4]: "أنكر السلف الكلام في الجواهر والأعراض، وقالوا: لم يكن على عهد الصحابة والتابعين- رضي الله عن الصحابة ورحم التابعين- ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه، أو يكونوا سكتوا عنه وهم غير عالمين به فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموه والحديث الذي ذكرنا- يعني به حديث عائشة: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)- يقتضي أن ما تكلم فيه الآخرون من ذلك ولم يتكلم فيه الأولون يكون مردوداً"[5].

وبعد ذكره لصفات المجيء واليمين والنفس والإتيان واليدين والاستحياء والدنو والتجلي والوجه والقدم والقهر والمكر[6] وغير ذلك مما ذكر الله في كتابه، وما ذكره رسوله ﷺ من أخباره مثل قوله: (خلق الله جنة عدن بيده وغرس

---

(1) ينظر الحجة١/ ١٠٤، ٢٠٧ واللالكائي في شرح السنة ١٤٥ وابن بطة في الإبانة الكبرى٢/ ١٩٠ وابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه ص١٨٢، ١٨٥.

(2) هو نوح بن أبي مريم أبو عصمة المروزي القرشي، وعرف بالجامع لجمعه العلوم، لكن كذبوه في الحديث وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث، من السابعة ت١٧٣ .. التقريب٢/ ٣٠٩.

(3) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ١٠٥.

(4) هو الإمام محدث الشرق أبو عبد الله محمد بن إسحاق الأصبهاني العنبري صاحب كتب (التوحيد) و(الإيمان) و(الرد على الجهمية) وهي من أجل الكتب في أمور الاعتقاد ت٣٩٥.. التذكرة ٣/ ١٠٣١: ١٠٣٦.

(5) الحجة للأصبهاني١/ ١٠٠.

(6) يعني الوارد ذكره في نحو قول الله تعالى: (وجاء ربك .. الفجر/ ٢٢)، وقوله: (والسموات مطويات بيمينه .. الزمر/ ٦٧)، وقوله: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك .. المائدة/ ١١٦)، وقوله: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام .. البقرة/ ٢١٠)، وقوله: (لما خلقت بيدي .. ص/ ٧٥)، وقوله: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها .. البقرة/ ٢٦)، وقوله: (ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى .. النجم/ ٨، ٩)، وقوله: (فلما تجلى ربه للجبل .. الأعراف/ ١٤٣)، وقوله: (ويبقى وجه ربك .. الرحمن/ ٢٧)، وقوله: (يوم يكشف عن ساق .. القلم/ ٤٢)، وقوله: (وهو القاهر فوق عباده .. الأنعام/ ١٨)، وقوله: (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .. الأنفال/ ٣٠).

شجرة طوبى بيده وكتب التوراة بيده)[1]، و(ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيـــــا)، وغيرة الله تعالى[2] وفرحته بتوبة عبده[3]، واحتجابه برداء الكبرياء[4]، (وكلتـــا يديه يمين) وحـــديث القبضة[5] والحثيات، ونظرتـــه إلى قلب

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء ص٤٥١ من طريق أنس ولفظه: "خلق الله تعالى جنة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي، فقالت: (قد أفلح المؤمنون)"، وهو ضعيف وأخرجه ابن عدي في الكامل٦/ ٣٢٩ والحاكم في المستدرك٢/ ٣٩٢ وتعقبه الذهبي بالتضعيف وأخرجه الطبراني في الكبير١١/ ١١٤٣٩ وفي الأوسط٧٤٢، ٥٥١٤ وغيرهم، ينظر الضعيفة للألباني١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، بله أن محاجة آدم لموسى وقوله: (وكتب لك التوراة بيده)، وقول الأخير: (أنت الذي خلقك الله بيده) أوردها وبنحوها البخاري٣٢٢٨، ٤٤٥٩، ٦٢٤٠، ٦٦١٤، ٧٠٧٧ومسلم ٢٦٥٢ وأبو داود٤٧٠١، ٣٧٠٢ والنسائي في الكبرى١٠٩٨٦، ١١١٨٧ وأبو داود٣٧٠٢، ٤٧٠١ وابن ماجة٨٠ وأحمد٢/ ٣١٤، ٤٦٤، ٤٤٨، ٩٦٤ وابن أبي عاصم في السنة ١٣٧: ١٤٦ والدارمي في الرد على الجهمية ٢٩٠: ٢٩٣ وابن مندة في التوحيد٤٧٦، ٥٧٣: ٥٧٩ والآجري في الشريعة ٧٩٤: ٨٠٤ والبيهقي في الأسماء ص٤٤٨.

(٢) الوارد ذكرها في قوله عليه السلام: (تعجبون من غيرة سعد فوالله لأنا أغير منه والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ..) أخرجه البخاري٦٨٤٦، ٧٤١٦ ومسلم١٤٩٨ كما أخرجه بلفظ: (.. وما أحد أغير من الله) و(الله يغار) ونحوهما، البخاري٩٩٧، ١٠٠٠، ١٠٠٩، ٤٣٥٨، ٤٩٢٤، ٤٩٢٥، ٤٦٣٤، ٤٦٣٧، ٥٢٢٠، ٥٢٢٢، ٥٢٢٣، ٦٤٥٤، ٦٩٦٨، ٦٩٨٠، ٧٠٤٣ ومسلم٩٠١، ١٤٩٩، ٢٧٦٠، ٢٧٦١، ٢٧٦٢ والنسائي في الكبرى١٨٥٩، ١١١٧٣، ١١١٨٣ والترمذي ٣٥٣٠، ١١٦٨ وابن حبان٢٩٢: ٢٩٤، ٢٨٤٥، ٢٨٤٦، ٥٧٧٣ والحاكم١/ ٤٨٠، ٤/ ٣٩٨ وأحمد١/ ٤٣٦، ٢/ ٢٣٥، ٣٠٠، ٣٤٣، ٤٣٨، ٥١٩، ٥٣٦، ٥٣٩، ٤/ ٢٤٨، ٦/ ٣٢، ١٦٤، ٣٥٢ والبيهقي١٠/ ٢٢٥.

(٣) وذلك قوله عليه السلام: (لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة)، الحديث وبنحوه في البخاري٥٩٤٩، ٥٩٥٠، ٦٣٠٩، ٦٣٠٨ ومسلم٢٦٧٥، ٢٧٤٤: ٢٧٤٧ والترمذي٢٤٩٧، ٢٥٣٨ والنسائي في الكبرى٧٧٤١، ٧٧٤٢ وابن ماجة ٤٢٤٧ وابن حبان٦١٧، ٦١٨ والبيهقي١٠/ ١٨٨ وأحمد١/ ٣٨٣، ٤/ ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٨٣ والحاكم٤/ ٢٧١.

(٤) على ما قوله صلى الله عليه وسلم (جنات الفردوس ثنتان من ذهب: حليهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ..إلخ)، الحديث وبنحوه أخرجه البخاري ٤٥٩٧، ٤٨٧٨، ٤٨٨٠، ٧٠٠٦، ٧٤٤٤ ومسلم١٨٠، ٢٩٦ والنسائي في الكبرى ٧٧٦٥، ١١٤١ والترمذي ٢٥٢٨ وابن ماجة١٨٦ وابن حبان٧٣٨٦ والدارمي في سننه ٢٨٢٢ وغيرهم.

(٥) وفيه يقول صلى الله عليه وسلم: (يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)، رواه وبنحوه البخاري ٤٨١٢، ٦١٥٤، ٦٥١٩، ٦٩٤٧، ٧٣٨٢، ٧٤١٢، ٧٤١٣ ومسلم ٢٧٨٧ والنسائي في الكبرى٧٦٨٩، ٧٦٩٢، ٧٧٠٩، ٧٩٩٢ وأبو داود ٤٧٣٢ وابن ماجة١٩٢، ١٩٨ وابن حبان ٧٣٢٤ وأحمد٢/ ٣٧٤ وابن أبي عاصم في السنة١/ ٢٤١ وأبو الشيخ في العظمة والآجري في الشريعة٧٨٥، ٧٨٦ والبيهقي في الأسماء ٧٠٥، ٧٠٦ .. وقد وقع التحرز في قوله بعد في رواية ابن عمر: (ويطوي الأرض فيأخذها بيده الأخرى .. إلخ) عن إطلاق الشمال –

المؤمن[1]، وغير ذلك مما صح عنه وثبت .. يقول صاحب الحجة في بيان المحجة: "على العبد أن يؤمن بجميع ذلك ولا يؤوله تأويل المخالفين ولا يمثله تمثيل الممثلين ولا يزيد فيه ولا ينقص عنه، ولا يفسر منه إلا ما فسره السلف ويمره على ما أمروا ويقف حيث وقفوا، لا يقول كيف؟ ولم؟ يقبل ما قبلوه ولا يتصرف فيه تصرف المعتزلة والجهمية .. هذا مذهب أهل السنة وما وراء ذلك بدعة وفتنة"[2].

قال القرطبي في المفهم فيما نقله عنه الإمام ابن حجر: "ثم إن هؤلاء- يعني المتكلمين وأصحاب الأهواء- قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البله ولا الأطفال لما بحثوا عن تحيز الجواهر والألوان والأحوال، فأخذوا فيما أمسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفات الله تعالى وتعديدها واتحادها في نفسه وهل هي من الذات أو غيرها؟ وفي الكلام هل هو متحد أو منقسم؟ وعلى الثاني هل ينقسم بالنوع أو الوصف؟ وكيف تعلق في الأول بالمأمور مع كونه حادثاً؟ ثم إذا انعدم المأمور هل يبق التعلق؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو نفس الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك مما ابتدعوه مما لم يأذن به الشرع وسكت عنه الصحابة ومن سلك سبيلهم، بل نهوا عن الخوض فيها لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لم تُعلم كيفيته بالعقل لكون العقول لها حد تقف عنده، ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات.

يقول: ومن توقف في هذا فليعلم أنه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع وجودها وعن كيفية إدراك ما يدرك به، فهو عن إدراك غيره أعجز، وغاية علم العالم أن يقطع بوجود فاعل لهذه المصنوعات، منزه عن الشبيه مقدس عن النظير متصف بصفات الكمال، ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه

الوارد ذكرها في صحيح مسلم ٢٧٨٨- لئلا يتوهم نقص في صفته سبحانه، لأن الشمال في حقنا أضعف من اليمين، ومياسر كل شيء تنقص عن ميامنه في القوة والبطش والتمام ولأجل ذلك كان العرب تحب التيامن .. ينظر اللالكائي ٧٠٢ والشريعة ص٣١١ وفتح الباري١٣/ ٤٠٨ والنهاية لابن الأثير٥/ ٣٠١ ومختلف الحديث لابن قتيبة ص٢١٠ وهامش الأسماء للبيهقي ص٤٥٩.

[1] لعله يعني به الوارد في نحو قوله عليه السلام: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم – وفي رواية لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم- ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وقد رواه وبنحوه مسلم ٢٥٦٤، وابن ماجة٤١٤٣ وأحمد٢/ ٥٣٩.

[2] الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ٢/ ٤٧٠ مجلد١.

وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه الزلل ويكفي في الردع عن الخوض في طريق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والشافعي.

وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضلالاً .. قال:

وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك وببعضهم إلى الإلحاد وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره، وليس في قوة العقل ما يدرك ما في نصوص الشارع من الحكم التي استأثر بها، وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال: "ركبت البحر الأعظم وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فراراً من التقليد، والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف" .. وعنه أنه قال عند موته: "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت ما تشاغلت به"[1].

وما مثَل من عمد إلى مخالفة ما كان عليه السلف فراح يلجأ إلى الخوض في الجوهر والعرض ويتوسع في صفات السلب ويمدح الله جل وعلا بأنه ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسه ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا .. ولا .. إلخ، وكذا من راح يفعل ذلك في بعض صفاته كمن جعل يصف استوائه على العرش بأنه ليس تحته ولا فوقه ولا .. ولا .. إلى آخر ما التجأ إليه أهل الكلام من المعتزلة ومتأخرو الأشاعرة من الخلف من التفصيل في النفي .. إلا كمثل من راح يمدح أميراً له من الشأن العظيم ما له، فطفق يشيد به ويمدحه بأنه ليس بزبال ولا كناس ولا متسول ولا خادم ولا قصاب ولا ساعي بريد وما كان في يوم ما بائعاً متجولاً .. إلخ، وقد كان يكفيه – وذلك من دون شك أفضل – أن يقول عنه مثلاً بأنه (ليس له نظير فيما رأت عيناي)، و(مثله لا يبخل)، و(لن يجود الزمان بمثله)، كذا كان يكفي من وصف الله بما ذكرنا–

---

(1) فتح الباري١٣/ ٢٩٨، ٢٩٩عن المفهم للقرطبي وينظر هامش كتاب التوحيد لابن مندة١/ ٧٦، ٧٧.

ولله المثل الأعلى-أن يقول في مدحه تعالى ما قاله عن نفسه بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .. الشورى/ ١١)، إذ نفي صفات النقص التي ذكروها هي عين النقص، لأنه يلزم من قولهم عنه جل جلاله بأنه مثلاً ليس بجسم، أن يتساءل العقلاء ماذا يمكن يا ترى أن يكون إذا لم يكن جسماً هل يكون عرضاً؟ قالوا ولا عرضاً، قالوا فماذا يمكن يا ترى أن يكون إذا لم يكن كذلك، هل يكون شبحاً؟ .. وهكذا، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل نتج ما نفوه عن الله بطريقتهم تلك وبالتجائهم لهذا النفي المفصل إلا كلاماً فارغاً في الحقيقة من كل مدح، فضلاً عن مخالفتهم لما استقر عليه السلف الصالح من أمر الكف- حسب ما دلت عليه الآيات من نحو قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ .. طه/ ١١٠) - عن طلب كيفية الحقائق الغيبية ولاسيما التي تتعلق بذات الله وصفاته، لكون ذلك- ببساطة شديدة - فوق طاقة البشر وقدراتهم؟.

وللصنعاني في (إيثار الحق على الخلق) ص٢٩١ قوله: "لا يشك منصف أن الاقتداء بالسلف أرجح، فإن نفاة الصفات- الذين استحدثوا مصطلحات الفلاسفة من نحو الجوهر والعرض- ألزموا المثبتين تركيب الذات وما يتركب عليه، بل ألزموهم ذلك في مجرد قولهم: إن الوجود غير الموجود .. ومَن أثبتَ الصفات ألزم النفاة تعطيل الأسماء الحسنى ومخالفة الإجماع، فلزم التمسك بما اعترفوا بأن السلف كانوا مجتمعين عليه- سلفهم وسلف سائر فرق الإسلام- كما لزم ترك ما اختلفوا فيه، ويسعنا ما وسعهم".

تلك هي أهم الأسس والقواعد التي بنى عليها سلفنا الصالح عقيدتهم ومنهجهم في جانب التفويض المقتصر على الكيف، وما أطلعونا عليه وأخبرونا به في حظ المسلم فيما يجب علمه من صفات الباري سبحانه وما يجب الكف عنه .. وهي الطريقة المثلى الوحيدة التي ارتضاها الله لعباده والمقبولة لديه تعالى، وهي إلى جانب ذلك، الطريقة المجمع عليها من قِبل سلف هذه الأمة، لكونها - بلا إفراط ولا تفريط - المتوسطة بين التعطيل والتمثيل، وواسطة العقد بين النفي والتشبيه.

يقول صاحب الحجة في معتقد أهل السنة عن آيات وأحاديث الصفات: "يجب الإيمان بصفات الله تعالى كقوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ .. طه/ ٥)، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .. ص/ ٧٥)، وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ..القمر/ ١٤)، وقوله: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ .. النور/ ٩)، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ .. المائدة/ ١١٩، المجادلة/ ٢٢، البينة/ ١٨)، وقول النبي ﷺ: (ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا)، الذي رواه ثلاثة وعشرون من الصحابة- سبعة عشر رجلاً وست نساء، وكقوله: (ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن)[1]، فهذا وأمثاله مما صح نقله عن رسول الله ﷺ، فإن مذهبنا فيه ومذهب السلف إثباته وإجراؤه على ظاهره ونفي الكيفية والتشبيه عنه، وقد نفى قوم الصفات فأبطلوا ما أثبته الله لنفسه وتأولها قوم على خلاف الظاهر فخرجوا من ذلك إلى ضرب من التعطيل والتشبيه، والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين، لأن دين الله تعالى بين الغالي والمقصر عنه.

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الله إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، وكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فإذا قلنا يد وسمع وبصر ونحوها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولم يُقل معنى اليد القدرة ولا معنى السمع والبصر العلم والإدراك، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار، ونقول إنما وجب إثباتها لأن الشرع ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .. الشورى/ ١١)، كذلك قال علماء السلف في أخبار الصفات: (أمروها كما جاءت)، وهذا من كمال فهمهم حيث إن تفسير الكيفية متوقف على حقيقة وكيفية الذات، فإذا كانت الذات مجهولة

---

[1] الحديث وبنحوه أخرجه مسلم ٢٦٥٤ والترمذي ٢١٤٠، ٢١٤١، ٣٥٢٢، ٣٧٦٨وأحمد٢/ ١٦٨، ١٧٣، ٣/ ١١٢، ٢٥٧، ٤/ ١٨٢، ٦/ ٩١، ٢٥١، ٣٠٢، ٣١٥ وابن حبان ٩٤٣ وابن ماجة ١٩٩والطبراني في الدعاء ١٢٦٢ والنسائي في الكبرى٧٧٣٧، ٧٧٣٨ والحاكم١/ ٥٢٥، ٢/ ٢٨٨، ٢٨٩، ٣١٧، ٤/ ٣٢١وابن أبي عاصم في السنة ٢١٩وانظر الصحيحة ٢٠٩١.

الكيف والحقيقة، فالجهل بصفات تلك الذات من باب أولى، ومن ثم تردد على الألسنة أن القول في الذات كالقول في الصفات، وأقوال السلف في هذا الباب- على ما أوضحنا- أكثر من أن تحصى، وكلها تفرق بين تفويض المعنى وتفويض الكيفية، فالمعنى تثبته والكيفية تفوضه.

فإن قيل فكيف يصح الإيمان بما لا يحيط علمنا بحقيقته؟ أو كيف يُتعاطى في وصف شيء لا درك له في عقولنا؟ فالجواب: أن إيماننا صحيح بحق ما كُلفنا منها، وعلمنا محيط بالأمر الذي ألزمناه فيها وإن لم نعرف لما تحتها حقيقة كافية، كما قد أمرنا أن نؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة ونعيمها والنار وألم عذابها، ومعلوم أنا لا نحيط علماً بكل شيء منها على التفصيل، وإنما كلفنا الإيمان بها جملة واحدة، ألا ترى أنا لا نعرف أسماء عدة من الأنبياء وكثير من الملائكة، ولا يمكننا أن نحصي عددهم ولا أن نحيط بصفاتهم ولا نعلم خواص معانيهم، ثم لم يكن ذلك قادحاً في إيماننا بما أمرنا أن نؤمن به من أمرهم، وقد قال النبي ﷺ في وصف الجنة: (يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[1] .. وهذا الذي ذكره الأصبهاني ذكره أبو سليمان الخطابي والحافظ أبو بكر الخطيب وأبو بكر الإسماعيلي والإمام السجزي وأبو إسماعيل الهروي وأبو عثمان الصابوني وابن عبد البر إمام المغرب وغيرهم مما لا يحصى عددهم.

هكذا أبان الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان للناس أمر دينهم وأعذروا إلى ربهم، وما على مريد الحق ومبتغ طريق الله المستقيم، إلا أن ينهج نهجهم في اتباع الآية والحديث وأن يقتفي في ذلك أثرهم، لأن الدين لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وإنما جاء من قِبل الله تعالى وبينه الرسول لأمته وأوضحه لأصحابه، فمن خالفه في شيء فقد ضل وعرّض نفسه لوعيد الله القائل فيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .. النور/ ٦٣)، بل وعرض نفسه لاتباع طريق

---

[1] الحجة للأصبهاني ١/ ٢٨٨، ٢٨٩وينظر الحموية ص٣٤، ٣٥، وحديث (أعددت ..) أخرجه وبنحوه البخاري ٣٠٧٢، ٤٥٠١، ٤٧٨٠، ٧٠٥٩ومسلم ٣١٢، ٢٨٢٤ والترمذي ٣٢٩٢، ٧٠٥٩والدارمي ٢٨٢٨ والنسائي في الكبرى ١١٠٨٥ وابن ماجة ٤٣٢٨ وأحمد ٨١٢٨، ٩٦٤٧.

الشيطان الذي أبان عنه صلوات الله وسلامه عليه فيما صح من حديث ابن مسعود القائل فيه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله)، وخط خطوطاً عن يمينه وعن شماله فقال: (هذه سبل الشيطان على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)، ثم تلا: (وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ..الأنعام/ ١٥٣)[1].

ومن جميل ما أثر عن عمر الفاروق في هذا الصدد قوله: (لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا هدى يركبه يحسبه ضلالة، فقد ثبتت الحجة وانقطع العذر)[2] .. فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك واهدنا إلى صراطك صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .. فإنك يا إلهنا ولي ذلك والقادر عليه ..

اللهم آميـــن

*****

---

(1) الحديث وبنحوه النسائي في الكبرى ١١١٧٤ وابن حبان١/ ١٨٠، ٦ والحاكم ٢٩٣٨، وابن ماجة١١ وأحمد١/ ٤٣٥، ٣/ ٣٩٧ والآجري في الشريعة١١ : ١٣ وابن أبي عاصم في السنة ١٦ وصححه الألباني.

(2) شرح السنة للبربهاري٢ وحلية الأولياء٥/ ٣٤٦ والإحكام لابن حزم٦/ ٢١٥ وأورد ابن نصر المروزي في السنة ٩٥ نحوه عن عمر بن عبد العزيز.

خاتمة

وهكذا يعالج هذا الكتاب المتواضع في حجمه أنواعاً عديدة من الخلل في معتقد الصفات ضل بسببها خلق كثير، ويفند ألواناً كثيرة من الإلحاد عنى الله أصحابها وحذر منهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾.. فصلت/ ٤٠)، وقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾.. الأعراف/ ١٨٠)، وهم وإن كان نجمهم قد أفل بما قيض الله له ولتفنيد شبههم أهل الحق، فإن آثارهم لا زالت باقية، تطل بأعناقها وتبدو ظاهرة للعيان في اعتقادات الخلف من متأخري الأشاعرة ومن والاهم وحجل بقيدهم، الأمر الذي يستوجب بل ويفرض على كتائب الحق أن تستمر في حربها الضروس في إحقاق الحق، وتواصل طريق أسلافهم من أهل السنة في الذب عن معتقد الأمة حتى يسلم توحيدها من كل دخن ودخل .. ونذكر من صور الإلحاد التي بنى أصحابها عليها مذاهبهم في نفي الصفات وتعطيلها ومحاولة إدراك كنهها وكيفية قيامها به سبحانه، وتكفل هذا البحث بما تضمنه من نصوص أهل العلم بتفنيدها وإبطالها:

١ - الجهمية الذين ذهبوا إلى أن الله تعالى بذاته في كل مكان مخلوق، وقد جادلهم الإمام أحمد فأحسن جدالهم وكشف عوارهم قائلاً: "وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أنه في كل مكان، فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟ فيقول: نعم، فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً عن نفسه؟ فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقوال: أ- إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه. ب- وإن قال: خلقهم خارجاً من نفسه ثم دخل فيهم، كفر أيضاً حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر. جـ - وإن قال خلقهم خارجاً من نفسه ثم لم يدخل

فيهم، رجع عن قوله أجمع إلى قول أهل السنة"[1]، وقد تبع أولئك الجهمية الذين غاب عنهم ما قاله أحمد، غلاة النفاة والمعطلة ومقصدهم هو نفي وجوده سبحانه .. وقد كان قدماؤهم يتحاشون التصريح به وكان السلف يتفرسون فيهم ذلك وأنهم يبطنونه ولا يبوحون به، وقدمنا عن جماعة من السلف قولهم في أضرابهم ومن هم على شاكلتهم من الجهمية: "إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء إله يعبد"، وما أحسن ما قال محمود بن سبكتكين لمن وصف الله بذلك: "ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم"[2].

٢- كما حكى الأشعري مقولة الجهمية تلك عن بعض المعتزلة وتبرأ منها في الإبانة وفي مقالات الإسلاميين، فقد ذكر في الأول منهما ما نصه: "وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان، فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً"[3]، كما ذكر في المقالات أن المعتزلة الذين طالما ارتبط اسمهم باسم الجهمية، اختلفوا "في ذلك فقال قائلون: إن الله بكل مكان بمعنى أنه مدبر لكل مكان، وقال قائلون: البارئ لا في مكان بل هو على ما لم يزل عليه، وقال قائلون: البارئ في كل مكان بمعنى أنه حافظ للأماكن وذاته مع ذلك موجودة بكل مكان، واختلفوا هل يقال إن البارئ لم يزل عالماً قادراً حياً أم لا يقال ذلك على مقالتين"[4].

ومن المعلوم عن أهل الاعتزال أنهم قصروا إيمانهم في الصفات على ثلاث صفات فقط هي: العلم والقدرة والحياة، ونفوا ما عداها من نحو السمع والبصر لكونها- على حد ما ذكروا- من عوارض الأجسام، وزعموا "أن معنى (سَمِيعٌ بَصِيرٌ.. لقمان/ ٢٨) راء، بمعنى عليم، كما زعمت النصارى أن

---

(١) من رسالته في (الرد على الجهمية) ص ١٥٥، ١٥٦ بتصرف يسير، وينظر اجتماع الجيوش ص ٧٩ ومختصر العلو ص٥٤.

(٢) ذكره في التدمرية ص ٤١ وينظر مختصر العلو ص ٥٤.

(٣) الإبانة للأشعري ص١٠٩ تحقيق د/ فوقية حسين.

(٤) مقالات الإسلاميين ص٢١٢.

سمع الله هو بصره وهو رؤيته وهو كلامه وهو ابنه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"[1]، وقد بنى المعتزلة أساس مذهبهم هذا في التوحيد الذي هو عندهم أحد الأصول الخمسة على حجج داحضة مستقاة من الفلسفة الهندية واليونانية ومؤداها، القول بنفي الكثرة والتركيب وبوحدة الذات الإلهية وبساطتها من كل وجه، وأن هذه الثلاث المثبتة- على ما يقتضيه العقل بزعمهم- هي عين الذات[2]، وأن ما عداها زائد عن الذات ومؤذن- على حد زعمهم أيضاً- بتعدد القدماء لكونها غير الذات.

وقد أداهم الحديث عن علاقة الصفات بالذات على هذا النحو المفضي إلى الكيف، أداهم إلى التفصيل في نعوت السلب .. ومما ذكروه في هذا ونقله عنهم الإمام الأشعري قولهم: "أن الله واحد .. ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا محسة ولا بذي حرارة ولا برودة .. ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم .. لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار .. عالم قادر حيٌّ لا كالعلماء القادرين الأحياء ..إلخ"، فعطلوا بنفيهم المفصل هذا، رؤية الله وسائر صفاته وأسمائه وأفعاله، وعلى ما سبق عقب الأشعري بقوله: "فهذه جملة قولهم في التوحيد وقد شاركهم في هذه الجملة الخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الشيعة وإن كانوا للملة التي يظهرونها ناقضين ولها تاركين"[3]، وقد مر بنا ما به تقام الحجة على مثل هذه الطريقة في التفصيل في نعوت السلب.

---

(1) الإبانة للأشعري ص١٥٨.

(2) والحق أنه حتى هذه الثلاث، تأثروا في نفيها بالجهمية والزنادقة، وأرجعوها إلى العلم الذي هو عين الذات، لكن "لم تقدر المعتزلة أن تفصح بذلك، فأتت بمعناه وقالت: إن الله عالم قادر حي.. من طريق التسمية، من غير أن يثبتوا له حقيقة العلم والقدرة .. وقد قال رئيس من رؤسائهم وهو أبو الهذيل العلاف: إن علم الله هو الله، فجعل الله تعالى علماً وألزم، فقيل له: إذا قلت إن علم لله هو الله فقل: يا علم الله اغفر لي وارحمني، فأبى ذلك فلزمه المناقضة"، وتلك هي عبارة الأشعري الذي كثيراً ما يربط بين موقفي المعتزلة والجهمية بالنسبة لصفة العلم على الرغم مما يبدو عليه قول المعتزلة من اتجاه نحو إثبات صفة العلم لله، وينظر في شأن ذلك الإبانة ص١٤٣، ١٤٤، ٣٠٤، ولا ننسى أن الأشعري كان في إحدى مراحل حياته معتزلياً بل ظل كذلك أربعين عاماً، فهو - من ثم- أدرى وأعلم بما كان عليه القوم.

(3) مقالات الإسلامين للأشعري ص١٥٥، ١٥٦ .وينظر الإبانة له ص٣٦وما بعدها.

٣- الغلاة من النفاة والمعطلة وأهل الزندقة والفلاسفة وغيرهم ممن تأثروا بكلام الجهمية ومتبعي الأديان الأخرى، وقد أداهم إلى هذا الغلو في النفي، اعتقادهم في توحيد الله بوحدة واجب الوجود سبحانه من كل وجه، وهي فكرة مستقاة من الفلسفة الإغريقية، ومفضية إلى القول بإنكار الصفات الزائدة عن ذاته تعالى على حد زعمهم، ومفضية كذلك إلى التفصيل في نعوت السلب المؤدية بدورها إلى التعطيل المطلق، لكون هذه السلوب التي نعتوا بها الرب سبحانه على حد قول الحافظ حماد بن زيد فيما نقله عنه الحافظ الذهبي "نعوت المعـــدوم"[1]، وقد اعتمد الأشعري في الرد على هؤلاء وأضرابهم من المعتزلة قـــول عبد الله بن سعيد بن كـــلاب في علاقة الذات بالصفات بأنه لا يقال (هي هو)، ولا يقـال: (هي غيره)، لأن ذات الله فـــوق أن تحيـط بكنهها العقول.

٤- متقدمي المتكلمين ومتأخريهم وتابعيهم ممن ينتسبون إلى الخلف وإلى أبي الحسن الأشعري، وهو منهم براء، وقد أداهم اتباع طريقة الجهمية في النفي المفصل إلى قصر الصفات على سبع- بزيادة أربع صفات على ما قال به المعتزلة- وتعطيل وتأويل ما عداها، وإلى القول بان الله تعالى "ليس فوق العرش ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله و.. ليس له فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال"[2]، ويعني هذا النفي المستقى من كلام الجهمية ومن طريقتهم ومنهجهم في فهم الصفات، تكذيب ما صح عن الرسول ﷺ، فيا ويح من ترك ما هو معروف في الكتاب والسنة وآثر عليه الهوى فأعماه عن نور الوحي، فلـ"قد تكرر في القرآن المجيد ذكر الفوقية ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ .. النحل/ ٥٠) .. لأن فوقيته سبحانه وعلوه على كل شيء ذاتي له، فهو العلي بالذات والعلو صفته اللائقة به، كما أن السفول والرسوب والانحطاط ذاتي للأكوان عن رتبة ربوبيته وعظمته وعلوه، والعلو والسفول حد بين الخالق والمخلوق يتميز به عنه هو سبحانه"، كذا ذكره الإمام الجويني في رسالته عن

---

(١) العلو للذهبي ص ١٠٧ ومختصره للألباني ص١٤٧

(٢) كذا في حاشية البيجوري على الجوهرة ص١٠٥.

الاستواء والفوقية[1]، وقد مر بنا ما به تقوم الحجة على من مال إلى هذه الطريقة وآثرها على منهج السلف في إثبات كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله.

٥- معتنقي ومنتهجي طريقة أبي الحسن الأشعري القديمة في زماننا، تلك الطريقة التي فهمها متأخرو الأشاعرة من نحو الرازي والشهرستاني والبيجوري وغيرهم، وظنوا على نحو خاطئ أنها طريقة السلف، وقد سبق بيان خطأ هذه الطريقة وخطأ تصور أصحابها لمعتقد السلف الصالح سواء من ذلك من لم يغالي في تعصبه لهذه الطريقة كسائر أهل العلم وطلابهم ممن لم يدركوا بعد صحة ما جاء عن السلف وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من المسلمين .. أم من غالى في التعصب لتيك لطريقة الخاطئة التي درج عليها الرازي والبيجوري وغيرهما من المتكلمين ومتأخري الأشاعرة ظناً منه أنها طريقة إمام المذهب أبي الحسن الأشعري[2]، فلم يكتف بنفي ما يوهم التشبيه على حد زعمه، بل راح يتهم أهل السنة المعتقدين للطريقة الصائبة للسلف الصالح بأنهم مجسمة ومشبهة ويكيل لهم السبائب والشتائم التي تصل إلى حد الاتهام بالكفر كما هو الحال مع أتباع من يدعى عبد الله الهرري الحبشي، وهم بفضل الله قلة في بلاد لبنان ولكن- لكثرة أموالهم وسعة انتشارهم وجهل عامة المسلمين بحقيقة أمرهم - يخشى خطرهم على مسلمي الهند واستراليا وأندونيسيا وغيرها من بلاد المسلمين التي يرتادونها، نسأل الله للجميع الهداية والعفو والعافية.

٦- اللاأدرية وأصحاب التجهيل القائلين بأن نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يدرى ما أراد الله ورسوله منها، ورغم مخالفة منهجهم هذا- على ما سبق ذكره- لما كان عليه السلف الصالح، فإنهم ينسبونه إليهم

---

(1) كما ينظر نص كلامه في مختصر العلو ص٧٦.

(2) وقد مر بنا تراجع الأئمة المحققين منهم من نحو الإمام الرازي وعالم المشرق إمام الحرمين أبي المعالي ووالده الإمام الجويني والإمام المحقق ابن دقيق العيد ومن قبلهم إمام المذهب أبي الحسن الأشعري وغيرهم ممن ذكرنا وممن لم نذكر، إلى مذهب السلف أهل الحق والسنة والجماعة.

ويدعون- بعد أن يتأولوا الصفات على الرغم من اعتقادهم أنها من المتشابه- أنه الأسلم، وفي هذا من التناقض ما لا يخفى.

٧- الاتحادية القائلون بوحدة الوجود، وهم طائفة ابن الفارض وابن عربي صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما ممن أتوا في مصنفاتهم بكفر فاقوا به كفر اليهود القائلين عزير ابن الله والنصارى القائلين المسيح ابن الله، فإن هؤلاء وأولئك خصوا الحلول بشخص معين، وهؤلاء جعلوا الوجود بأسره على اختلاف أنواعه وتقابل أضداده- مما لا يسوغ التلفظ بحكايته- هو المعبود، وهذه الطائفة إنما بنت مذهبها على أنه تعالى هو عين الوجود، فصفاته هي صفات الله وكلامه هو كلامه، وأداهم لهذا الضلال تعرضهم للبحث عن كنه صفاته جل وعلا، فإنهم لما أصلوا أن لله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما، أحدهما: أنه معدوم لا وجود له إلا في الذهن أو في العقل فوجوده وجود عقلي، إذ لو كان موجودًا في الأعيان لكان إما مبايناً للعالم أو حالاً فيه، إما داخلاً فيه أو خارجاً عنه، وهذا معلوم بالضرورة فإنه إذا كان قائماً بنفسه فإنه لا يخرج عن أحد هذين الاحتمالين وهما باطلان، ثانيهما: أن يكون هو عين العالم سارياً فيه، فإنه يصح حينئذ أن يقال أنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مبايناً له ولا حالاً فيه إذ هو عينه، فرأوا أن هذا الأخير خير من إنكار وجوده أو الحكم عليه بأنه معدوم، ومقتضى ما ارتضوه أن الوجود بأسره هو الحق بل جميع الأضداد المتقابلة والأشياء المتعارضة، الكل شيء واحد هو في زعمهم معبودهم[1].

٨- الحلولية الذين يزعمون أن معبودهم في كل مكان بذاته، وينزهونه عن استوائه على عرشه وعلوه على خلقه ولا يصونونه عن أقبح الأماكن وأقذرها، وقد وضح تأثر هؤلاء بكلام الجهمية الذين صرح من تولى كبره منهم لما ناظره السمنية في ربه وحار في ذلك وفكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر، فقال: هو هذا الهواء الذي في كل مكان، وإنما كانوا يتوسلون إلى ذلك بالسلب

---

(١) ينظر الصواعق ص ٥١٠ ومعارج القبول ١/ ٣٠٢، ٣٠٥.

المحض والتعطيل الصرف كما فهمه منهم أئمة الإسلام، فقد صرح غلاتهم بوجوده تعالى لكن لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا أمام ولا خلف ولا داخل العالم ولا خارجاً عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ولا مبايناً له ولا حالاً فيه، إلى غير ذلك مما هو أدخل في باب التكييف ونفي وجوده تعالى بنفي أسمائه وصفاته وأفعاله وحكمته إلى غير ذلك، وهؤلاء لا يزال بلاؤهم حتى الآن يشيع في أذهان بعض الخاصة وفي أوساط العامة من الناس فما تكاد تجلس في مجلس خير إلا وتسمع من يقول (الله موجود في كل مكان)، وقد تسمع آخر يقول: (الله موجود في كل الوجود)، وما درى هؤلاء وأولئك أنهم يقولون بقول جهم وأتباعه الذين ما فهموا من صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالمخلوقين.

٩- أصحاب التخييل وهم الذين اعتقدوا أن الرسل لم يفصحوا للخلق بالحقائق بدعوى أنه ليس في قواهم إدراكها وإنما أبرزوا لهم المقصود في صورة المحسوس، قالوا:

ولو دعت الرسل أممهم إلى الإقرار برب لا داخل العالم ولا خارجه ولا حالاً فيه ولا مبايناً له ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا يساره، لنفرت عقولهم من ذلك ولم تصدق بإمكان هذا الموجود فضلاً عن وجوب وجوده .. ولم يكتفوا بهذا أو يقفوا عند حد السلف في السكوت عما سكتوا عنه، حتى ضربوا له سبحانه المثل بموجود عظيم جداً أكبر من كل موجود وله سرير عظيم وهو مستو على سريره، يسمع ويبصر ويتكلم ويأمر وينهى ويرضى ويغضب ويأتي ويجيء وينزل وله يدان ووجه ويفعل بمشيئة، وقد ساعدهم على هذا المقصد أصحاب التأويل حتى نقلوا كلماتهم بعينها إلى نصوص الاستواء والفوقية وسائر الصفات الخبرية، لكن هؤلاء أوجبوا أو سوغوا تأويلها بما يخرجها عن حقائقها وظواهرها، وظنوا أن الرسل قصدت ذلك من المخاطبين تعريضاً لهم إلى الثواب الجزيل ببذل الجهد في استخراج معانٍ تليق بها، وأولئك حرموا تأويل الصفات — أعني الوقوف

على معانيها التي تقتضيها قواعد اللغة – وإن اتفقوا مع المؤولة في إبطال حقائقها المفهومة منها في نفس الأمر[1].

والحق أن ما قالوه وسول لهم به الشيطان هو"تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة به جل وعلا، فإنه إذا قال القائل: (لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً وكل ذلك من المحال)، ونحو ذلك من الكلام، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان .. ونقض هذا لمنهج السلف الصالح وما أجمع عليه الأئمة الماضون من المحدثين والفقهاء والمفسرين واللغويين وغيرهم – والذي ينحصر في أنه تعالى فوق عرشه بائن من خلقه وفي أن استواءه تعالى على عرشه مختص به، ولا يلزمه شيء من تلك اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام- لا يخفى .. ومع ذلك فلا زلنا نرى أثر ما روجه المعتزلة وأضرابهم ممن أثبتوا ألفاظ أسمائه تعالى دون ما تضمنته من صفات الكمال.

وإنما نشأت هذه الأقوال التي أسلفنا ذكرها، والتي لا يزال- كما ألمحنا- أثرها باق إلى يوم الناس هذا، جراء الزيغ والابتداع واتباع الهوى والتقديم بين يدي الله ورسوله والابتعاد عن منهج الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ونظير خرم إجماعهم على منهج القرآن في تفصيل ما هو مثبت من صفاته تعالى وإجمال ما هو منفي عنه.

وقد نبه أئمة العلم إلى مغبة الوقوع فيما يخالف ما كان عليه سلف الأمة، كما حذروا من خطورة اتباع الظن وتقديم العقل على النص ومن ترك التحاكم إلى ما أنزل الله على رسوله من وحي، ومن تحريف للكلم عن مواضعه لاسيما ما تعلق من ذلك بتوحيد الخالق سبحانه، فأوضحوا أن أهل الأهواء إذا وجدوا الأدلة على خلاف ما يعتقدون أو يتفق مع هواهم، أوّلوها وصرفوها عن

(1) ينظر الصواعق لابن القيم ص١٠٣، ٦١، ٦٢.

حقيقة معناها كما فعل المعتزلة في الأدلة المخالفة لأصولهم الخمسة وكما فعلت الجهمية في آيات الصفات[1].

ولعلنا نلحظ خطورة التعصب للرأي واتباع الهوى عندما نطالع بعضاً مما آل إليه حال أولئك المبتدعة وما وصلوا إليه من جرأة منقطعة النظير، ونذكر من ذلك ما رواه عبيد الله بن معاذ عن أبيه أنه سمع عمرو بن عبيد (إمام المعتزلة) يقول - وذكر حديث الصادق المصدوق: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك .. الحديث)[2]- "لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقول هذا لما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا" .. وفي معرض حديثه عن الصوفية القائلين بوحدة الوجود يحكي شيخ الإسلام ابن تيمية أشياء من هذا القبيل فيقول: "وحدثني الثقة الذي رجع عنهم لما انكشف له أسرارهم، أنه - يعني (التلمساني)- قرأ عليه (فصوص الحكم) لابن عربي، قال: فقلت له: فإذا كان الكلِ واحداً - يعني على ما يقضي به مذهب القائلين بمذهبهم في الاتحاد - فلماذا تُحَرَّم عليّ ابنتي وتحل لي زوجتي؟ فقال: لا فرق عندنا بين الزوجة والبنت، الجميع حلال! لكن المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم" .. وقد مر بنا ما كان من جهم ابن صفون ومن قوله عندما قرأ قول الله تعالى: (الرحمن على العرش استوى .. طه/ ٥): (لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لحككتها).

هكذا ندرك إلى أي مدى يمكن أن يصل العدوان السافر على ثوابت العقيدة وأحكام الشريعة، وإلى أي مدى يمكن أن تصل الجرأة المتناهية على رد النصوص الثابتة المحكمة والاعتراض عليها بفعل الهوى واتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، وذلك من دون شك علامة من علامات الفجور والزندقة،

---

(1) ينظر الاعتصام ١/ ٢٤٩ ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٤٤٠.

(2) وبنحوه أخرجه البخاري٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤ ومسلم ٢٦٤٣، ٢٦٤٥والنسائي في الكبرى١٢٤٦ وأبو داود٤٧٠٨ والترمذي٢١٣٧ وابن ماجة٧٦ وابن حبان٦١٧٤ والبيهقي٧/ ٤٢١، ٤٢٢ وأحمد١/ ٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠.

تزداد بازدياد الفساد والضلال والبعد عن منهج السلف الصالح، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل ويجنبنا الهوى، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ويهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنه إلى صراطه المستقيم، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم الفراغ منه – بحمد الله تعالى – في أيام العيد الأكبر والتشريق من العام ١٤٢٧ من هجرة المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم

أ.د/ محمد عبد العليم الدسوقي
القاهرة الجديدة ت ٢٧٥٨٥٢١٠ / ٠٢

****

أهم مراجع البحث

١ - الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ت د/ فوقية حسين محمود ط١، ١٣٩٧ دار الأنصار.

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، المعروفة بالإبانة الكبرى، لابن بطة العكبري الحنبلي ت د/ أحمد المزيدي، ط١، ١٤٢٢ دار الكتب العلمية.

٣- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن قيم الجوزية ط ١٤٠١، دار الفكر بمصر.

٤ - الأسماء والصفات للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين للبيهقي ت/ فؤاد بن عبد الغفار ط١ المكتبة التوفيقية.

٥- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث للحافظ البيهقي ت د/ السيد الجميلي دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٨.

٦- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشبهات لزين الدين المقدسي ت/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٠٦.

٧- الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية، مكتبة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة ط ٢، ١٣٦٦.

٨- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، للإمام محمد إبراهيم الصنعاني ت/ أحمد مصطفى حسين صالح، ط ١٤٠٥ الدار اليمنية للنشر والتوزيع.

٩- الإيمان لابن مندة ت د/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ط٤، ١٤٢١ دار الفضيلة وابن حزم.

١٠- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ت د/ عبد القادر عطا، ط١، ١٤٠٢ دار الكتب الإسلامية بعابدين.

١١- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر، ط ٢ لسنة ١٣٩١ دار الفكر بدمشق.

١٢- تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ط دار الريان ط١ لسنة ١٤٠٨.
١٣- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل لابن خزيمة ت د/ عبد العزيز الشهوان ط١، ١٤٠٨ دار الرشد للنشر بالرياض.
١٤- التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، لابن مندة ت د/ على الفقيهي ط١، ١٤٢٣ مكتبة العلوم والحكم.
١٥- جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر بن عبد البر ت/ ياسر سليمان أبو شادي ط١ التوفيقية.
١٦- الحجة في بيان المحجة في شرح عقيدة أهل السنة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني ت د/ ابن ربيع المدخلي دار الراية ط١، ١٤١١ الرياض.
١٧- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من كافية ابن القيم الشافية للشيخ ناصر السعدي، مكتبة المعارف سنة ١٤٠٦.
١٨- ذم التأويل لموفق الدين أبي عبد الله أحمد بن محمد بن قدامة ط١، ١٣٥١ مطبعة المنار بمصر.
١٩- الرد على الجهمية والزنادقة لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل ت صبري بن سلامة شاهين ط دار الثبات ط ١ لسنة ١٤٢٤.
٢٠ - رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري ت د/ عبد الله الجنيدي، ط مركز إحياء التراث الإسلامي بالمدينة المنورة.
٢١- الرسالة التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المكتبة السلفية بالقاهرة ط٢، ١٣٩٧.
٢٢- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، المطبعة المصرية ومكتبتها.
٢٣- السنة لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال ت د/ عطية بن عتيق الوهراني، دار الراية الرياض ط٢، ١٤١٤.
٢٤- السنة للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ت/ محمد السعيد بن بسيوني دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤٠٥.
٢٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي ت/ أحمد سعد حمدان، دار طيبة بالرياض.

٢٦- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تخريج الألباني، مكتبة الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

٢٧- الشرح والإبانة على كتاب الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ومجانبة المخالفين ومباينة أهل الأهواء المارقين، المعروفة بالإبانة الصغرى لابن بطة، ت د/ رضا نعسان معطي، ط ١، ١٤٢٣ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة.

٢٨- الشريعة للمحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ت د/ عبد الله بن عمر الدميجي، ط٢ دار الوطن للنشر.

٢٩- الصفات للحافظ أبي الحسن على بن عمر الدارقطني ت د/ على بن محمد بن ناصر الفقيهي ط دار إحياء السنة النبوية.

٣٠- عقائد السلف للأئمة أحمد والبخاري وابن قتيبة وعثمان الدارمي، جمع د/ النشار ط ١٩٧١ منشأة المعارف بالإسكندرية.

٣١- عقيدة السلف وأصحاب الحديث لشيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل الصابوني ضمن المجموعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٧٠.

٣٢- العقيدة النظامية لإمام الحرمين عبد الملك الجويني ت د/ محمد الزبيدي ط١، دار النفائس بيروت.

٣٣- علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين لرضا بن نعسان معطي، ط ١سنة ١٤٠٢ مطابع التراث بمكة المكرمة.

٣٤- العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها للحافظ الذهبي ت/ عبد الرحمن محمد عثمان ط٢، ١٣٨٨ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٣٥- الغنية لطالبي طريق الحق للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني ت عبد الكريم العجم ط٢، ١٤٢٤ دار صادر بيروت.

٣٦- الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ط دار المعرفة بيروت.

٣٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٨- فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ بن عثيمين، دار الصفوة بالقاهرة، ط١ سنة١٤٠٦.

٣٩- الفتوى الحموية لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ط٣، ١٣٩٨المطبعة السلفية.

٤٠- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، بشرح الشيخ صالح بن عثيمين ت/ هاني الحاج ط١، ١٤٢٣ مكتبة العلم.

٤١- مختصر صواعق ابن القيم المسمى باستعجال الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة للموصلي، مكتبة المتنبي سنة ١٤٠٠.

٤٢- مختصر العلو للعلي الغفار، للألباني ط١ المكتب الإسلامي ١٤٠١.

٤٣- معارج القبول شرح سلم الوصول للشيخ حافظ حكمي، ت/ صلاح محمد عويضة ط١ لسنة١٤١١ دار الكتب العلمية ببيروت.

٤٤- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ت هلموت رايتر ط٤ لسنة١٤٢١ الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.

٤٥- النصيحة في صفات الرب جل وعلا للإمام عبد الله بن يوسف الجويني ت/ زهير الشاويش، ط٣، ١٤٠٣ المكتب الإسلامي.

******

تراجم بأبرز من نقلت عنهم مادة هذا المجمل في معتقد الصفات.. متضمنة سنة الوفاة وأرقام الصفحات

١- إبراهيم بن أدهم (البلخي)ت ١٦١ص٢٠	٢- إبراهيم بن محمد (الأصبهاني)ت ٢٥٣ص١٧
٣- أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ت ٣٧١ص٦٢	٤- أحمد بن إسحاق (الضبعي) ت ٣٤٢ص٥٢
٥- أحمد بن الحسين (البيهقي) ت ٤٥٨ص٦٢	٦- أحمد بن حنبل (إمام المذهب) ت٢٤١ص٥٩
٧- أحمد بن زكريا (الساجي) ت ٣٠٧ص٥٠	٨- أحمد (أبو نعيم الأصبهاني) ت ٤٣٠ص٦١
٩- أحمد بن الفرات (الرازي) ت ٢٥٨ص١٧	١٠- إسحاق بن إبراهيم (بن راهويه) ٢٣٨ص٤٨
١١- إسماعيل (الصابوني) ت ٤٤٩ص٥٣	١٢- إسماعيل بن محمد(الأصبهاني)ت ٥٣٥ص ١٥
١٣- الأسود بن يزيد (النخعي)ت ٧٥ص ١٥	١٤- أسيد بن عاصم بن محمد ت ٢٧٠ص١٧
١٥- أيوب (السجستاني)ت١٣١ص ١٦	١٦- حرب بن إسماعيل (الكرماني) ص٢٥
١٧- الحسن بن يسار (البصري) ص٩١	١٨- الحسن بن ربيع (أبو علي) ت ٢٢١ص١٦
١٩- الحسن بن علي(البربهاري)ت ٣٢٩ص٦٠	٢٠- حماد بن زيد البصري ت ١٦٧ص٥٣
٢١- حماد بن سلمة البصري النحوي ١٦٧ص٥٣	٢٢- حمد بن محمد (الخطابي) ت ٣٨٨ص٥٢
٢٣- حمزة بن حبيب بن عمارة ت ١٥٦ص١٩	٢٤- الخليل بن أحمد(الفراهيدي)ت١٦٠ص١٩
٢٥- ذكوان بن كيسان(طاووس)ت١٠٦ص ١٦	٢٦- ربيعة الرأي(شيخ مالك) ت ١٣٦ص٥٥
٢٧- رفيع بن مهران (أبو العالية) ٩٣ ص١٩	٢٨- سالم بن عبد الله بن عمر الفاروق ت٩٤ص ١٥
٢٩- سعيد بن المسيب ص٥٩	٣٠- سفيان بن سعيد (الثوري) ت ١٦١ص٤٥
٣١- سفيان بن عيينة ت ١٩٨ص٤٧	٣٢- سليمان بن أحمد (الطبراني) ت ٣٦٠ص١٧
٣٣- سليمان بن طرخان التيمي ت ١٤٣ص ١٦	٣٤- سهل بن عبد الله (التستري) ت ٢٨٣ص٦٨
٣٥- شُرَيك (القاضي) ت ١٨٨ص٤٦	٣٦- شعبة بن الحجاج (أبو بسطام) ت ١٦٠ص١٦
٣٧- عامر بن شراحبيل(الشعبي)ت ١٠٤ص ١٦	٣٨- عبد الرحمن (الأوزاعي)ت١٥٧ص٤٤
٣٩- عبد الرحمن (بن مهدي) ت ١٩٨ص٢٤	٤٠- عبد العزيز (بن الماجشون) ت ١٦٤ص٢٣
٤١- عبد القادر (الجيلاني) ت٥٦٢ص٤٣	٤٢- عبد الله بن أحمد (بن قدامة) ت٦٢٠ص٥٤
٤٣- عبد الله بن الزبير(الحميدي) ت٢٢٩ص١٣٥	٤٤- عبد الله (بن عون) بن أرطبان ت ١٥١ص١٦
٤٥- عبد الله بن كثير بن المطلب ت ١٢٠ص١٩	٤٦- عبد الله بن المبارك ت ١٨٢ص١٠٣
٤٧- عبد الله بن محمد(ابن حبان) ت ٣٦٩ص١٧	٤٨- عبد الله بن محمد بن النعمان ت ٢٨١ص١٧
٤٩-عبد الله بن يوسف(الجويني)ت ٤٣٨ص١١١	٥٠-عبد الملك (إمام الحرمين)ت ٤٧٨ص١١١
٥١-عبد الملك بن قريب(الأصمعي)ت٢١٥ص١٩	٥٢- عبيد الله (أبو نصر السجزي)ت ٤٤٤ص٥٣

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية

٢٠٠٥ /١٦٨٨٣